

**THE BOOK WAS
DRENCHED**

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190323

UNIVERSAL
LIBRARY

مَارِئْتُ وَمَا كُنْتُ

« من دمشق الى مكة
« عشرون يوماً في الطائف
« تسعون ليلة في ضيافة الملك
« جولة في البادية
« أدب البداءة
« من مكة الى هايوبوايس

غُيْرَالِيَيْنِ الزَّرْجَلِي

صُنِيتْ بِنَشْرِهِ

الطَّبَعَةُ الْعَرَبِيَّةُ وَمَكْتَبَتُهَا

٢٤٤

جميع الحقوق محفوظة المؤلف
س ١٣٤٢ سنة هـ س ١٩٢٣ سنة م .

من دمشق الى مكتة

« ايلة ميسلون . في القطار . في حيفا . من حيفا الى القاهرة . »

« من القاهرة الى السويس . في جدة . الى مكة . في المخولان . »

ليلة ميسلون :

أنا لا أنكو ونى في أوتي وبقوي كان إدلال الفخور !

إنما توشك أن تبكي غفلة العادة فينا والصدور !

رحمك اللهم ري ! ورافتك ، بامة أسلمت زماءها المتأدبر الى زعما ، خبطوا بها
خبط عشواء ، وقادة كانوا حطاب ايل ، ونذر ويل ، نقمحوا بها مجاهل الأمور
على غير هدى ، تسيرهم الاهواء ، والنزعات . وتلعب بهم الأغراض والتزغات ،
طالب منصب ، وعابد درهم ، وعاشق تاج ! لا يبالون من أية الطرق كان لهم
ما يتفنون . أو يكون !

قضى الامر ، وأراد التردد والضعف وعمى البصيرة أن تتفق وزارة الشام مع
ملكها فيصل بن الحسين على تسريح الجيش إجابة لرغبة النائد الفرنسي الزاحف
على ميسلون ، ونزولا على حكمه ، واستشمر أهل دمشق في حكومتهم اذعاناً للطارق
الدام ، فأنفوا الاستسلام وأبوا إلا أن يتركوا أثراً من الدماء في صحيفة ذلك
اليوم .. فثاروا !

واضطرب المتربعون على كرسي الحكم في دمشق ، نهعدوا الى قمع اثورة
بالعنف ، فسادت الفوضى ظلام ايلة ٢٠/٢١ يوليو (تموز) ١٩٢٠ وأقبل الجند
المسرحون ، منتشرين في احياء دمشق ، يتفنون للاستقلال والدفاع ، تحت
رصاص الرشاشات التي كان يطلقها رجال الامن في المدينة ، وانصرف الغوغاء الى
نهب مافي مستودعات الحكومة من أرزق وذخائر وعتاد ، وأصبح الناس فجر
يوم الخميس (٢١ يوليو) والقنلى مددة في الشوارع والازقة ، والجرحى محمولون الى
بيوتهم ومستشفياتهم .

ذلك حديث الأهلين . وأما الحكومة ، وكبيرها الملك فيصل ، فقد حسبت أنها أحسنت الصنع بتفريق ما كان مجتمعاً لها من قوة الجيش ، وسارعت الى إعلام المعتمد الفرنسي في دمشق (الكولونيل كوس) بقبولها ما أراد لها الجنرال غورو . . إلا أنها لم تلبث أن تلقت جواب خطابها على غير ما كانت تحال . . كان الجواب تقدم القوة الفرنسية المسلحة في « مجدل عنجر » على مقربة من « رياق » الى الشرق . وعلمت حكومة الملك فيصل أن زلفاها من الغير ، لم تعد تنفعها ، فبادرت الى استماع ما يتوله الملك فاذا هو يعان الحرب . . !

أعلنت الحرب بين دمشق والجيش الفرنسي . . وليس في ساحة ميسلون ، جبهة الدفاع ، غير مئة وستين جندياً لم يبرحوا أما كنههم حين تسريح الجيش العربي السوري ، ترافقهم كوكبة من الهجانة ، ومعهم ستة مدافع من عيار ٧٥ ورشاشات لا يزيد عددها على الأربع . . !

هذه هي القوة التي أعلن بها الملك فيصل حرب سورية على الفرنسيين ، وهي القوة نفسها التي ثبتت في خنادقها ست ساعات أمام الجيش الزاحف المؤلف من أربعة آلاف جندي فرنسي وبين يديه ما استطاع نقله من عدد وذخائر !

اللهم ، وما أنس لأنس اندفاع جماعات الالهين ، هذا يحمل زاد يومين ، وذلك جعبة رصاص ، وذلك رافع علماً يقسم به أن سيموت دونه !

كانت وقعة ميسلون ، وتقلب الاكثرون ، واصبح يوم الاحد (٢٥ يوليو ١٩٢٠) وقائد الحملة الفرنسية (غودن) يستعرض جيشه في شوارع دمشق وساحاتها ! ليس من شأني هنا أن أعد ما اقترفه قادة ذلك الجيش من قتل الأسرى صلباً على جذوع الشجر ورمياً بالرصاص وما حاولوا أن يكذبوا به على الخلق من بشم صنائعهم في بعض الفنادق ليرشتوهم بالرياحين ، فيقال : دمشق تفتح صدرها للمستعمرين . . !

وليس من شأني ايضاً أن اسرد تفاصيل تلك المفاجعة ومقدماتها ونتائجها في هذا الكتاب . ولكن حسبي أن اقول : إن صديقاً لي لأسميه الآن ، رأي عصر ذاك اليوم ، وقد خرجت لا بصر ما استمرت الحال عليه ، فاخبرني بأن قائمة اسماء اطلع

عليها خلسة ، يريد المحتلون سوءاً بمن فيها ، وأنه قرأ اسمي في متصفهها . وحذرتني ان ابيت تلك الليلة في منزلي .. فشكرته ، وأطعته !

في القطار :

أصبحت يوم ٢٦ يوليو (تموز) ١٩٢٠ متجهاً للسفر ، اخشى أن تقع علي عين واش فيصدني عن سبيلي ، فبعثت بمحبتتي الى القطار ، وأقبلت - وهو على وشك السير - فلم يكدهن اهتزازة الانطلاق حتى كنت فيه ، وفي الصدر وساوس وفي النفس اضطراب ، لولا أن هوّن عليّ علمي بأن يد الغاصب لم تزل بعيدة عن ادارة تلك السكة - سكة الحجاز - وأن المحطة لم تبرح في مأمن من سيطرته حتى تلك الساعة .

شعري شاب ، أذكر أنني رأيته قبل ذلك ، فأقبل عليّ مسلماً ، وانتظارياً بحري متجهاً نحو « محطة القدم »^(١) « فعرّفني أنه احد موظفيه ، ودعاني الى الطاولة ! فعجبت لامره وتظاهرت بأن ايس هناك ما يدعو الى الاضطراب .. ولكن سرعان ما أدركت أنه واقف على دخيلة أمري ، وأنه أخوف عليّ مني ، فنهني الى أن ضابطاً وافراداً من الافرنسيين قد نيط بهم النظر في راكبي هذا القطار ، وأنهم ربما كانوا ينتظرونه في القدم . وأردف ذلك بقوله : أما أنا فقد هيأت لك مكاناً تخبيء فيه . قلت : اين ؟ فأشار الى موضع الفحم في القاطرة .. وانصرف بعد ان شكرت له غيرته .

كنت لابسا في ذلك اليوم بذلة بيضاء ، فجعلت أنظر اليها وأتساءل في نفسي : كيف تكون هذه بعد دخول بيت الفحم ؟ ! وغرقت في بحر من الخواطر والهواجس فاذا القطار يصفر ، فنظرت ، فاذا نحن على متربة من محطة القدم . . فعاودني الذعر !

تخطينا المحطة وايس فيها أفرنسي . وجاءني ذلك الشاب يهنئني . فسألته عن اسمه ، فلم يكتمه ، واطرد لنا السير في سهل « الكسوة »^(٢) الرحيب ، الى أن

(١) أول محطة بعد دمشق في خط دمشق - حيفا (٢) بين دمشق وحوران جنوباً تبعد محطتها عن دمشق ٢٥ كيلومتراً .

قاربنا « المسمية » ^(١) فلاح لنا عن بعد شبح جمع كبير من الخيالة قد اكتنفوا الخط الحديدي من جانبيه ، ودنونا ، فشهدنا بنادقهم ، وهدفها القطار ، فعلاصحيح الركاب من الخوف ، وكان الى جانبي ضابط عربي - من جيش الشريف - حوراني الاصل ، رأى مارأى الناس فألقى « فيصليته ^(٢) » عن رأسه ، وظهرت وفرة وجدائله ^(٣) . وأطل من النافذة يصيح باهجة القوم ، مشيراً لهم - والقطار متناقل في سيره - : « أن كفوا ! فتعادي بعضهم نحونا ، وقد عرف صاحبنا أحدهم فناداه باسمه ، فاجابه ذلك صاخاً « وايش جابك ^(٤) معهم ؟ » فصاح به : « ماهنا أحد ! » - وكما قد باغتناهم . نأمالوا أفواه بندقياتهم واكتنفوا بنظرات كانوا يلتونها على كل عربة من عربات القطار .

وعرفنا بعد ذلك أن جمهور « الحوارنة ^(٥) » كان قد علم بما صارت اليه حال دمشق ، وأصبح يتربص زحف الافرنسيين الى احتلال حوران ، فتهيأوا للدفاع . وأزمعوا اعتراض قطار هذا اليوم إن كان فيه أحد منهم ، ووصلنا بعد نحو ساعة الى « أزرق ^(٦) » وقد بدأت مخاوفنا تتبدل أمناً وهو اجسنا تمتلب اطمئناناً ، فجدها حادث لم يكن في الحسبان !

ذلك أن خصاماً قديماً كان بين طائفتين من قاطني بلاد حوران : اتفق أن رجلا من احدهما كان راكباً معنا فنزل يريد دخول القرية فاعترضه آخر من الطائفة الثانية ، فتنازعا وتلاطما ، وعمدا الى السلاح ، فانتصر الاول فتى كان لم يزل في القطار فشهر مسدسه واطلق منه بضع طلقات تهديداً لحصم رفيقه ومن كان قد انضم اليه يعينه ، فتأب عليهما جمع ، فاستدبر الرجلان القطار ، وتتابع اطلاق الرصاص حولهما ، وارتفع الصراخ وخشي الراكون . وصاح صائح فينا : « يارايط ^(٧) ياشباب ! » .. فرأينا الحكمة في مارأى : فاهوينا منبطحين ، نعفرثيابنا

(١) محطة في جنوب دمشق تبعد عنها ٥٦ كيلو متراً . (٢) الفيصلية : قبعة كالخوذة كان يلبسها ضباط العرب في سورية أيام امارة فيصل (٣) الجديلة في عرف بادية الشام اليوم : الضفيرة . وفي اللغة : جدله أحكم قتله . (٤) أى شيء جاء بك (٥) سكان حوران (٦) محطة في حوران تبعد ٩٦ كيلو متراً عن دمشق (٧) لفظة تركية أسلمها « بره ياط » أى « نم على الارض » ويريد بها العسكريون الانبطاح على البطن .

بتراب الاقدام ! خشية أن تعلق بأحدنا رصاصة طائشة تلدها الفوضى العمياء ! .
وانحدر أناس من القطار ، لا يهتدون الى أين يفتدون ! ومضى آخرون الى سائقه
فهددوه بالنار اذاهو لم يمحض بقطاره ، فاضطر الى موافقتهم وبرح بنا موقف الفتنة ..
كل هذا حدث في بضع دقائق وكان الوقوف المعتاد في هذه المحطة ربع ساعة
لحل ما يراد نقله من حوبها . ولم نبتعد عنها مسافة ٣٠٠ متر حتى رأينا دخاناً كثيفاً
تصاعد من خانها وسمعنا دويًا لم نعرف حقيقته إلا بعد أن بلغنا المحطة التالية « خربة
الغزالة ^(١) » وتقاطر علينا من بها مبتهجين بنجاتنا قائلين : ان لغما قد انفجر بعد
مضيك فنسف خط المحطة . فحمدنا الله وذكركنا فضل حادثة الخصاص التي فررنا منها
وتمثل أكثرنا بقوله تعالى : «وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم» !

واستأنفنا المسير فبلغنا «أذرعات» ^(٢) وأهل الشام يسمونها «درعا» وأهباها
والبداءة يقولون « درعا » فإذا طعمها غاص بطائفة من أحرار سورية . علمت
منهم أن الملك فيصل عاد صبيحة اليوم نفسه الى دمشق بعد أن كان قد انسحب
منها الى درعا (أذرعات) فقلت : لعل له عذراً وأنت تلوم !

تناوات طعام الظهر مع طليعة المهاجرين .. وحدثت بعضهم بما شاهدته في
طريقي من دمشق . فلم يشك أحد منهم في أن فوضى حوران سئلتصل بأذرعات .
فاتفق أكثرهم على الرحلة الى حيفا . فقصدناها يزيد عددنا على العشرين بيننا
خالد الحكيم وأمين معلوف وسعيد حيدر وفؤاد سليم وبهجة الشهابي وتوفيق
اليازجي ورياض الصلح وتوفيق مفرج ومعين الماضي . ومضت لنا ساعات في
القطار الى أن بلغنا «سمخ» وهي الحد الفاصل بين المنطقتين الشرقية والجنوبية من
سورية الحجازة . وان شئت فقل الحد الفاصل بين مستعمرتي فرنسا وانكلترا في
سورية المعزقة . . !

طال وقوف القطار في «سمخ» المحطة الجافة القاحلة ، فانتظرنا مكرهين ، مع
المنتظرين ، وجاءنا بالاخبار من لم نزود . . فعلمنا أن حكومة حيفا قلقت لدنو هذا

(١) على ١١١ كيلو متراً من دمشق جنوباً (٢) على ١٢٨ كيلو متراً من

دمشق جنوباً

الوفد الكريم من ارضها .. فلم يسرها ان يسرح في مغانيها ثوار فوضيون هامون
مطاردون منكوبون .. واتمست وسيلة للخلاص من شرهم .. فلم تجد ، فأوفدت
لاستقبالهم سبعة من عيونها وارصاها يقال ان احدهم مدير شرطة (بوليس) حيفا
لا وفد ترحيب وتأهيل وتسهيل ! بل وفد استراق حديث والتماس هفوة
ونجس خبر !

قدم الوفد أفراداً غير مجتمعين ، وقد تهيأنا لاستقبالهم بانقسامنا الى أربع جماعات
لكل جماعة منا عمل ، فريق يمثل فصلا من رواية « العدل أساس الملك » من
روايات ككشكش . وفريق يتناشد الاشعار . وفريق يتغنى بأنواع الغناء
« البلدي » . وفريق يراقب حركات الوفد القادم . وجعلنا آية دخول « أحداقادهين »
في إحدى جماعاتنا أن ترتفع أصواتها بما كانت عليه ..

وكان الظن أن سنلقى رجالا من ذوي المظاهر الخداعة يندسون بيننا ، فرأينا
عمالاً مساكين أحدهم مشقوق القميص وليس على منتصفه الأعلى سواه . والثاني
متنفخ البطن وقد لبس سروالا رمادي اللون رث الشكل . وبقية الجمع على هذا
النمط البديع .. فاستمررنا في أعمالنا . وهم مبهوتين متحيرين . ولو نطقنا ألسنتهم
لسمعناهم يقولون : أيطرب هؤلاء بالتمثيل والغناء وقد ذهب بلادهم وضاع طارفهم
وتلادهم ؟ أم تراهم كسواهم من فوضوي هذا العالم لا نظام يجدهم ولا قانون
يردهم ؟ أم هم قوم لا يشعرون !

لم تكن مدة السير من سمخ الى حيفا أكثر من ساعتين . ولقد برحنا الاولى
منذ صعد الينا أضيافنا أو مضيفونا . فبلغنا الثانية والليل ينتصف ، بتنا بقيته في
بعض الفنادق . ثم تفرقنا في الصباح ، زائرين ومزورين ، وجائلين ومنزوين
في حيفا :

رافقني في حيفا صديق حميم ! مغرم بمحادثتي ! منرى بملازمتي ! مولع بمباشاتي
زعم أن صداقتي معه غير حديثة العهد بل ترجع الى تاريخ طويل سرد لي مبادئه
وخواتيمه .. ولكن ، قبح الله ذا كرتي فقد خانتني . فكأنني لم أعرفه ولم أره قبل
رحلاتي هذه . وقد حاولت كثيراً ، وكثيراً حاولت - كما يقول بعض كتابنا

اليوم — أن أذكر شيئاً عن هذا الصديق العتيق في أيامي الحالية فلم ألهم . فودت الى تقدير أن اجتماعنا كان في غير هذا الجيل ولعله في صورة غير صور البشر على رأي القائلين بالتناسخ . . !

رأيت في هذا الصديق حباً للأدب واكراما للضيف عجبين . فقد باغني وأنا لا أزال في حيفا أن معروفاً الرصافي الشاعر المشهور قد أرسلت به إحدى البواخر في ذلك الثغر وأنه لا ينوي النزول به . فعزمت على زيارته . فنهضت باكراً . ومشيت متوارياً أريد الشاطيء فكأنني والصديق العتيق على ميعاد ! ...

قال : اين وجهتك ؟ فقات البحر ! قال : وما تصنع ؟ قلت : ازور صديقاً لي فقال : ومن هو ؟ قلت الرصافي — وما أتممتها ، حتى صاح صيحة خات أن الله قد اراحني منه بالانغماء عليه فيها . . وأردفها بقوله : الرصافي ! الاديب ، الشاعر هنا ؟ هلم الى زيارته . . فلنخض البحر للتمتع بأدبه . . فمضينا . .

ووقفنا على الشاطيء فاردت أن نركب مع جماعات الراكبين . فأبى عليّ ذلك وأسرع فنأدى صاحب إحدى السفن الشراعية قائلاً : الانفراد أفضل ! تفضل ياسيدي ! ليس من الجائز — وأنت ضيفي ! — أن اوافئك على الجلوس في ذلك المزدحم . فتمتت كلمات ، ونزلنا بعد أن دفعت الاجرة جنيهاً . ولقينا الرصافي ، فسلمنا وتكلمنا والتحفظ ملء افواهنا . . !

سألني معروف عن بيت قائمه في دمشق :

لا التاج ينفعه ولا استقلاله إن لم يحل وثاقه وعتاله

فقال : لقد سمعت هذا البيت وعجبت منك كيف لم تردفه بثان ، فقلت : بل هو مطلع قصيدة . قال لم اسمع غيره وقد زدت عليه هذا البيت :

ملك نرا نزو الغراب وإنما في الرأس لافي رجله عقاله !

فضحكت لما في بيته من النكتة وانصرفت مع صاحبنا .. مودعين !

الصديق العزيز لم يكف بأن لازمني بضوء عشرين يوماً في حيفا بل أراد أن يخدمني في غيرها أيضاً . . وهذه غاية الوفاء والاخلاص في الود ! !

علم مني أن في نفسي الرحيل الى مصر فوثب متطوعاً فكتب رسالتين الى

رجلين زعم ان له بهاملة ود في مصر ، اوصاهما بي ! فتناولت الرسالتين . متظاهراً بالشكر . ولم أثبت أن مزقتها بعد أن قرأتها . .
وفي حيفا علمت أن الملك فيصلا ما كاد ركابه العالي يهبط دمشق آيئاً اليها من « درعاة » حتى تناول في قصره بأقصى « المهاجرين »^(١) كتاباً بالافرنسية هذه ترجمته :

« دمشق في ٢٧ يو ايو ٩٢٠

« من الكولونيل تولا^(٢) رئيس البعثة الفرنسوية الى صاحب السمو الملكي
« الامير فيصل بدمشق :

« أنشرف بابلاغ سموكم الملكي قرار الحكومة الفرنسوية وهو أنها ترجو
« منكم مغادرة دمشق بأسرع ما يستطيع بسكة حديد الحجاز مع عائلانكم وبطانتكم
« وسيكون تحت تصرف سموكم والذين معكم قطار خاص يبرح محطة الحجاز غداً
« ٢٨ يو ايو الساعة الخامسة . وارجو يا صاحب السمو الملكي ان تقبلوا مزيدي احترامى
— تولا —

ولما لم يكن لجلالته مناص من الموافقة ، اذعن مضطراً ، وبرح دمشق ، صباح
٢٨ يو ايو متجهاً الى درعاة حيث تلقى من رئيس وزارته (قبل ثلاثة ايام)
علاء الدين بك الدروبي برقية يقول فيها :

« ان السلطة العسكرية تبلغ جلالانكم أنها تطلب خروجكم من حوران ،
« وأنها وضعت تحت أمركم قطاراً فاذا لم تفعلوا ذلك ضربت قنابل طياراتها
« قرى حوران . . »

فرد عليه رئيس أمنا ، جلالته قائلاً :

« إن جلالة الملك لا يريد أن يصيب الاهلين ضرر ما بسببه »

وتبع ذلك تخليق عدد من الطيارات الافرنسية في سماء حوران ألقت على
أهبا منشوراً تنذرهم فيه بوجوب رحيل (الامير) فيصل قبل انقضاء عشر ساعات

(١) من احيا دمشق . — (٢) كان تولا مرافقاً (ياوراً) للملك فيصل

والأصلهم نارها الحامية وخربت قراهم ويوتهم .. فأبرق جلالته الى حكومة دمشق بعزمه على مغادرة حوران مساء السبت (٣١ يوليو سنة ١٩٢٠) وأصبح يوم أول أغسطس (آب) في حيفا .
أخبرني من لا أشك بصدقه أنه رأى الملك فيصلاً يتمشى في منزله بحيفا ويتمثل قائلاً :

أعطيت ملكاً فلم أحسن سياسته وكل من لايسوس الملك يخلاه .. !
من حيفا الى القاهرة :

عز على حكومة حيفا بعد أن وقفت على حقيقة وفدنا الكريم واختبرت أخلاقه وآدابه بما نقله اليها أمثال صديقي - العتيق - أن تأذن لنا بالانصراف والبراح . وأبت إلا التعلق بأذيالنا واستبقائنا الى حين فكان مثلها معنا مثل الانسان يبكي يوم يرى العالم ويبكي يوم يفارقه !

ألحجنا بسؤالها الاذن فلم يجد إلحاح ، وتوسط في الأمر ناس فلم ينفع اتوسط ، قلنا : ومتى يحل القتال ؟ فقالت : حتى يأذن الله واللاهي (١) .. فعمدت الى الحيلة ، وقد سئمت الانتظار والتريث ، ورأيت من آثار برودة الدم الانكيازي مالا طاقة لي به ولا صبر عليه . . فتهيأ لي بعد التفكير والسكد ، والتشمير عن ساعد الجد أن أختلس السفر خلسة والقوم في غفلاتهم ، فكتمت الأمر الى قبيل نصف الليل ، وحملت حقيتي مهرولاً الى موقف القطار ، فقطعت جوازاً بالركوب (تذكرة سفر) في الدرجة الاولى ، وما كانت عاذني ان اركب في غير الثانية ولكن خلوا الثانية من سربر للنوم ألجاني الى اختيار الاولى .. فنمت !

واستغرقت في النوم او في السرير حتى أصبح الصباح واستوى المسافرون على مقاعدهم في القطار ، وأنا مزمل بدثاري اراقب الذهاب والآهب أكاد أحلم يقظاناً كما يقول السيد البكري (٢) شفاء الله :

(١) اللورد اللبني المندوب البريطاني السامي بمصر ، وكان حاكم حيفا قد كتب اليه يسأله عما يصنع بالقادمين مع الملك فيصل (٢) السيد توفيق البكري شاعر فحل وأديب كبير أصيب بمرض في أعصابه فكان هذا البيت آخر ما قاله من الشعر قبل دخوله مستشفى « العصفورية » في بيروت حيث لا يزال الى اليوم .

قد كنت أحلم قبل اليوم في سنة فصرت أحلم بعد اليوم يقظانا !
تظاهرت بالنوم خشية أن يراني من يعرفني ولا سيما الصديق العتيق . .
فيستوقتي قبل أن أستلم الطريق !
ونحرك القطار فتحركت . ومشى فجلست . وليس في خبر الرحلة من حيفا
الى القاهرة ما يجدر بي أن آتي عليه إلا وقفة صغيرة في القنطرة :
للحكومات حق في أن تسأل الركاب عن الاماكن التي سينزلون بها . وفي
عملها هذا فائدة للامن وللصحة العامة . ولكن القوانين قد لا تراعي الاحوال التي
يسمونها « الاستثنائية » فهي تعتبر كل قادم على بلد عارفاً بمجمله ومرتحله منظماً
برنامجاً ، حاسباً حسابه . . ولا تلتفت الى أن عدداً يكاد يبلغ حد الوفرة من
المسافرين ، يضرربون في البلاد ضرب المتأمر ، همهم ان يلقوا عصا التسيار ويباغوا
وجههم من الديار ! وهناك لا يزالون اين ينزلون . يأتون المدينة فيعترضهم صاحب
فندق فيمضي بهم او صاحب بيت فيمضون معه أو يلتمسون في فجأها مأوى
بؤويهم ما داموا فيها .

وانتد كنت لسوء الحظ من المريق الثاني في رحلتي هذه - فقط - فأقبل
المفتش يسألني أسئلته المعتادة حتى انتهى الى السؤال عن المكان الذي أنوي النزول
فيه . فخرت بماذا اجيبه . . وترددت قليلاً . ثم لاح لي أن أحد من أعرف في حيفا
كان قد سمى لي فندقاً بالقاهرة اسمه « ناسيونال » وآخر سمى لي فندقاً ثانياً اسمه
« الكلوب المصري » فذكرتهما للمفتش . فعجب ثم ابتسم ! فسألته عن سبب
عجبه فقال : لقد سميت لي فندقين مختلفين في حالهما كل الاختلاف . وأبان لي
ما بينهما من الفرق في عرف المسافرين وأهل مصر فاعتذرت اليه بجهلي المسكان
الذي أختره بعد بلوغ القاهرة . فقبل عذري ولكنه (مراعاة الاصول) قيدني
في زمرة من سينزلون في « ناسيونال » وإن لم أزمع ذلك . .

وايست هذه الأحدثنة وحدها مما يدل على طرائق الموظفين في تطبيق النظم
والتقوانين فان أمام الباحث مواقف كثيرة يعلم منها أن معظم ما بين أيدي الناس من
أنظمة الحكومات إنما وضع ليكون دليلاً للموظف لا قانوناً . . وأن باب الاجتهاد

واختيار الاصلاح لا يزال مفتوحاً على مصراعيه أمام الموظفين
ومن هنا يتبين ما على رؤساء الاعمال من الواجب الكبير في اختيار ذوي
النظر والدراية والامانة من جمهور المتقدمين لتسلم الوظائف وتسلم المناصب، وفي
صغار الامور صور من كبارها .

اجتزت القنطرة . وأقبلت على القاهرة . والدهشة من مناظرها الاولى قابضة
على مقاليد عقلي . واذا بصوت يرتفع منادياً باسمي . فانتبهت وأطلت من النافذة
محدقاً في من أرى . فسررتني بعض ما أنا فيه لقاء صديقتي نصوحي البخاري
معتمد حكومة سورية التجاري بمصر وأمينه (سكرتيره) عابدين الحشيمي . فلم
أرفع عنهما بصري حتى قرقر القطار . واعتنقنا - على العادة - تسايما وتقبيلا !
بت تلك الليلة في الطبقة الخامسة من الفندق الخديوي (كيدفبال) ونهضت
في الصباح عاشر أغسطس (آب) سنة ١٩٢٠ فتجولات في ما حول ذلك النزل من
الشوارع والاسواق أرى ما يراه كل غريب مثلي هبط مصر قبل أن يعرف غيرها
من كبريات المدن والعواصم . والخوف من أن أضل الطريق يشغلني عن رؤية كثير
مما أنظر اليه . .

في القاهرة :

ليس التعريف بالقاهرة مما يستطرفه القارىء ، فأفرد له جانباً من هذا الكتاب .
وله أن يطلع إن شاء على الوف المصنفات في لغة العرب وغيرها ، مما اشيع القول
فيه بحثاً وتحقيقاً في تاريخ حلقة الاتصال بين مدينة المشرق والمغرب في عصرنا
الحاضر ، ووصفها والتغني بحماها والاشادة بذكراها . أما أنا فما يعنيني إلا أن اقول
عن « مفكراتي » بعض ما اشتد عليه مما يلد غيري ويفكره وقد يفيد !

المطاردة :

نادى باعة الصحف في القاهرة معلنين عما في صحفهم باصواتهم المختلفة : « حكم
الاعدام بالشام » فدعوت احدهم فتسابقوا الي ، ديدنهم في كل يوم ، فتناولت
احدى تلك الصحف من احدهم وأجلت فيها نظري فاسمع — أيها القاريء
الكريم — ما قرأت :

دمشق في ١٢ أغسطس ١٩٢٠

تناقل الناس يوم أمس نبأً فزعوا منه بآمالهم إلى الكذب، وما لبث هذا النبأ أن اذيع حتى اخذ الناس يزدحمون أمام الجدران ليقرأوا إعلاناً علق عليها وفيه :
« قرر المجلس العسكري التابع للفرقة الثالثة من الجيش الفرنسي في الشرق »
« والمنعقد في دمشق في ٩ أغسطس أن الاشخاص الآتية أسماءهم مجرمون »
« بالاتفاق والتحريض ، لكونهم عملوا الدسائس والتفاهم مع اعداء الحكومة »
« الفرنسية لتسهيل مقاصدهم. لذلك حكم عليهم غيابياً بالاعدام ومصادرة املاكهم »
« ويعتبر هذا الحكم نافذ الاجراء منذ ١٠ أغسطس ١٩٢٠ »

وهنا اورد الكاتب اسماهم وأعقبها بقوله :

تلا الناس هذه الاسماء فتولاهم الوجوم ، واخذوا يتعجبون انتقابات الايام وعبر الزمان ، ويعملون الفكرة في ما هم مقبلون عليه من الحوادث الجسام . وقد عقد المجلس العسكري جلساته في دار المؤتمر السوري . وليس اصحاب هذه الاسماء هم المطلوبون وحدهم بل هناك أسماء اخرى تعد بالمئات ، فيها الدنادشة والعاملون وغيرهم اه .

واليك الاسماء مرتبة كما جاءت في الأصل مع التعريف بأصحابها :

١ (الشيخ كامل القصاب : من علماء الدين الناهضين وعضو في اللجنة الوطنية بدمشق

٢ (علي خلقي : من ضباط الجيش التركي ثم العربي

٢ (احمد مريود : شاب متعلم ناهض من زعماء الوطنيين

٤ (الامير محمود الفاعور : زعيم عشيرة الفضل في بادية الشام

٥ (فؤاد سليم : من ضباط الجيش العربي

٦ (صبحي الخضرا : من ضباط الجيش العربي

٧ (صبحي بركت : من زعماء سورية الشمالية

٨ (منج هارون : مندوب اللاذقية في المؤتمر السوري

٩ (عوني عبد الهادي : أمين خارجية الحكومة السورية العربية

- (١٠) شكري الطباع : تاجر . ومن أعضاء اللجنة الوطنية في دمشق
- (١١) سليم عبد الرحمن : من أهالي طول كرم بفلسطين
- (١٢) عمر البهلوان : تاجر ومن أعضاء اللجنة الوطنية في دمشق
- (١٣) عثمان قاسم : كاتب صحافي جريء
- (١٤) سيد حيدر : من علماء الحقوق ومندوب بعلبك في المؤتمر السوري
- (١٥) عبد القادر سكر : تاجر ومن أعضاء اللجنة الوطنية في دمشق
- (١٦) خليل بكر ظاظا : من ضباط الجيش العربي
- (١٧) حسين رمضان : من زعماء الاكراد في دمشق
- (١٨) الامير عادل ارسلان : مستشار الملك فيصل . وأحد الزعماء المعروفين
- (١٩) محمد اسماعيل : قائد فرقة حلب في الجيش السوري العربي
- (٢٠) رشيد طليع : مدير داخلية الحكومة السورية العربية ثم والي حلب
- (٢١) إحسان الجابري : رئيس أمناء الملك فيصل
- (٢٢) احمد قدري : طبيب الملك فيصل الخاص
- (٢٣) رفيق التميمي : مؤرخ . ومن أعضاء المؤتمر السوري
- (٢٤) توفيق اليازجي : صاحب جريدة الدفاع
- (٢٥) رياض الصلاح : وجيه متعلم من المشتغلين في القضية العربية
- (٢٦) توفيق مفرج : كاتب . من أعضاء المؤتمر السوري
- (٢٧) خير الدين الزركلي : صاحب جريدة المفيد - وهؤان هذا الكتاب
- (٢٨) محمد علي التميمي : من كبار المحامين
- (٢٩) بهجة الشهابي : مدير شرطة دمشق
- (٣٠) نبيه العظمة : مدير شرطة حلب
- (٣١) شكري القوتلي : من وجوه دمشق ومتعلمها
- (٣٢) خالد الحكيم : مهندس . وعضو في المؤتمر السوري
- (٣٣) ياسين دياب : تاجر . ومن أعضاء اللجنة الوطنية في دمشق

واليك اسماء من تناولهم الحكم نفسه ممن لم يذكروا في هذه القائمة :
 (٣٤) احمد سامي السراج : صاحب جريدة العرب في حلب
 (٣٥) منيب الناطور : صاحب جريدة الراية في حلب
 وشمل الحكم نفسه الآتية أسماؤهم من أهالي جبل عامل :

- | | |
|--|------------------------|
| (٣٦) صادق حمزه | (٤٤) محمد سوهدان |
| (٣٧) محمود احمد بزي | (٤٥) أدم خنجر |
| (٣٨) رياض محمد حسن فرحات | (٤٦) علي حرب |
| (٣٩) عبد المجيد محمد بزي | (٤٧) محمود قاسم |
| (٤٠) محمود فرح سليمان | (٤٨) عبد الحسين سرور |
| (٤١) موسى بوزقلي | (٤٩) نمر بليوز |
| (٤٢) الشيخ عبد الله عز الدين | (٥٠) محمد تامر |
| (٤٣) طرفه حاج فياض شراره | (٥١) سعيد يوسف تامر |
| وحكم بالحكم نفسه على زعماء الدنادشة من سكان « تل كلخ » : | |
| (٥٢) مصطفى العبد الله | (٥٦) حسن الابراهيم |
| (٥٣) اسعد الفياض | (٥٧) اسعد الابراهيم |
| (٥٤) خالد الرستم | (٥٨) ذباج الاحمد |
| (٥٥) عبد الله الكنجج | |

وهناك أحكام بالنفي والمصادرة كثيرة ، أتى على بعضها مكاتبو الصحف ،
 حسبي أن أشير اليها .

جن جنون الافرنسيين في سورية ! فلم يكفهم أن كانوا الجناة على استقلالها ،
 القاتلين حريتها ، الواثدين مهضمتها ، العائنين لها عن السير في سبيل الحياة ، الباذرين
 في قلوب بنبيها بذور البغضاء والشحناء . . بل زادوا على ذلك كله مطاردة من
 شاء لهم الهوى أن يطاردوه من شبان سورية و احرارها ، فاعلنوا أحكامهم الجائرة !
 ليت شعري ! أذلك مصداق البلاغ المشترك الذي اذاعته الحكومة متاز البر يطانية
 والفرنسوية يوم ٧ نوفمبر ١٩١٨ - ونصه :

« إن الغرض الذي ترمي اليه فرنسا وبريطانيا العظمى بمواصلتهما في الشرق تلك الحرب التي أثارها الطمع الألماني هو تحرير الشعوب التي طالما ظلمها الترك . تحريراً نهائياً . وتأسيس حكومات ومصالح أهلية تبني سلطتها على اختيار الأهالي الوطنيين لها اختياراً حراً وقيامهم بذلك من تلقاء أنفسهم . وتنفيذاً لهذه النيات قد وقع الاتفاق على تشجيع العمل لتأسيس حكومات ومصالح أهلية في سورية والعراق اللتين آتم الخلفاء تحريرهما في البلاد التي يواصلون العمل لتحريرها . وعلى مساعدة هذه الهيئات والاعتراف بها عند تأسيسها فعلاً . . . والخلفاء، بعيدون عن أن يرغبوا سكان هذه الجهات على قبول نظام معين من النظمات . . . وإنما همهم أن يحققوا بعونهم ومساعدتهم النافعة . . حركة الحكومات والمصالح التي ينشئها الأهالي لأنفسهم مختارين حركة منتظمة . وأن يضمنوا لهم قضاء عادلاً واحداً للجميع . وأن يسهلو انتشار العلم في البلاد وتقدمها اقتصادياً بتحريك هم الأهالي وتشجيعها . وأن يزيلوا الخلاف والتفرق الذي طالما استخدمته السياسة التركية . . ذلك هو ما أخذت الحكومتان الخليفتان على نفسيهما مسؤولية القيام به في البلاد المحررة . » اهـ

ليت في الناس من يستطيع التوفيق بين مواد هذا البلاغ - على ما فيه من عرج وعوج ! - وبين ما تقوم به إحدى تينك الخليفتين في ارقى قطرسهما محرراً ؟

لندع هذا وذاك . ولنعد الى ما كنا فيه . فجال الجدل واسع وميدان المناقشة فسيح . وفي مساويء الخليفتين هنا وهناك ما فيه الغنية عن الاسهاب .

قرأت خبر الحكم بالاعدام . وتأملت في أسماء المحكوم عليهم . ورجعت الى ذا كرتي أسألها عن بقي في قبضة المحتلين ومن كتبت له النجاة . فابتهجت بالنازحين وأشفتت على الباقين وأدركت أن هذه القائمة هي التي اطلع عليها من أوعز إلي بالرحلة يوم احتلال سورية . فهنأت نفسي بالسلامة اذ كنت من الناجين !

الحكم الغيابي بالاعدام رهيب الوقع على بعض النفوس . . . شير لكلمين الضعف فيها . ولكن سرعان ما يعلم المحكوم به عليه أن للوهم صولة وتضمحل . وللارهاب دولة وتدول . زد على ذلك أن السوري بعد أن عرضت أمامه المشانق أربع سنين متواليات ، وصلب عليها من اخوانه واخذانه العاد الوفير لم يعد حكم

الاعدام مما يخيفه أو يثبط عزيمته . فليتمسكحتلو سورية طريقة ثانية لبث الرعب في
الافئدة ، وإمانة الشعور الحساس في النفوس ، وقتل الايمان الوطني في القلوب ..
لينسوا أسلوباً آخر لا يصيب الأجسام فلها ذرات تفترق وتجتمع ، ولكن
يصيب الارواح فان فيها المقاتل .. وهيبات ! عبثاً يحاولون وسدى ما يعملون ..!

١) ائت في القاهره نيفاً وشهرين توافد في خلالها عليها اكثر من برح سورية
إثراحتلال الافرنسيين لها . واتفق أن خطري ولزميل لي في الصحافة أن نكتب
خطاباً للملك حسين ، نعرفه فيه يلوغنا مصر ونسأله عما هو مزعم عمله لمقاومة
ما احدثه الاحتلال في سورية من سوء المغبة . فكتبنا ..

ومضت ايام يسيرة فاذا بصديق لي يخبرني أن معتمد حكومة الحجاز في مصر
يبحث غني ويريدني . ولم اكن ممن زاروه قبل ذلك اليوم . فذهبت اليه ، فعلمت
منه أن الملك حسيناً يدعوني لضيافته ويسألني هل أقبل الدعوة ام اوثر الاقامه
بمصر . فاجبته بالانصراف الى مشاهدة الاماكن المقدسة وزيارتها . فأبرق اليه بذلك
منبأً جلالاته . إن سفري سيكون في الباخرة « منصوره » وأنني سأبرح السويس في
٢١ سبتمبر (ايلول) ١٩٢٠ وقال : تهيأ ..

لم اكن أجهل أن اول شيء يجب على مزعم السفر أن يفكر فيه هو الحصول
على جواز يبيح له الخروج من بلاد حكومة والدخول في ثغور سواها ، وما كنت
لاطمئن الى الجواز الذي نخطيت فيه حدود فلسطين . فراجعت معتمد الحجاز
واوضحت له أن اضطراري للاسراع في مغادرة دمشق والخوف من أن ينالني اذى
حكومتها قبل السفر . قد حال دون الفوز بالجواز المقبول . ورجوت منه ان يحشرنى
في سواد التابعين لحكومته الهاشمية . فأشار بإشارة السرور والرضى . وأمر فأخرج
لي جواز دل على أنني حجازي النسبة (التابعة) دمشقي المولد ، سميت به الى
دار الجوازات في القاهرة فلم تسعفني بتصديقه وإمضائه . وحجة موظفها في ذلك
ادعاؤه المعرفة الخاصة بي . فعاقني عمله يسيراً وهياً الله لي فرجاً اجتزت به المضيق
فلم أبرز الجواز إلا في جدة !

من القاهرة الى مكة

هممت أن أبرح القاهرة صباح ٦ محرم سنة ١٣٣٩ هـ (٢٠ سبتمبر ١٩٢٠ م) لأدرك الباخرة « منصوره » قبل موعد سفرها ، وكنت مقبلاً يومئذ في مصر الجديدة « هليوبوليس » فدعوت من حمل لي حقيبتى وخرجت أريد القطار الكهربي (المترو) حتى بلغته وهممت بصعوده فأنى فمتشه عليّ أن أصحب معي الحتمية ، معرضاً عن كل تصريح وتعريض ورجاء وتوسل وبذل وعطاء . وضرب جرسه ، فهب هبوب الريح وأنا أنظر اليه وللغيظ والحنق في نفسي مالها .. فأرشدني مقبل علي لتوديعي الى أن هناك على مقربة من موقف « المترو » سيارات اعتاد أصحابها أن يقفوا بها ، وأسرع فعدا ، ثم عاد فبدا راكباً سيارة قفزت اليها ، وطارت بنا تعصف وتعصف حتى أقبلنا على محطة القاهرة ، ودخاننا ، فاذا دخان القطار مرتفع ، فشيئنا بالنظرات والحسرات .. !!

أصبحت شديد الحرص على ألا تفوتني هذه الباخرة ، لثلاثة أسباب : الاول : أن معتمد الحجاز قد أبلغ جلالة ملكه أن حضوري سيكون فيها . والثاني : أنني ودعت الاصدقاء وودعوني . والثالث : أنني كنت قد أهملت حاق خيتي نحو أسبوع فان ظلات في القاهرة ذلك اليوم اضطرت الى ازالة ما توفر منها ! . وليس بالسهل تجديده !

فانطلقت الى سيارة كانت على باب المحطة . فطلبت من صاحبها أن يسافرني إلى السويس . فنظر اليّ . . . وكأ أنه أدركه العجب من هذا الطلب !

فقلت : كم تريد من الاجرة ؟ فقال : عشرين جنياً . . . ؟ - قلت : وبحك ! عشرة تكفي . فلم يعأ بجوابي . فانصرفت الى غيره و بذلت اثني عشر جنياً فلم أفلح . وعسر علي أن أفتح الرحلة بمثل هذه النفقات الباهظة . فخولت وسبحات وعدت أدراجي !

كدت أياس من سفري هذا في يومي ذلك لولا أن شجعني معتمد الحجاز على المضي في قطار الظهر ففضيت ، وأنا على مثل اليقين من أن الباخرة ستفوتني لعلمي بأن القطار يبلغ السويس بعد ربع ساعة من إقلاعها . ولم أدرباً ينتظرنى في

محطة « النمسا » آخر محطة قبل السويس للذهاب من القاهرة ..

وصلت الى محطة النمسا ، ففاجاني انسان يحمل ورقة كتب اسمي بها يسأل عني . فكدت انكر نفسي ثم رأيت أن ألبيه ، فاجبته . فبادر الى حقيبتى - ولا اعلم ما يريد منها - فانتزعها من القطار انتزاعاً واسرع قائلاً : الحقني ياسيدي ! فنزلت اعدو خلفه . فبصرت بسيارة ينتظرني فيها أحد تجار السويس فركبتها . وانطلقت بنا انطلاق السهم من بين قايين . ثم اخبرني التاجر أن معتمد الملك كله بالهاتف (التلفون) واننا بركوبنا السيارة سندرك الباخرة قبل مسيرها . وكان الامر كذلك اخترقت بنا « المنصورة » أمواج البحر الاحمر - وان شئت فسمه بحر القازم كما كان أسلافك يسمونه - وكانت هذه أول مرة ركبت بها البحر ، فجعلت أنظر يمنة ويسرة نظر الواله الحائر المشدود . التمس مسافراً تطمئن اليه نفسي ولكن كان موسم الحج قد انتهى ، وكانت البواخر تذهب فارغة من مصر لتحمل من بقي من الحجاج في جدة . فأوحشتني العزلة وكنت آنس بها . وضاق صدري وما كنت لأعده يضيق . فتناولت كتاباً ادخرته لمثل هذه الليالي فجعلت أقلب صفحاته لأفهم ماذا أقرأ . وعدت الى المشي سهيلاً في طول الباخرة وعرضها ، والقمر المتلألئ ، في كبدي السماء ، سمير من لا سمير له وانيس من فقد الالف والخليل !

مضى بعض الهزيع الاول من الليل وكان الله ارسل اليّ انساناً لم اعرفه ولكنني ملت اليه متبلاً عليه ، فحييته . فاجابني . وحادثته فلذ لي حديثه . وما مر على اجتماعنا بضع دقائق حتى اخذت اسمع منه شعراً وأدباً فازددت به أنسا ، وسررت حين علمت أنه أحد المشتغلين في الأدب واسمه « حسني العامري » وله كتاب مطبوع في أخبار شعراء العصر . وهو يحفظ كثيراً من شعر البدو وقصصهم . وسألته لعل وجهته جدة . فاجابني أن موعد نزوله من البحر الصباح . فأسفت !

اصبح اليوم الثاني فمررنا بالطور . وفي الثالث اجتزنا ينبع . واخيراً ، بلغنا جدة (بضم الجيم) فارست بنا الباخرة في مكان بعيد عنها وأقبل عمال المرفأ واصحاب الزوارق متسابقين . فجعلت أنظر لعل أحداً اعرفه فاذا بقسطنطين يني من أدباء

سورية يرحب بي . فنزلت . وكنت بعد عشرين دقيقة في الشاطي ، حيث انصرفت الى دار ضيافة الملك ، والنيـم عليها يومئذ قسطنطين .

تجردت في دار الضيافة من ثيابي . وتلفعت بجرامين قطنيين وتوضأت ناوياً الاحرام واحتذيت ققباباً حجازياً لا يدخله من الرجل غير باهمها وتمشيت الى السوق أتعثراً وأنسكع الى أن بلغت دائرة المكوس (الجمارك) واقميت مديرها فسلمت عليه فعرفني وكان قد علم بوصولي ، فبادر الى هاتفه فضرب جرسه وتسمع ثم نهض قائماً يردد كلمة : لبيك ! لبيك ! فلم أشك في أنه يحادث جلالة الملك ، فصبرت الى ان انتهى وقد أخبره بحضوري فأبلغني أن جلالاته يأمر أن أبرح جدة في ذلك المساء متوجها الى مكة وانه قد أمره بالمحافظة على راحتي والعناية بي ، فقلت في نفسي : كانت راحتي تقتضي أن أبيت في جدة ولكن هكذا أراد الملك ولا مرد لارادته في الحجاز !

وبعد ساعة واحدة كانت الشمس قد مالت للغروب وكان مدير المكوس قد أعد لي ركوباً يعرفه كل من يجناز هذه المرحلة بين الثغر وأم صبيح ^(١) فركبت يصحبني خادم أو دايـل - لا أدري ! - وعهدت الى قسطنطين بارسال ثيابي وأمتعتي الى مكة مع الجمالة !

تنقلت في ذلك الوادي المكفهر بين رمال وتلال ، وقد أثر بي تتابع السير بجرأ وبرأ حتى كان منتصف الليل فنزلنا في قهوة - أو متهى كما يسميها بعض كتابنا - وراودت نفسي على الطعام فأبت إلا كأسين من الشاهي (الشاي) واستلقت أهم بالنوم ، وطأني الأرض وغطائي السماء . فلم يعلق في جفني أثره حتى كان الخادم يوقظني . فسألته عما بدا له . فقال : الراحة هنا ساعتان ! فنهضت متلـكئـة متـكسراً ، أتوكأ على رفـيق الطـريق ، وأمسك لي رقبة البهيم ليمنعه من الجري اذ كان عنانه حبالاً لفمناه على عنقه ! فركبت واستأنفنا السرى

بزغت الشمس ، ومكة منا على قاب قوسين - في ما تراءى لي - أو أدنى .

(١) من اسماء مكة ويقال لها ايضاً : بكمة وام القرى والبلد الامين

وغير ذلك .

فالتفتت ممن معي أن يأذن بالراحة قليلا فأقنعني بأن ما بيننا وبين مكة لا يقل ع ساعتين وخوفي من حرارة الشمس اذا هي قاربت كبدا السماء . فاستمر بنا السير متصلا بالسرى الى ان كنا على أبواب أم القري . . وهنا سألتني الدليل : أي تريد النزول ؟ فتذكرت ساعة القنطرة . . وسألته : أليس بمكة فندق ؟ فقال : لا فقلت : لننزل في الحرم !

واخترقنا منازل مكة والضحي في رأسه . فبلغنا الحرم وأكرمت الدليل فانصرف بعد أن حملته ورقة كتبها الى مدير صحة الحجاز الطبيب نديم صلاح وكان قد سمي لي في جدة

دخلت الحرم من أقرب أبوابه الي ودنوت من السكبة فاستقباني أحد الجالسين حولها وقد رأي محرمًا فسألني هل أريد الطواف . فقلت : أما السبا فلا . . وسقطت على حصباء البيت العتيق والألم من متاعب ليلتي آخذ من جسمي مأخذه

أجلت النظر في ذلك البناء المقدس فراقني مشهد الطائفين حول قبلة الاسلام . ولذني مرأى الحائم تزدهم وتفتحهم وتروح وتغدو آمات كل أذع راتعات في كل جانب . حرم الله صيدها فتوالدت وتكاثرت وأنست بالانسا فمنعها الله كيده وشره . وقديما ضربت العرب أمثالها بأمنها وألفتها فقالت « أم من حمام مكة » و « آلف من حمام مكة » . وقال النابغة شاعر الحجاز :

والمؤمن العائذات الطير يمسحها ركبان مكة بين الغيل والسند !

وبينا أنا مستلق على الصعيد . أتقلب ذات اليمين وذات اليسار إذ طلع علي شاب في رداء أبيض ملتف بعباءة رقيقة اسود اللحية لم أعرفه الا بعد أن رفع صوته بالترحيب . فأجبتة والدهشة من لقائه ملء نفسي : يوسف ! يوسف ! (١)

واعتقنا فكأنني أنسيت كل ما لقيت وجلس الى جانبي فحدثته بخبري من

(١) يوسف ياسين من أدباء سورية ، لاذقي المولد . سكن الشام . وفارق

يوم الاحتلال

برحت دمشق وحدثني بخبره منذ برحها . ثم أعلمني انه اطلع على ما كتبتة الى مدير الصحة فسبته الي . ولبثنا نتجاذب أطراف الحديث والحديث شجون فقال : هلم لنطف حول السكبة . فنهضت وقد قل ما كنت أشعر به من الألم . فلم نخط خطوات حتى سمعت زججرة وتمتمة فالتفت فرأيت أحد المطوفين - وهم كثيرون - وسمعتة يقول : يريد هؤلاء أن يقطعوا أرزاقنا ! ففهمت أن نفسه حدثته بأن يوسف سيقوم مقامه في الطواف في حول السكبة . . فضكنا منه وأسرعت الى نقده ما تيسر من النقد فنقل شاكرًا !

في المخولان :

قال يوسف وقد انتهينا من الطواف وعدنا الى الاستراحة والحديث : ألا تزور سيدنا ؟ فقلت : وعلى هذه الحال ؟ قال : نعم ! فقلت : لنفعل . وقت وليس علي غير لباس الاحرام ، فمشينا دقائق معدودات انتهت بنا الى « دار الحكم » وهي قصر فخيم قديم البناء دخلناه وصعدنا درجاته ثم جلسنا في بهوه وبادر المضايغي ^(١) واسمه سعد فقصد « المخولان » حيث كان يخلو جلالة الملك بنفسه وزواره ، فأنباه بنا فخرج الاذن بالدخول فدخلنا .

المخولان غرفة صغيرة في جانبها الايسر هاتف (تلفون) وفي وسطها بضعة كراسي خيزران ، ينحرف داخلها الى يساره فيرى أمامه دكة مستطيلة ، في صدرها نافذة كبيرة تطل على الشارع ، وعلى تلك الدكة يجلس جلالة الملك وبين يديه منضدة صغيرة عليها دواة بلورية وقلم من نوع القصب المعروف في بعض سوربة باسم « الغزار » دخلت على جلالة الملك فنهض قائمًا فأقبلت على يده لأقبلها فبسط يديه قابضًا بهما وجهي فقبلتهما من باطنهما وما كنت عالمًا بشيء من اسرار تقبيل اليد في ذلك القصر . وكان اول ما كلمني به جلالتة قوله : بلادكم يا بني ! هذه بلادكم يا بني ! فدعوت له . وامرني بالجلوس فجلست ، وهمت بالاعتذار لحضورى بثوب الاحرام فادرك ذلك مني وقال : إن لباسًا يختاره الله لحجاج بيته هو أفضل اللباس !

(١) المضايغي في عرف أهل الحجاز كرئيس التشريفات ، وهو الحاجب .

وأخذ يسألني عن حالي وحال بلادي وراحتي في طريقي . فكنت أجيبه . ثم انتبه الى ماانا في حاجة شديدة اليه من الراحة فصفق بيديه فسمعت صائحاً من خارج الغرفة يقول : خير ^(١) ! ودخل المضايقي ، فسأله الملك : هل هيات كل شيء ؟ فقال : نعم . فنظر اليّ قائلاً : سترتاح اليوم في غرفتك ونجتمع في المساء . فقممت الى يده فقباتها مودعاً وهو يقول : مرحباً . مرحباً !

وتوجه بي المضايقي الى مكان في القصر نفسه مؤلف من غرفتين وبهو . احدى الغرفتين للنوم والاقامة والثانية للأمتعة . وجدار غرفة النوم مشرف على الشارع لانباء فيه وانما هو نافذة واحدة كبيرة ذات تقاطيع خشبية لم أر من نوعها في غير الحجاز . وأهل مكة لا يكثر من البلور في نوافذهم بل لا يكادون يعرفونه لاستمرار الحرّ عندهم صيفاً وشتاء . وكلّ جدران الغرف ، المطلّة على الشوارع ، نوافذ من هذا الطراز .

القيت بنفسي على مقعد في الغرفة فنمت ساعات متتابعات . وصنحت بعدها فاذا الشمس قد دخلت السكوى وبلغت موضع نومي فكأنت هي التي أيقظتني بلذعات وهجها

في القصر :

ذاك هو المكان الذي ظلت فيه مدة مقامي بمكة . اتناول فيه الفطور صباحاً وانام الظهر بعد تناول الغداء واقصد جوار « المخلوان » في وقت الزروب . فأصلي المغرب مع الملك وحاشيته وعبيده ومن حضر من أبنائه واحفاده في مصلى خاص . يؤم بنا إمامه الشيخ ياسين البسيوني وهو مصري الأصل مكّي المولد والاقامة طاعن في السن رضي الاخلاق والصفات . وبعد الصلاة نجلس للطعام على سفرة جلالة الملك فيترأسها أحد أبنائه أو أحد قدماء أضيافه أو كبير من رجال دولته . وأما الملك فيأكل في المخلوان منفرداً إلا في الولائم الكبيرة الجامعة . وبعد العشاء

(١) يستعمل الحجازيون هذه الكلمة بدلا من « نعم » المصطلح عليها في غير الحجاز جواباً من المنادي للمنادي . وهذا التعبير في الحجاز أصح وضماً وأرشف بياضاً .

ننصرف الى ردهة القصر فيتوافد زوار جلالته بينما يكون هو قد أخذ نصيبه من الراحة . ويدعونا فنذهب اليه فيستقبلنا جالساً ونقبل يده ونمكث نحو الساعتين ثم نعود أدرأجنا

وداع الامير :

كان الملك حسين كثير التفكير في أمر سورية وما صارت اليه أحوالها بعد رحيل ابنه الملك فيصل عنها . فرأى أن يوفد الى جوارها أحد ابنيه عليّ وعبدالله وعرف ابنه ذلك فتقدم كل منهما الى من يألف من جماعة السوريين المقربين من ابيهما ، يرغب اليه أن يحسن لجلالة الملك ايفاده وإيثاره على اخيه . وهكذا تردد الملك قليلاً ثم كان لالتماس الملتسمين بعض الأثر في نفسه فاختر ابنه عبدالله واوعز اليه بالتهيؤ وأعلمه انه سيكون وكيل اخيه فيصل في ماحول سورية من الاراضي التي لم يحتلها الافرنسيون . وأعلن جلالته ان عبدالله سيكون أمير مدان . وهي آخر حدود الحجاز الشمالية . وأصبحنا يوم ١٦ المحرم ١٣٣٩ قزنا في موكب حافل يتقدمنا جلالة الملك الى ظاهر مكة حيث ضربت الخيام وتقاطر الناس للوداع من كل ناحية وصوب .

وهناك على منبسط من الارض أمر الملك فمد بساط جلس عليه بعض حاشيته وضيفانه وكنت في جملتهم وابتدأ الحديث فتكلم عن جبل « ثور » وكان قريباً منا وأفاض في أحاديث مختلفة الى أن أقبل ابنه الامير عبدالله مودعاً يصحبه نحو مئة وخمسين جندياً من بدو الحجاز واليمن . ناشرين لواء احمر انتبه اليه الملك قتال مازحاً : غداً يقولون انا بلشفيك !

وتكلم أحد الجالسين فقال : ان العلم الاحمر اللون ، شعار قديم للاشراف سبقوا به البلاشفة وغيرهم . وختم الاحتفال بسفر الامير ومن معه ركباناً على الابل وهو أمامهم متمطياً جواداً أصهب . وتفرقنا آيبين الى منازلنا . داعين له ولمن معه بالتوفيق ، معللين الانفس بالحق به ولو بعد حين !

ذكر الطائف :

لم تكن تفوتي الفرصة كلما سنحت لي فأزور المعالم الاثرية والشعاب المعروفة في تاريخ هذه البلاد . حتى كانت احدى ليالي السمر في مخلوان جلالة الملك فعرض ذكر مدينة الطائف وماهي ممتازة به عن سائر بلدان الحجاز . فتمنى أحد السامعين لو يتاح لي ول بعض من هناك من شبان سورية أن نراها . فصادف ذلك قلباً خالياً في الملك ، فتمكن . وكأنه كان يحدث النفس في إراءتنا أجمل بقاع قطره وأفضل كور ملكه ليجمع بين الفضيلتين ، يرينا الطائف زهرة الحجاز ، ويرينا أياماً مما نغانية من لفح الحرّ ولذع القيظ ، فارتاح للاجابة وسألني وسأل يوسف ياسين وغيره عن رغبتنا فاجبناهم بالامتنان . فصفق بيديه اولاً وثانياً . . فلباه المضايقي . فاستدناه ، وأمره أن يهبي لنا في الغد بغالا شداداً . وأخبره بازماننا الرحلة الى الطائف وعدّد له كل ما يجب إعداده حتى انواع الطعام وأكواب الشاهي ! وقال : موعدكم بالرحيل منتصف الايلة القادمة . فاثنيينا ودعونا . واتممتنا حصتنا من الليل في الكلام على الهدية ووادي نعمان وككب وسمار ووج وغيرها مما سنراه ونمر به في رحلتنا هذه ، مبهجين مغتبطين !



بين مكة والطائف

« بدء الرحلة . في عرفة . الى شداد . الى الكرك . جبل كركا »

« في الهدنة . الى الطائف »

بدء الرحلة :

المنحى ، غار حراء ، العقبة ، منى ، مسجد الخيف ، غار المرسلات
المزدلفة مضيق الاخشبين ، مضيق المازمين ، مسجد نمرة

ودعنا ابا قبيس وقعيقان ^(١) ، واستقبلنا المحصب ^(٢) والمنحى ، قبيل فجر
الاربعاء ثامن صفر سنة ١٣٣٩ لاقرو ولا هلال ، ننظر ولا نبصر . حتى اذا اجتزنا
منازل ام القرى ، واتسع امامنا رحب المنحى ، كان لنا من نور الكواكب هدى .
ونجوم السماء يعرف من ضيائها ابن البادية وساكن الصحراء ، مالا يعرفه ابن
الحواضر والمقيم بين المنازل المتراسة والدور المتلاصقة .

بلغنا المنحى بعد دقائق معدودات ، وهو واد بين جبال ، أول ما يراه بارح
مكة ، يستقبل منه جبل النور كما يسمونه اليوم ، او جبل حراء كما كانت العرب
تدعوه ، وهو الجبل الذي كان النبي (ص) يتعبد في غارهِ قبل النبوة وقد صعدناه
منذ أيام فاذا هو رفيع الذروة ، عالي القمة ، مشرف على كل ما حوله من جبال
مكة وهضابها واوديتها وشعابها ، وفي اعلاه قبة مشيدة ^(٣) غير قديمة البناء ، ودون
ذروتها ذلك الغار المهيّب الذي سماه احد رفاقنا بالمدرسة الالهية اشارة الى ان
النبي (ص) تلقى به الحكمة ، وأنزلت عليه اول آية من آي القرآن الحكيم فيه .
ولقد دخلنا الغار وهو لا يزيد عن مترين طولاً ومتر واحد عرضاً — **وقال**
صاحب الرحلة الحجازية ^(٤) انه متران مربعان — وأعجبنا آنئذ بقاء الغار

(١) جبلان متقابلان في مكة . (٢) هو بطحاء مكة بينها وبين منى .

(٣) من قولهم شاد البناء : اذا طلاه بالشيد (٤) هو محمد ليبس البنونى ، وضعها وصفاً

لرحلة عباس حلمي باشا الثاني خديوي مصر السابق

على حاله في ترابه وحجارته لم يصبه ما اصاب اكثر الاماكن القديمة من التحوير والتغيير بل هو لم يزل كما كان منذ أربعة عشر قرناً ، غاراً في جبل يمتاز عن أشباهه بارتفاع الجبل الذي هوفيه بحيث لا يرى المستر به من حر الشمس وتساقط الغيث غير ما حوله من جبال لاتبين إلا كالشعاب واودية لاتلوح إلا كقطع السحاب ، يشعر المقيم فيه بلذة الوحدة وصفاء الانفراد ، ولا يئالك من الاغراق بالتفكير في عجائب ما تحمل الارض من طود شاهق ، وماء دافق ، وقفر سبب ، ومرج أعشب !

وكان حراء عن يسارنا في هذه الرحلة ، فواصلنا السير من المنحنى ما رين بالعقة وهي على نحو ميلين من مكة ، ببيع عندها النبي (ص) سنة ١١ للنبوة أي قبل الهجرة بعامين ، وعند العقبة مسجد ، ومنها يرمي الحجاج حجرة العقبة بالحصيات السبع . وما وخط الشيب رأس الظلام حتى كنا على ابواب منى

اخترقنا منى ، والناس على أهبة النهوض من الهجود ، ولم ننزل بها غير أن آثارها كانت تترجم لنا عما لهذه البلدة من الشأن في أيام موسم الحج ، فرأينا مناخ الحماين الشامي والمصري ، ورأينا مقر الاسرة المالكة في أيام الحج ، ولاحت لنا منازل منى عامرة إلا من السكان فانها تناهز النما وخمس مئة دار لاتسكن في غير مدة الموسم ، وفيها مسجد الخيف ويسمونه مسجد الحسين .

قال النابلسي في رحلته ^(١) : قال القطب المكي في كتابه الاعلام عند ذكر السلطان قيتباي من ملوك الجراكسة : « وفي اواخر سنة ٨٧٤ هـ والتي قبلها بنى السلطان المذكور مسجداً الخيف بناءً عظيماً محكماً ، وجعل في وسط المسجد قبة كبيرة هي حد مسجد رسول الله (ص) في خيف منى ، وبنى أربع بوائك من جهة القبلة فصارت قبة عالية فيها محراب النبي (ص) وجعل للمسجد خوخة صغيرة الى الجبل الذي في سفحه غار المرسلات ، وهو الموضع الذي انزلت فيه سورة المرسلات ، وفي هذا الغار مكان غائص في الصخر يضع الناس رؤوسهم فيه — قال النابلسي

(١) الرحلة الكبرى التي سماها « الحقيقة والحجاز في رحلة بلاد الشام

ومصر والحجاز »

عند ذكر وصوله اليه : فوضعنا رأسنا لاجل البركة ، وكذلك الجماعة . . . وقال
المكي في الاعلام : « ذكر الحافظ ابن الجوزي أن في مسجد الخيف على يمين الذهاب
الى عرفات في هذا الغار - غار المرسلات - تجويفاً ، في سقفه ، تزعم العامة أنه لان
لرسول الله (ص) فأثر فيه تجويفاً . فيضع الزائر رأسه فيه تيمناً وتبركاً بموضع رأس
النبي (ص) . ولم اقف على خبر أئتمده في ذلك غير ماورد في الاثر من نزول سورة
المرسلات فيه .. » اهـ

وفي منى مذبحان كبيران تذبح فيهما الضحايا في أيام منى أحدهما للأبل والبقر
والثاني للضأن والمعز وفيها صهاريج تمتليء من ماء زبيدة ، يسمونها البازانات
(الواحد بازان)

وللشعراء في منى شعر كثير ، يعجبني منه قول العرجي :

نابت حولاً كله كاملاً لا نلتقي إلا على منهج

الحج إن حجت ، وماذا منى وأهله أن هي لم تحجج !

مررنا بمنى ووجهتنا المزدلفة فاجتزنا بمضيق بين جبلين متوازيين يسمونه
« المهرول » له رولة الحجاج به و « وادي النار » لانه الموضع الذي رجم أصحاب الفيل
فيه ^(١) . ولم نبتعد قليلاً عن هذا المضيق حتى لاحت لنا المزدلفة فاخترقناها وشهدنا

(١) خبر الفيل مشهور ، وخلاصة ما يروونه فيه أن أبرهة ملك اليمن بنى
كنيسة بصنعاء وأراد تخريب العر ب عن كعبة مكة اليها وهم يهدم الكعبة فجاءه
جيشاً من الحبشة تتقدمه الفيلة وسار به حتى بلغ الطائف فبعثت معه ثيف رجلاً منها
يدعى « ابرغال » يدلّه على الطريق فتقدمه حتى انزله على المغمس وبه مرض ابرغال
ومات فرجت العرب قبره - ولا تزال ترجمه الى اليوم - وبعث ابرهة الى سيد
قريش يومئذ (عبد المطلب) يخبره أنه لم يأت لحربهم وانما يريد هدم البيت فجاءه
عبد المطلب فأكرمه أبرهة ونزل عن كرسيه احتراماً ، وكان جواب عبد المطلب
« إن للبيت رباً يحميه » وأصر ابرهة على هدمه فانصرف عبد المطلب فجمع قومه
واخذ بحلقة باب الكعبة يدعو الله ويستنصره على ابرهة ثم انطلق بمن معه الى شعف
الجال فتحرزوا فيها ينتظرون ما سيصنع ابرهة بمكة . واصبح ابرهة قهياً لدخول
مكة فدهمهم من البحر طيور ابابيل (جماعات) ترشقهم بحجارة من سجيل (طين) -

المشعر الحرام وهو مصلى الامام أيام الحج يصلي فيه العشاء والمغرب والصبح .
والمزدلفة هي مبيت الحجاج ومجمعهم للصلاة اذا صعدوا من عرفات .

وفي مزدلفة صلينا الصبح واتجهنا نحو مضيق الاخشبين فاجتزأناه . والاشخبان اسم جبلي هذا المضيق ، وفي معجم البلدان انهما جبلان يضافان تارة الى مكة (فيقال اخشبا مكة) وتارة الى منى (فيقال اخشبا منى) .

وبلي مضيق الاخشبين مضيق آخر أوسع انفراجاً منه يسمونه المأزمين يقع بين المشعر الحرام وعرفة . وقد يجمع بعضهم بين المضيقتين فيسميهما الاخشبين أولالمأزمين .

وفي هذا المضيق المنفرج افترق لنا ثغر الغزاة من وراء حجاب فتابعنا المسير الى أن مررنا بمسجد نمرة ، وهو قبيل عرفة ، وبموضعه ضرب رسول الله (ص) سراقه في حجة الوداع . وأقبلنا على عرفة فنزلنا وتقبلنا ^(١)

في عرفة :

هنالك ، حيث ترتفع أصوات الحجاج بالابتهاال الى الله ، أيام الحج ، نزلنا فاذا السكون مخيم ، واذا الجبال صامئة ، والديار خالية ، كأن لم تكن مشتبك الاقدام ، وملتحم الأقوام ، ومعتك الأقسام ، من أهل الاسلام ! .

عكفنا على نزل هناك ، كما يسميه بعضهم ، وهو بناء صغير من حجارة مرصوفة . مسقوف بقضبان من الخشب تعلوها أغصان من شجيرات البر ، وأبالات من نبات الجبال . وسرحنا الطرف في ذلك الوادي الانيق ، وعلى مقربة منا سلسال صغير من ماء زبيدة أقبل عليه سكان عرفات يملأون قريهم ويستقون دوابهم وعرفة كما يقول البشاري (معجم البلدان .. مادة عرفة) هي : قرية فيها مزارع

— متحجر) واقبل عليهم سيل من ورائهم لم يطيقوا دفعه ، ففرق منهم جمع كثير ، ونجا ايرهة بمجاعة ممن معه وقد أصيب في جسده فلم يبلغ صنعاء حتى هلك بها

(١) التقييل والقيولة : النوم في نصف النهار . والحجاز يون اليوم يقولون

« قيل فلان » اذ انزل أو انفرّد ليلتزيح وقت شدة الحر .

وخضر ومباطخ وبها دور ^(١) حسنة لأهل مكة ينزلونها يوم عرفة ، والموقف منها على صيحة عند جبل متلاطي وبها سقايات وحياض وعلم قد بني يقف عنده الامام . ويقال لها عرفة وعرفات ، وكلاهما صحيح ، والثاني ليس بجمع وان كان على صيغة الجمع . »

ونقل النابلسي عن الزركشي أن لعرفات أربعة حدود :

- ١ - ينتهي الى جادة طريق السرف (وهو موضع قرب التنعيم) .
- ٢ - الى حافات الجبل الذي وراء أرض عرفات .
- ٣ - البساتين التي تلي قرية عرفة (وهذه القرية على يسار مستقبل الكعبة اذا وقف بارض عرفة)
- ٤ - ينتهي الى وادي عرفة .

قال : وليس من عرفات وادي عرفة ولا نمرة ولا المسجد الذي يصلي فيه الامام المسمى بمسجد ابراهيم . بل هذه المواضع خارج عرفات على طريقها الغربي مما يلي مزدلفة ومنى ومكة . اهـ .

الى شداد :

شجر الطلح ، وادي سمار ، وادي نعمان ، عين زبيدة ، جبل كبكب ، قهوة شداد . مكثنا في عرفة الى أن بردت جرة النهار ونهضنا قبيل العصر فجرينا في واد فسيح تسكنفنا من جانبينا اشجار الطلح وأغصان السلم ، وقد قيل لنا ان السلم مادام دون الشجر فهو سلم فاذا ارتفع سموه طاحاً ، وهو المعروف في بلاد الشام بشجر العنبر والمسك ، كثير الشوك ، زهره اصفر مستدير كالاكر الصغيرة زكي الراححة ، وورقه القرظ الذي يدبغون به .

ذلك الوادي الخصب هو « وادي نعمان » الذي أكثر الشعراء من ذكره ، لم نكد نزجي اليه الواحدل صادرين عن عرفة حتى لاح لنا عن أيماننا واد آخر عريض الجانبين يسمونه « وادي سمار » وهو كثير الخير ، فيه قصر فخم للاشراف

(١) لمنز هذه الدور ولا آثارها فلعلها كانت في زمنه واندرست

من ذوي زيد ، وفيه آبار كثيرة ، وكانت به عين جف ماؤها منذ سنين قلائل . وقد أخطأ صاحب الرحلة الحجازية اذ عد سماراً بين عرفة ونعمان في طريق الذهاب الى الطائف ، وسمار لا يفصل بينهما انما هو على مرمى بندقية من جنوب عرفة يلححه السائر منها الى نعمان عن بعد ولا يمر به .

وتوسطنا وادي نعمان فاذا بئر يقولون انها مبدأ عين زبيدة ^(١) والحقيقة ان ماء هذه البئر يتصل بها من سفوح جبل كرا مجتمعاً من الامطار والسيول ، وقد جعلت بين هذه البئر وعين زبيدة قناة هي إحدى القنوات التي تصب في العين ويتألف منها ماؤها بمكة . وقد أقيمت فوق بئر نعمان قبة يراها السالكون والماء منخفض عن الارض نحو ثلاثين متراً .

(١) عين زبيدة أشهر عيون هذه الديار وأكبرها . افرد لها العصامي — المؤرخ عبد الملك بن حسين بن عبد الملك المكي العصامي المولود بمكة سنة ١٠٤٩ هـ والمتوفى بها سنة ١١١١ هـ — فصلاً خاصاً في جزء اطلعت عليه مخطوطاً بمكة وهو المجلد الثاني من كتابه « سمط النجوم العوالي في انباء الاوائل والتوالي » ومجل ماقاله في شأن هذه العين أن السيدة زبيدة بنت جعفر بن المنصور زوجة هارون الرشيد العباسي رأت مايعانيه حجاج بيت الله الحرام من قلة المياه فصرفت همها الى شراء مزارع ونخيل في أرض حنين كانت تسقى بمياه عدة عيون هنالك منها « عين مشاش » و « عين ميمونة » و « عين الزعفران » و « عين البرود » و « عين ثفة » فابطلت المزارع ووصلت بين هذه الينابيع وساققتها بأقنية الى عين نعمان وهذه منبعها ذيل جبل كرا فينصب الماء من ذيله في قناة الى موضع يقال له « الأوجر » من وادي نعمان . ثم امرت بايصال قناة نعمان الى جبل الرحمة محل الموقف وجعلت الماء ينصب الى البرك في عرفات ثم مدت الماء من مزدلفة ومنها الى بئر عظيمة تسمى بئر زبيدة ، ثم كانت تتخرب مجاري هذه العين فعمرها مظفر الدين صاحب اربل سنة ٦٠٥ هـ وعمرها بعدة الشريف حسين بن عجلان . ثم ذكر العصامي اسما من تداولوا عمارتها الى عصره

واطلعت على رسالة للسيد عبد الله الزواوي ثم المكي المدرس بالمسجد الحرام ورئيس لجنة عين زبيدة سماها « بغية الراغبين وقررة عين أهل البلد الامين فيما يتعلق —

وادي نعمان خصيب التربة كثير السيول ، وفي سفوح جباله زروع مختلفة تسقى بماء المطر منها انباطخ (جمع مبطخة : وهي مزرعة البطيخ) وأهل الحجاز يسمون البطيخ الاخضر « الحبب » ويسمون البطيخ الاصفر « الخربز » وهو المعروف بالشام في مصر وفلسطين ، إلا أنه من النوع المستدير لا المستطيل وقل أن يكبر حجم الواحدة منه كما في الشام وغيرها ، ولا يكثر فيه الشديد الحلاوة بل يثلثونه بالسكر أو يذرون السكر عليه ليحلو طعمه . ومن زروع هذا الوادي ما يسمونه « الدبة » وهو المعروف في بلاد الشام باسم « القرع » ومنها الكوسى والخيار والقثاء والبندورة (القوطة) وماشابه هذه الانواع من المزروعات الضعيفة

— بعين الجوهرة السيدة زينب أم الامين » في ٥٠ صفحة ذكر بها عناية الملك حسين منذ ولايته امارة مكة المكرمة بهذا العين وأتى على تاريخها ، فقال محصله : أول من عثرت عليه ممن اعتنى بامر مياه مكة المكرمة معاوية ، وكان أهل مكة قبل ذلك يشربون من الآبار الموجودة بها وحواليها ، فأجرى معاوية عشرين في الحرم . ثم جاء عبدالله بن عامر بن كريز فجمع العيون وصرفها في عين واحدة وهو أول من اتخذ الحياض بعرفة وأجرى اليها ماء العين . ثم تخربت هذه العيون وأصيب الناس بشدة الى ان كانت دولة بني العباس فعنيت زبيدة باجراء عين حنين الى مكة وانفتحت على ذلك ألف ألف وسبع مئة ألف مثقال ذهباً (١٧٠٠٠٠٠) قال : ومنبع هذه العين في ذيل جبل شامخ يقال له « طاد » وهو من جبال الثقبه في طريق الطائف يجري مائه الى أرض يقال لها حنين - وهو واد قريب من الطائف بينه وبين مكة بضعة عشر ميلا - ثم أوصلتها الى مكة . وأمرت أيضاً باجراء عين وادي نعمان الى عرفة ، وهي عين منبعها ذيل جبل كرا ينصب منه في قناة الى الاوحر في وادي نعمان . فأجرتها الى عرفة وأقامت لها أحواضاً وقنوات . ثم كانت تتخرب الاقنية بعد ذلك فيتمدها الخلفاء والولاة . فممن عمرها المتوكل على الله جعفر ابن المعتصم على أثر زلازل سنة ٢٤١ هـ التي غارت بها عيون مكة فأرسل المتوكل مئة ألف دينار أجريت بها عين عرفات الى مكة . ومنهم مظفر الدين صاحب اربل عمرها سنة ٥٩٤ هـ ثم المستنصر العباسي سنة ٦٠٥ هـ ثم الامير جو بان نائب السلطنة بالعراقين أرسل الامير بازان بن محمد بن ألف دينار فعمرها سنة ٧٢٦ هـ -

٥ — ما رأيت وما سمعت

التي تنمو بسرعة بقليل من ماء السماء . وأكثر حاصلاته « الدخن » لغاية البدو المقيمين في أطرافه بأكله وهم يرون فيه خواص أعظمها أن قليله يشبع ويسمونه « مزاحم الجنبة » إشارة الى إشباعه حتى يضيق زنار آكله فلا تعلق به الجنبة ! وهذا الوادي عظيم الشبه على ما ذكر لي بوادي سمار في بقاعه ، وزراعته ، وأكثر حاصلاته .

سلكنا وادي نعمان الفسيح ، والشمس آخذة بالانحدار ، والنساء تحمل الينا شذى نبته العطر فتذكرنا بقول شاعر زينب :

تضوع مسكا بطن نعمان أن مشت به زينب في نسوة عطرات
وايست كأخرى أوسعت جيب درعها وأبدت بنان الكف للجمرات
وعلت بنان المسك وحفاً مرجلا على مثل بدر لاح في الظلمات
وقامت تراءى يوم جمع فافتنت برويتها من راح من عرفات !

وعمرها بعد ذلك سنة ٨١١ الشريف حسن بن عجلان بن رميثة جد الاسرة الهاشمية المالكة ثم عمرها الملك المؤيد أحد ملوك الجراكسة وتطوع لها بالقي منقال ذهباً سنة ٨٢١ هـ ثم عمرها الملك الاشرف قايتباي الجركسي سنة ٨٧٥ هـ وعمرها آخر ملوك الجراكسة السلطان قانصوه الغوري سنة ٩١٦ هـ وعمرها السلطان سليمان سنة ٩٣١ هـ وعمرتها فاطم هانم كريمة السلطان سليمان سنة ٩٦٩ هـ واتفقت عليها مبالغ طائلة من بيت المال تنيف على خمس مئة ألف دينار ذهباً استمر وكلاؤها يشغلون في عمارتها الى سنة ٩٧٩ هـ ثم عمرت على يد حسن باشا المعارسنة ١٠٢٠ هـ ثم على يد محمد بك صاحب جدة سنة ١٠٦٦ هـ وعمرها الشريف بركات بن محمد بن ابراهيم سنة ١٠٩٢ هـ ثم عمرت سنة ١١٠٥ هـ وهنا انقطع خبرها الى سنة ١٢١٩ هـ فتخربت فعمرتها الحكومة ثم عمرها محمد علي باشا والي مصر سنة ١٢٤٢ هـ ثم أصلحت سنة ١٢٧٨ هـ على اثر سيل عظيم . ثم بدأ باصلاحها محمد شرواني باشا والي الحجاز سنة ١٢٩١ هـ وعاجلته المنية فاتم العمل الشريف عبدالله باشا ، ثم تداول اصلاحها اهل الخير والاحسان برئاسة امراء مكة ، وألف لها الملك حسين سنة ١٣٢٦ هـ لجنة للنظر في اصلاحها كلما طرأ عليها طارئ . وقد تخربت عدة مرات بعد ذلك وأصلحت وزيدت فيها احواض وبرك . اهـ

وفي أواخر وادي نعمان أو بعد منتصفه راقتنا عن يسارنا جبل قيل لنا :
هذا كبكب !

عادت لنا الذكرى ، ذكرى العصور الاولى ، أيام كانت هذه الهضاب
والآكام ، والبقاع والتلاع ، مسرح أنظار شعراء الجاهلية والاسلام ، يروحون
فيها ويفسدون ، بين غزل يطير في عالم الخيال ، وشج ينذب الآثار والاطلال ،
وتخور يرى النجم دونه ، وبحسب الناس يعبدونه !

على مقربة من ذلك الجبل الشامخ تمثل لنا امرؤ القيس وقد خيره أبوه بين الشعر
وتاج الملك ، فأبى التاج ، وانفرد بعصائب التفت حوله ، يشب ويتغزل ، ويحن
ويفاخر ، ويدكر أحباباً له انفردوا الى ظلال كبكب فيقول :

تبصر خليلي ، هل ترى من ضعائن سواك نقباً بين حزبي شععب
فريقان : منهم قاطع بطن نخلة وآخر منهم : جازع نجد كبكب !

وسواء أكان يعني كبكب هذا أم يريد كبكباً آخر (كما يقول ياقوت في معجمه)
فقد دأبنا نجد كبكب وتمثلنا بقول حامل اللواء !

وسمعت أحد فضلاء الحجاز يقول : ان كبكب هو أحد الجبالين المعنيين
بقول الشاعر :

أيا جبلي نعمان بالله خايا نسيم الصبا يخلص الى نسيمها !
وفي ذروة كبكب قبيلة معروفة يدعونها به فتسمى الكباكة (وواحداً
كبكي) وهي مشهورة بقص الاثر وسيأتي ذكرها في الكلام على الفراسة في
البادية . وفي كبكب هذا يقول ساعدة بن جوبة الهذلي :

كيدوا جميعاً بأناس كأنهم أفناد كبكب ذات الشث والحزم ^(١)

وما كدنا نبلغ آخر كبكب حتى بدت لنا عن يميننا إمارة عمران حديث فعلنا
اننا وصلنا قهوة شداد . وشداد اسم مناخة — اوزل كنزل عرفات — يأوي اليها
الصاعدون الى الطائف والمنحدرون الى مكة وهي على نحو ثلاث ساعات من

(١) الافناد : جمع فند وهو طرف الجبل وما تدنى منه . والشث : نبت طيب

الريح يدبغ به . والحزم : نوع من الشجر .

عرفات ، وست ساعات من مكة لراكب . وفيها مركز لاهاتف (التلفون) يربط الطائف بمكة وهو مفيد لتوطيد دعائم الامن في تلك المسالك .

نزلنا شدة اداً والشمس تميل الى الغروب فودّعنا بها ذلك الاق المتورّد وأرحنا داوبنا حتى عاود الظلام كرمه ، وحيانا هلال التسع بمحياء الباسم ، فصلينا المغرب ونهضنا للسرى ، وعن يميننا الى جنوب شداد جبل يسمونه « دماغه » وعن يسارنا الى شمال شداد او اخر ككب وامامنا الى الشرق جبل يدعونه « تفتف » من شداد الى الكر :

خريق الرأس ، الجرف أو أبو الحراجل ، حراجل الكر
كلمة في أسماء المواضع ، قرية الكر

سرينا ، والليل رضيع ، والفصل ربيع ، آخذين الى اليمن قليلا ، فاخترقنا بعد السير من المسير ، واديا يدعونه « خريق الرأس » بالقاف لا بالقاء - خلافا لما في الرحلة الحجازية - وهو واد متسع تنكث فيه اشجار الطلح ولكنها لاتعوق السالك . اجتزناه بنحو ساعة وارتفعنا قليلا الى واد آخر يسمونه « الجرف » وفيهم من يسميه « أبو حراجل » وقد تبادر الى ذهني عند سماعي لفظ الحراجل ان أصابا الاحراج - لكثرة ما هناك من أحراج الطلح والسلم - وزيدت في آخرها الالام إلحاقا ، ثم علمت أن الحراجل في عرفهم جمع حرجلة وهي عندهم الحجارة المتراكمة ^(١) وفي هذا الوادي وما يليه كثير من هذه الحجارة في الطريق وعلى جانبيه . ولفظ « الجرف » أصبح تسمية لهذا الوادي لما جاء في معجم ياقوت من قوله : « الجرف موضع قرب مكة كانت به وقعة بين هذيل وسليم » - نخطيناه في نحو نصف ساعة وانتقلنا منه الى واد آخر صعب السلوك ، كثير « الحراجل » عبثت فيه يد السيول يسمونه « حراجل الكر » إضافة الى المكان الذي هو وجهتنا في هذه الرحلة وقد عانينا الصعاب في اجتياز هذا الوادي : المشبكة اشجاره الشائكة ، بحيث كان يتعذر على الراكبين منا ان يتجاورا في طريقهما . وللبغال عادة سيئة في مثل هذه المضائق فانها تزدحم متسابقة وهي تنكس في الوعر فيصطدم الراكب بالراكب

(١) والحرجلة في اللغة : الأرض الحرة .

وكثيراً ما مزق الشوك اطراف ما تحتنا من فرش وضعت لنام عليها اذا مسنا النحاس ولولا شدة التحفظ والاحتياط والانتباه للعبت ايدي الاشواك باطراف ثيابنا وبصماداتنا (١)

وليس في طريقنا من شداد الى الكر ما يجدر بالوصف لان اكثره على نسق واحد رمال وحجارة واشجار شائكة ، وتنقل من واد الى واد يفصل بين احدهما والآخر فارق لا يشعر به غير الخبير بتلك المناهج ممن اعتادوا سلوكها وسمعوا من افواه البدو اسماءها . وهؤلاء يطبقون على كل جبل وثاية وتلعة وسبيل اسماً يعرفونها به ولم اركب فائدة في تتبع اسماء لا اذكر شاعراً متقدماً اشار اليها ولا مؤرخاً ذكرها بل يمكنني ان اقول انها اسماء غير ثابتة لانك بينما تعرف هذه العقبة تدعى بكذا اذ تجدها بعد اعوام قد اختلف اسمها بحادث يطرأ عليها او وحش يظهر فيها او واقعة قتال تحدث بها . ولا ينحصر هذا الحكم بهذا المكان ، بل يراه متعقب الاخبار والاسماء يصح على اكثر اماكن البادية في الحجاز وغيره ، اللهم الا في المواضع الكبيرة المشهورة التي يعسر فيها تغلب الاسماء الحادثة على اسمائها المعروفة فهي تثبت طويلاً محفوظة بينهم بالتداول والتوارث . والمسافة من اول هذا الوادي « حراجل الكر » الى قرية الكر تقرب من ساعة

اقلنا على الكر بعد سري ساعتين ونصف من شداد فاذا هناك بضعة بيوت كلها على نسق ما وصفناه في عرفة . والكر قرية على سفح جبل كرا ، ماؤها لا بأس به . اوينا الى احد اكوأخها الحجرية أو أعشاشها البشرية ! فبتنا تلك الليلة وللتعب في اجسامنا أثر زال في الصباح

جبل كرا :

نهضنا صبيحة يوم الخميس تاسع صفر ، نرفع أبصارنا الى جبل كرا ، لنبصر ذروته فلا نرى !

(١) الصمادة بضم الصاد في عرف اهل الحجاز اليوم : ما يوضع على الرأس دون العقال ويسميها أهل الشام الكوفية او الكفية . وفي اللغة الصماد - ككتاب - ما يلفه الانسان على رأسه من خرقة او منديل دون العمامة .

وركبنا بادي، ذي بدء نحو نصف ساعة ترتفع بنا الدواب صعداً في طريق وعرة وعثة كانت قد جددت عمارتها عام مقاتلة الوهابية في أيام محمد علي باشا المعري ثم خربها السيل فبقيت آثار العمار منها وهو حجارة ملساء لاتملك الدابة حافرها ولا الانسان قدمه في سلوكها إلا بشق النفس. وأما الحرب فحجارة وصخور متراكمة على غير نظام . وقد حاول بعض الرفاق أن يكابر فيصبر على الركوب فقات له : لاتنس ان روحك الساعة في حافر بغلاك : إن زلق هويت ، وان هويت فانت ميت ! - فنزل ، وأخذنا نصعد ذلك الطود المتعلق بقرص الشمس يداءها وتنفر منه ! تارة تنساق ، وطوراً نجبو ، وآونة نجلس ثواني أودقائق حتى بلغنا منتصفه وقد تغير الهواء فرق وأنعش ، ورأينا شجر العرعر وهو من فصائل الصنوبر ، والاثب وهو أشبه بشجر الكينا ، والتين البري . وقلّ السلم والطلح . وفي هذا الجبل نمور وضباع وذئاب لم نرها — والشكر لله — وتقل فيه السباع وتتكثر القردة (السعادين) وقد رأينا في طريقنا سرباً منها . ونباتاته كثيرة الانواع منها العطري والصباغي .

وواصلنا الصعود حتى جاوزنا ثلثيه ، واشتد بنا الظم فأبصر بعضنا عينا من الماء تنبع على يسار الصاعد يسمونها « المعسل » قيل لنا انها دائمة النبع لاتجف صيفاً وشتاء فنزات اليها أبل الصدى ، فرأيت ماءً يسيراً برذاً فيه أثر من طعم الطحلب ، وهي صغيرة لاتتجاوز دائرتها المترين . وعدنا الى الصعود فرأينا قبل ذروة الجبل حوضاً غير كبير يجتمع فيه ماء المطر منحدراً مما فوقه من معلاة الجبل وهو جاف لا أثر للماء فيه . وما بلغنا قمة كرا إلا بعد ثلاث ساعات من ابتداء صعوده أى من مغادرتنا الكرو وقد يخيل للانسان أن نزوله عن كرا أسهل من صعوده والحقيقة انهما سواء لان المصعد يتساق ، والمنحدر يزاق ، ومدة اجتيازه واحدة صعوداً وانحداراً .

وللشعراء والادباء اطائف في وصف كرا منها قولهم « صعود كرا يحرم من الكرى ! » ولم أجد في ما بين يدي من كتب التاريخ وصفاً مسهباً لهذا الجبل إلا ان پاڤوت يقول : « كرا - مقصور - ثنية بين مكة والطائف » وقال في موضع آخر :

«وبالطائف عقبة وهي مسيرة يوم للطالع من مكة ونصف يوم للهابط الى مكة ، عمرها حسين بن سلامة وهو عبدنوبي وزرلابي الحسن ابن زياد صاحب اليمن في حدود سنة ٤٣٠ هـ فعمر هذه العقبة عمارة يمشي في عرضها ثلاثة جمال بأحمالها . . » اهـ — ولعل هذه العقبة هي عقبة كرا ومقابلها فان فيها طريقاً تسلكها الجمال أظنها هي التي عمرها حسين بن سلامة وقد خربت فجدد عمارتها محمد علي (كما تقدم) ثم خربتها السيول الآن إلا قليلاً منها .

وكرا ، مقصور في رواية ياقوت وأما الشعراء فيمدونه ، قال أحدهم وهو من مروياته أيضاً من أبيات :

كأغلب من أسود (كراء) ورد يشد خشاشه الرجل الظلوم
في الهدية :

قبائلها ، فواكهها ، مولد الحجاج ، بنو صخر ، جبلا الخبل وشعار .
ولما بلغنا قمة كرا ، ظهرت امامنا قرى الهدية قاتجتها الى احداها على غير تعيين
فزلنا للراحة وتناول الطعام وأجلنا النظر في ذلك السهل المرتفع فاذا سكانه من
متحضرة البدو يعمل بعضهم في زراعة أرضه وبعض يؤجر نفسه لنقل أكياس
الحبوب وغيرها . وقرى الهدية سبع على عدد القبائل النازلة فيها وتسمى باسماء قبائلها
وهي : الغمامرة . وبنو صخر . والقصران . والاعربة ^(١) والاخولة ^(٢)
والامضة . والبنى .

والهدية مرتفعة عن سطح البحر ٦٥٠٠ قدم وفي الرحلة الحجازية ١٧٦٠ متراً .
ولاعتدال مناخها يكثر فيها شجر التين والمان والسفرجل والصبير (ويسمونه
البرشوم وهو التين الشوكي) واللوز . وفيها كثير من الورد يستخرجون ماءه على
طريقة التقطير . ومائها عذب بارد لم نشرب مثله في مكة ولا جدة . وأمطار قرى
الهدية قليلة جداً فقد عرفنا عند نزولنا بها ان السماء لم تمطرها من عامين الا رذاذاً
أو رشاشاً .

(١) وهم يلفظونها « لغربة » بكسر اللام وسكون الغين وكسر الراء .

(٢) ويلفظونها « لحولة » بكسر اللام وسكون الحاء وفتح الواو واللام الثانية .

ومن غريب الصدف أن نزولنا كان في قرية بني صخر تلك القرية التي لا يزال بعض العارفين يتناقلون أن مولد الحجاج بن يوسف الثقفي كان فيها وهذه القرية بضعة بيوت قديمة ، ولكنها ليست بأثرية . وقد سألنا من بها عن علاقتهم ببني صخر القاطنين في بلاد الشام فقالوا انهم أبناء أعمامنا وكانت هذه منازلهم وقد نزحوا منذ عهد طويل على أثر قتال نشب بيننا وبين مجاورينا ولم يبق منهم هنا غير رجل وعائلته فأنسل أسرتنا التي ترونها الآن . ولا ريب في أن قلة عدد بني صخر في الهدة تدل على قرب عهد بني عمهم بالجللاء فانهم هنا قد لا يزيدون عن الخمسين رجلا ونساء فاعل بني صخر الشاميين هاجروا منذ مئتي سنة أو نحو ذلك . وهم يسقون أراضيهم بماء الينابيع والآبار ، يستخرجونه الى سطح الارض بالشواني : وهي أبقار تربط بحبال وتربط في تلك الحبال قرب فتذهب الأبقار خطوات وتعود ، فإذا أقبلت على البئر نزلت القرب فيه فامتألت ، وبذهابها تصعد القرب فتفرغ ماءها في حوض على طرف البئر .

وفي جوار الهدة جبالان شاهقان يسمون أحدهما « الخبل » والثاني « شعاراً » ويؤكد الخبيريون أن البحر الأحمر يرى بالعين المجردة من « شعار » صباحاً وكذلك سهول تهامة ، وبين البحر وشعار مسيرة يومين ونصف .

وقد سمي القلقشندي في صبح الأعشى الهدة وادياً ، قال : ومن اودية مكة « الهدة » وهي واد على القرب من بطن مر ، على مرحلة ونصف من مكة وهي بيد بني جابر (؟) - وبطن مرواد في شمال مكة على مرحلة منها يمر به حجاج مصر والشام وبه عيون ومياه تجري ونخيل كثيرة ، وفواكهها وبقولها تحمل الى مكة اه وقال ياقوت : الهدة موضع بين مكة والطائف وهو ممدرة أهل مكة ، والمدرطين ابيض يحمل منها الى مكة تأكله النساء (كذا) ويدق ويضاف اليه لإذخر يغسلون به أيديهم . وقال في موضع آخر : هدى منقول عن الفعل الماضي من هدى يهدي إذا أرشد : موضع في نواحي الطائف . اه
اقول : والشائع اليوم على ألسنة مجاوري الهدة هو تسميته « الهدى » بالقصر

والتعريف وليس في كلام ياقوت ما يفهم منه تعريفه بأل مقصوداً ، كما ان ثقات المؤرخين لم يذكروه بغير التعريف وهاء ساكنة في آخره اوتاء مقودة .

الى الطائف :

كرا الصغير ، وادي الحرم ، جبل مسرة الطائف

نهضنا من الهدية بعد صلاة الظهر نتابع السير ووجهتنا الطائف . فلم نجتز مسافة تذكر حتى انحدرنا قليلاً ثم اخذنا نصعد جبل كرا الصغير (كما يسمونه) وهو ذروة شاهقة في طريقنا ، وشتان ما الكبير والصغير ! ومنه عدنا الى الانصباب فأنحدرنا نزولاً : اضطررنا في أوله ان نترجل عن دوابنا مسيرة ربع ساعة نزلنا بها نحو ثلاث مئة قدم عن ارتفاع الطائف وركبنا فاستلنا وادياً صغيراً انتهينا منه الى « رادي الحرم » وفيه مسجد خرب وابنية يسيرة ، ومن هذا الوادي يحرم القادمون على مكة من أهل الشرق واليمن وحضرموت وعمان حجاً او اعتماراً ، ولذلك سمي الحرم . ثم وصلنا الى جبل يسمونه « مسرة » وقد يعرفه بعضهم فيقول « المسرة » وهو سلسلة جبال باعنا اولها بعد مسيرة ساعة ونصف من الهدية . واهلها جبال السراة المشهورة فاني لم اجد اسماً للمسرة في ما عثرت عليه بمكة من كتب تخطيط البلدان . ومن أحد منعرجات هذا الجبل ظهرت لنا اعالي منازل الطائف ، فلم نفتأ مواصلين السير بين الجد والمهل حتى بلغنا الطائف ونزلنا في دار مدير شرطتها .

الأمم :

عشية الثلاثاء ١٤ محرم ١٣٣٩ بينما كانت الشمس تلقي على المشرق نظرات الوداع رأى اهل جدة (على ساحل البحر الاحمر) شابين يبرحان مدينتهم ووجهتهما مكة . احدهما مكتس برادى الاحرام ، حاسر الرأس ، تعبت النسمات ببرديه ، وقد ركبا حمارين شديدين فضيا مستظهرين المدينة ، مستقبليين الجبال والرمال . سأل الحرم رفيقه بعد أن ابتعدا عن جدة مسيرة نصف ساعة : ما اسم هذا الجبل الذي نراه اول جبال طريقنا ؟ فقال : الرغامة . واستمرا في سيرهما

لم يجريا أكثر من ساعتين في ذلك القفر الخالي ، والليل باسط جناحيه ، حتى لاح لهما بدويان يحملان بذقيتين ، يمشيان الهوينى ، مقبلين عليهما ، فجزع المحرم في نفسه وأوجس خيفة ، وجعل يستعيز بالله ويتلو ما تيسر له من آي الكتاب . ومرا بالبدويين ففأتاها مئة متر أو أكثر والمحرم يترقب رصاصة من أحدهما تتناقل صوته الاطواد الثابتة والاولدية الرحبة ولكن البدويين اخترقا سبيلهما مكتفين بنظرتين القياهما عليه وعلى رفيقه ، ولم ينبسا ببنت شفة .

وبعد أن امتدت مسافة الشوط بين الفريقين تحرك اسان المحرم في حديثه مع رفيقه يعرض له بذنبك المسلحين اللذين كانا يستطيعان سلبه واياه ما معهما من نقود ومتاع ، فأدرك رفيق المحرم ما داخله فدعاه الى الطأ نينة وقال : ثق ياسيدي انك آمن حيث سرت . قال المحرم : اذا فما شأن هذين ؟ - قال : هما عسس في هذا البر !

فعجب المحرم من أمر لم يكن يتوقعه ، واستمر في حديثه فقال لرفيقه : وهل عهدكم بمثل هذا الضبط بعيد ؟ فبرز رأسه قائلاً : منذ حكم سيدنا ! ..

لم تبرح ذكرى هذه الساعة نفسي منذ أول ليلة دخلت بها الحجاز محرماً . ولقد ذكرتها حين كنا نخترق - في رحلتنا هذه - من مكة الى الطائف - الاولدية والهضاب ايلنا ونهارنا . وكنت ارى كثيراً من امثال ذينك - من العسس - فانس بهم ! وأذ كر كلمة الرفيق الاول : ثق ياسيدي أنك آمن حيث سرت !



الطائف

« نظرة الشاعر والباحث ، تسميته ، فتحه ، خروج الترك ، آثاره ، أعلامه ، داخله ، طرقة الى مكة ، عكاظ ، خلاصة ، ما حوله ، قبائله ، الرحلة الحجازية . »

إذا جال الشاعر جولاته الاولى في الطائف . ورأى ما حول مدينته من ربيع ونبات . وينابيع وجداول . وفواكه وازهار . وحديق وبساتين . لم يشك بصدق ما يتلوه في مقدمات تواريخ الفاكهجي ^(١) والعجمي ^(٢) والميورقي ^(٣) . واشباههم من نقل هؤلاء عنهم ، كياقوت ^(٤) وابن ابي الصيف ^(٥) او نقلوا عن هؤلاء وأولئك ، كالفاري ^(٦) وغيره اذ يراهم متفتحين . اويكادون يتفقون . على أن الطائف

(١) عبد الغادر بن احمد بن علي الفاكهجي المسكي المتوفي في أواخر القرن العاشر له كتاب في الطائف سماه « عقود اللطائف في مجاسن الطائف » اطلعت عليه مخطوطا عند قاضي الطائف الشيخ عبد الله كمال ، وهذا الكتاب في أحد عشر كراساً ، وفي هذه النسخة نقص قليل ، كتبت سنة ١٢٨٦ هـ . (٢) امام الحرمين الشيخ حسن بن الشيخ علي العجمي المسكي من علماء أواخر القرن الحادي عشر له رسالة صغيرة ممتعة في الطائف سماها « اهداء اللطائف من اخبار الطائف » اطلعت عليها مخطوطة (٣) الشيخ احمد ابن علي البغدادي ثم الميورقي المالكي الطائفي الوجي مسكنا توفي في آخر ذى الحجة سنة ٦٧٨ هـ . ودفن بمقبرة تجارة ركن المسجد العباسي من خارجة ، له رسالة في الطائف سماها « بهجة المهج في بعض فضائل الطائف ووج » رأيتها مخطوطة

(٤) شهاب الدين ابو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي صاحب « معجم البلدان » وهو أشهر من أن يذكر وله كتب كثيرة . وإيس هذا مكان الافاضة في ترجمته توفي سنة ٦٢٦ هـ (٥) مفتي الحرمين ابو عبد الله ابن ابي الصيف البجلي المتوفى سنة ٦٠٩ هـ له كتاب في الطائف سماه « زيارة الطائف » رأيت بعضهم ينقل عنه ولم اعثر على نسخة منه (٦) الشيخ عبد الحفيظ الفاري من علماء الطائف المتأخرين له رسالة في تاريخ الطائف لم يزد فيها على ما في كتب سابقه إلا بقوله عند ذكر ما كان في الطائف من المآثر والمزارات : وقد اندرس أكثر المآثر التي ذكرها المؤرخون . كتبت هذه الرسالة سنة ١٣٠٨ هـ

قطعة نقلت الى الحجاز من الشام . وفيهم من يقول من اليمن . يستدلون على هذا بخصبها واختلافها عن غيرها من بقاع الديار الحجازية بطيب هوائها وعذوبة مائها وجمال نضرتها وحسن خضرتها .

لنفرض أن هؤلاء . وفي جملتهم بعض اصحاب المعاجم العربية كانوا يعتقدون حقيقة أن جبريل انزعاها من الشام أو اليمن وطاف بها على البيت الحرام ثم ألقاها في هذه البقعة بعد أن اقتلع البلدة التي كانت في موضعها وقذفها الى المكان المحمولة تلك منه ، فذهبت الأولى بحرها وجفائها الموروثين عما جاورها من بادية الحجاز وأنت هذه بما كان لها من طيب المناخ وجمال المنظر وقوة الانبات !

ولنفرض أن القاتشدي كان على ثقة من أن الطائف انقطعت من الشام في طوفان نوح وحماها الماء وطافت بالارض حتى أرست في هذا الموضع ! ..

لنفرض أنهم كانوا يعتقدون هذا الوهم حقيقة ، فلا يمنعنا ذلك من أن نراه اليوم خيالاً شعرياً جميلاً مقبولاً ! وما بين أيدينا وتحت أنظارنا من آداب العرب والافرنج ، دفعهم بأنواع الحجاز الجاري مجرى الحقيقة . ملو ، بضروب الامثال الموضوعة وضع التشبيه والتمثيل . فامتثل معهم إن الطائف من غير ارض الحجاز وان الملائكة قد حملوها من اقاصي الديار لتكون جنة هذه الاقطار !

ونتل ونحن في هذه البقعة من بقاع الحجاز إننا في مصيف من مصانف الشام أو مخلاف من مخاليف اليمن أو جنة من جنان مصر . فليس على الخيال حرج . وللشاعر - أن يشبه ماشاء ، بما شاء ما اتفق له وجه الشبه . .

وقد يأخذ الشاعر إخذ المؤرخ الافرنجي « سيديو » فيقول معه : « الطائف بستان مكة ! » وربما عاد الى دواوين الادب فأعجبه منها قول عروة بن حزام وقد خرج من سور الطائف ونظر الى واديه « وج » فاذا حمامة ترفرف على أحد أغصانه :

أحقاً يا حمامة بطن وجَّ بهذا النوح انك تصدقينا
غلبتك بالبكاء لان ليلى أوأصله رأيتك تهجمينا
وأني إن بكيت بكيت حقاً وأنت في بكائك تكذبننا

فأست وان بكيت أشد شوقاً ولكني امر وتعلمنا
فنوحى يا حمامة بطن وج فقد هيبت مشتاقاً حزينا !
ذلكم هو الطائف في نظر الشاعر المفتون بحمال الطبيعة المأخوذ بمحاسنها
..

وأما الباحث فإذا عرف الطائف وأنعم فيه نظره رأى غير ما يراه الشاعر من
شأنه وموقعه ومكانته

للباحث في الطائف كلمات ثلاث : الأولى في موقعه العسكري والسياسي .
والثانية في مكانته الاقتصادية . والثالثة في شأنه التاريخي . ولا أرى بأساً في
الإشارة بإيجاز الى هذه الأمور الثلاثة :

(١) موقعه العسكري والسياسي : غير خاف أن حكومة الحجاز الحاضرة
والحكومات التي خات من قبلها ، لم تختار الطائف ليكون مقر جيشها النظامي إلا بعد
أن عرفت عظم شأنه بوقوعه الفاصل المادي بين سهول العراق من شرقه ، ودير
الحجاز من غربه وأصقاع اليمن من جنوبه . فهو وما يليه من أراض واسعة وأودية
وجبال وسهول يعد أمتع نفور الحجاز البرية وأشدّها حاجة الى ما فيه من قوة .
وهو مجتمع القبائل ومحشد العشائر . قل انفاكهي في تاريخ مكة : « كان لمدينة
الطائف خطر عند الخلفاء في ما مضى وكان الخليفة يوليها رجلاً من عنده ولا يجعل
ولايتها لصاحب مكة » . وروى غيره من أصحاب التواريخ أن الحجاج بن
يوسف الثقفي كان قد اتخذ الطائف معسكراً لجيشه في محاربته أمد الله بن الزبير
يرسل منه الجند الى مكة فصيلة اثر فصيلة .

ولامراء مكة واشرافها عناية خاصة به . فهو مصيفهم ومتنزههم يمشون فيه
شهرين أو ثلاثة أشهر من كل عام يتعدون عن قيظ مكة . وينظرون في شأنه
عن كثب . وكان الملك حسين قبل النهضة لا ينقطع في كل سنة عن الإقامة فيه
أكثر الصيف فذه عليه به وفود القبائل فيتفقد أحوالها ويستميل شفاذها . حتى
كانت النهضة فاكنتى بان يوفد كل سنة أحد أبنائه فينوب عنه هناك .

وفي أخبار جاهلية العرب أن الطائف لما عمرت ونمت كرومها وكثرت خيراتها

حسدت القبائل سكانها بني ثقيف . فشنت عليهم الغارات . وأقبل نحوهم الغزاة حتى اضطروا الى إحاطة مدينتهم بسور يمنع العادي ويصد المقتحم . فأقاموه واتقوا ما كانوا يحذرون . وضعفت عن قتالهم العزائم فتركهم قبائل العرب وشأنهم حتى قيل انهم بمناعة بلدهم ووفرة خيريه أغبط الناس عيشاً . وضربت الامثال بامتناع الطائف على من اقتحمه — قال ابو طالب ابن عبد المطلب :

منعنا ارضنا من كل حي كما امتنعت بطائفها ثقيف !
اتاهم معشر كي يسلبوه فحالت دون ذلكم السيوف !

(٢) مكانته الاقتصادية: الطائف احد ابواب الحجاز التجارية الكبيرة . وارضه اغنى اراضي الحجاز بعد وادي فاطمة . يحمل مايزيد عن اهله من حاصلاته وفاكهته الى مكة وغيرها . ويكثر فيه السمن والعصوف لكثرة اقبائل النضاربة في قراه والمحيمة في اطرافه وكلها تعيش من اوبار ابائها وحليب نوقها . والماشية والاذواد في هذه البلاد قيمة كبيرة لان ماينتجه قد يعدل ما تأتي به المزارع الخصبة والبقاع المنبتة . ومتى كثر العالمون في تربية المواشي استفادت البلاد من خيراتها . فكيف بالطائف واكثر قبائله لاعمل لها إلا إصلاح شأن ماشيتها واستدراخ أخلافها والانتفاع من ائمان صوفها ووبرها . والعادة ان المذن القرية من منازل البداة يعود عليها من التجارة . هم المالاتفوز به المذن البعيدة عنهم فالطائف من هذه الوجهة اكثر استفادة من غيره لان القاطنين حوله وفي قراه من ابنا البادية وارباب الماشية وأصحاب المزارع اكثر ممن حول سواه من مدن الحجاز وأوفر ثروة وأنعم عيشاً .

وللدورخين إعجاب شديد بكروم الطائف وزروعها وناهيك بمثل سليمان بن عبد الملك الاموي يدهش من كرم في قرية من قرى الطائف . نقل صاحب معجم البلدان في كلامه على الوهط (احدى قرى الطائف يأتي ذكرها) أن سليمان مر بها بعد حجه فطال النظر اليها وسأل : لمن هذا الكرم ؟ فقيل : لعمر بن العاص فقال : هذا أكرم مال وأحسنه ، ما رأيت لاحد مثله !!

وفي كتب السيرة النبوية ان المسلمين لما بلغوا أطراف الطائف مع النبي (ص)

ورأوا واديه « وجأ » أعجبهم سدره فلهجوا به وقالوا : ياليت لنا مثل هذا ! ثم قالوا : يا رسول الله أفى الجنة سدر كسدر وج ؟ ! فأنزل الله تعالى : « .. وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين في سدر مخضود » أي لا شوك فيه !

ويدل ما ينقله المؤرخون أيضاً على أن أهل الطائف كانوا في جاهليتهم أهل قصف ولهو وغنى ويسار ، حتى أن النبي (ص) لما صالحهم اشترط عليهم (١) أن يسلموا ويقرهم على ما في أيديهم من أموالهم وركازهم (٢) أن لا يرابوا (٣) أن لا يشربوا الخمر

قال البلاذري في فتوح البلدان : وكانوا - أي ثقيف - أصحاب ربا . ونقل عن المدائني أنه كان بمخلاف الطائف قوم من اليهود طردوا من اليمن ويثرب فأقاموا فيه للتجارة فوضعت عليهم الجزية . ومن بعضهم اتباع معاوية أمواله بالطائف .

(٣) شأنه التاريخي : وأما شأنه التاريخي فانه من أقدم البلاد العامرة في الحجاز حتى أنك لترى المؤرخين وعلماء تخطيط البلدان يخططون في تاريخه على غير هدى فياقوت يقول : ان الطائف كان يسمى وجأ باسم وج بن عبد الحي من العماليق ويذكر أن وجأ هذا هو أخو أجأ الذي سمي به جبل طيء وهما من الامم الحالية . وابن عباس ينقل عنه أن الطائف بني في زمن ابراهيم عليه السلام عصر بنيت الكعبة . وابن الكلبي يروي أن الطائف هي بلد الثمرات التي رزقها الله ابراهيم نبيه حين دعاه : « .. فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات » وأكثر المفسرين على أن الطائف هو إحدى القريتين الواردتين في قوله تعالى : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » يرون ان القريتين هما مكة والطائف . . الى آخر ما هنالك من أخبار وأقوال . . وسواء أصبح ذلك كله أم اتفق حدوث بعضه فان للطائف شأنًا في تاريخ الحجاز غير يسير . ولئن كان أكثر أصحاب الرحلات والخطط لم يسهبوا كل الاسهاب في الكلام عليه فذلك لان هؤلاء انما كانوا يكتفون من الحجاز باداء فريضة الحج في مكة المكرمة وأطرافها القريبة منها ويزورون قبر النبي عليه الصلاة والسلام . فيرون في مكة

والمدينة وما بينهما الغنية عن قطع المراحل وزيارة الطائف وما اليه من جهاته الاربع. خذ مثلاً صاحب معجم البلدان وابن بطوطة وابن جبير وصاحب نفح الطيب وغيرهم من أكثر الرحالة وجوابي الآفاق والمؤلفين في هذه الابحاث فلهم لم يزوروا الطائف ولا عرفوه الا بما يسمعون عنه من الاقدمين أو ممن عاصروهم ، معرفة رواية لا شهادة ، وخبر لا اختبار .

اما مؤرخو الطائف المتأخرون كالفاكهى والعجمي وامثالهما ، فانهم لم يجدوا بين ايديهم من المادة التاريخية ما يزيدون به على ما يتولون في تواريخ سابقينهم إلا شذرات ونتفاً من أساء بعض قرى الطائف وآبارها

هذه علة الغفلة من المؤرخين عن التعرض للطائف بالاطالة المعهودة فيهم عند الكلام على امثاله من البلاد التاريخية القديمة .

ولقد عانيت ما عاناه متأخرو الكتّاب عن الطائف بعد أن أندرس جلّ ما فيه من آثار ومعالم فظفرت باليسير من الكثير وبالنزر من الوفير ولعل من سيكتب عنه بعدي يزيد عليّ ما لم اعثر عليه فان البحث في الطائف مازال قاصراً عن التعريف بحقيقته . وليكشفن العلم للناس في الغد ، ما هم غافلون عنه اليوم .

تسمية الطائف :

لم أجد حتى الآن ما اعول عليه في تحقيق الباعث على تسمية هذه الديار بالطائف وأهل التاريخ يتناقلون اخباراً فيها ما هو أشبه بالاوهام منه بالحقائق ، ولعل اقرب ما ينقلونه من الصحة رواية القاقشندي وياقوت أن اسمها القديم « وج » ثم اقامت بها جموع ثقيف وبنوا عليها حائطاً مطيقاً بها (هو ما يسمونه الآن بالسور وقد جددت عمارته مؤخراً) فسميت الطائف من إطفاء الحائط بها . ويوردون في اسم من ارتأى بناء ذلك الحائط قصصاً منها أنه رجل من اهالي حضر موت من قبيلة اسمها الصدف يقال له الامون بن عبد الملك قتل ابن عم له يدعى عمراً وفر من حضر موت لاجئاً الى من يؤويه حتى بلغ وجاً ومعه مال كثير فأتى مسعود بن معتب الثمقي فقال : أحالفكم على أن تزوجوني وازوجكم وأبني لكم طوقاً عليكم مثل الحائط لا يصل اليكم احد من العرب فيه ؟ قالوا : فابن . فبنى بما معه من المال

طوفاً فسميت الطائف وتزوج اليهم الدمون فزوجوه . وفي معجم البلدان (ج ٦ ص ١٢) قصة يرونها عن ثقيف والنمخ تنتهي بمثل ما انتهت اليه هذه القصة من شاء فليتلها فيه فإني لا اجد فائدة من الاطالة في مثل هذا .

فتح الطائف :

« بدء الدعوة الى الاسلام ، حصار الطائف ، إسلام ثقيف »
لا أريد الافاضة في الكلام على فتح الطائف في زمن النبوة لان هذا مما يجده المطالع في أكثر كتب السير والفتوحات ولكني سأوجزه في ايراد قصة وفود النبي على ثنييف قبل استفحال شأن الاسلام لما فيها من بيان ما عاناه رسول الله (ص) في بدء ظهور دعوته ، وأختمها بما انتهت اليه حال ثقيف في الاسلام :

قال علماء السير : لما انتهى رسول الله (ص) الى الطائف يلتبس من ثقيف^(١) نصرته بعد أن اخرجته قومه من مكة (وذلك في شهر شوال من السنة العاشرة للنبوة) عمد الى نفر من ثقيف هم يومئذ سادات قومهم وهم ثلاثة اخوة : عبدالليل ومسمود ، وحبيب : أبناء عمرو بن عمير بن عوف الثقفي . وعند احدهم امرأة من قریش من بني جمح . فجلس رسول الله اليهم وكلهم فيما جاء به من طلب القيام معه على من خالفه من قومه . فتال له احدهم : أمرط ثياب السكبة ان كان الله أرسلاك ! وقال الآخر : ما وجد الله احداً يرسله غيرك ؟ ! وقال الثالث : والله لا اكلمك ابداً ، إن كنت رسولاً من الله كما تقول فانت اعظم خطراً من ان أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله فما ينبغي ان اكلمك !

فنهض رسول الله وقدم يئس من خير ثقيف ، واستكنم الثلاثة ما دار بينه

(١) ثقيف : أهل الطائف في العصر الاسلامي ، واما اليوم فلا منازل لهم في بلده وانما ينزلون في بعض القرى المجاورة له كاللثناة والسلامة وقروة والعقيق والمديساء . وقد وهم صاحب « تاريخ سيناء » فضبط اسم القبيلة بالتصغير (ثقيف) والصواب فتح الاول وكسر الثاني .

ونقل صاحب « تحفة اللطائف » أن ثقيفاً بطن من هوازن من العدنانية ينسبون الى اب لهم لقبه ثقيف واسمه قيس بن منبه بن بكر بن هوازن .

ويعيدهم ، خيفة أن يبلغ ذلك قومه فيزيدهم عليه . فلم يفعلوا ، واغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونهم ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس والجأوه الى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، وهما فيه . فجلس - وابنا ربيعة ينظران اليه ويريان ما يصنعه سفهاء أهل الطائف - فتحرّكت له رحمتها فعدوا غلاما لها نصرانياً اسمه عداس فقالا : يا عداس خذ قطعاً من هذا العنب الى ذلك الرجل وقل له يأكل منه . ففعل عداس ما أمراه به . فلما وضع العنب بين يدي النبي (ص) ودعاه ليأكل مدّ اليه النبي يده قائلاً : بسم الله الرحمن الرحيم . ثم أكل . فنظر عداس في وجهه ، ثم قال : والله ان هذا الكلام لا يقوله أهل هذه البلدة ! فسأله رسول الله (ص) من أي بلدة هو وما دينه ؟ فتسمّى له وقال : أنا رجل نصراني من أهل نينوى . فقال رسول الله : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟ - قال عداس : أوتعرف شيئاً عنه ؟ . قال : ذلك أخي كان نبياً وأنا نبي ! فأكب عداس على رسول الله يقبل رأسه ويديه ، وأسلم : وابنا ربيعة يبصرانه عن بعد ويعجبان من أمره . فلما جاءهما قالوا له : ويلك يا عداس ! مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه ؟ قال ياسيدي ما في هذه الارض خير من هذا ! لقد أخبرني بخبر ما يعلمه إلا نبي . فقالوا له : ويحك ، لا يصرفنك عن دينك ! فثبت على إسلامه .

وهذه الزيارة هي أول زيارة قدم بها النبي (ص) الطائف ولا يزال المسكان الذي أسلم فيه عداس معروفاً في المثناة يزار .

ثم عاد رسول الله من ليلته فبات في مكان يدعى « بطن نخلة » وانصرف من صبيحته الى مكة فدخلها بعد أن اجاره مطعم بن عدي . ولم يدخل الطائف بعدها حتى فتحت مكة وكانت غزوة حنين وغاز بها المسلمون فقصده الطائف ماراً « ببحرة الرغا » من « اية » ونزل أمام حصن الطائف ، فحصر ثقيفاً أربعين ليلة وذلك سنة ثمان من الهجرة . وضرب سورهم بالمنجنيق وسير اليهم الدبابات فألقوا عليها سلك الحديد محمّاة بالنار فقتلوا بعض من بها لانها كانت تصنع من جلود الابل والبقر ويدخلون جوفها فثقيهم من السهام والحجارة ، كما رأيت في

هامش على كتاب تحفة الطائف لجار الله المكي (١)

ولما لم يسلموا أذن رسول الله (ص) للجيش بالرحيل وعاد به الى أن بلغ الجعرانة (وهي قرب مكة) فقسم بها غنائم حنين وكانت الغنائم قد أرصدت بها . ولما كان العام الثاني قدم على رسول الله (ص) وفد من ثقيف الى المدينة فأسلموا ، وفشا الاسلام في ثقيف . وكانوا بعد وفاة النبي عليه السلام من أثبت الثابتين على الاسلام حتى كانوا يقتلون من يتردد منهم !

خروج الترك :

« ثورة الحجاز ، مهاجمة الطائف ، الاستيلاء عليه ، عرب البادية في حروبهم » لما اشتدت وطأة الترك على العرب وقام الشريف حسين بن علي بنهضته ، موالياً للحلفاء ، ومعهاداً لهم ، على ماسأجله في مايلى من هذا الكتاب عهد الى ثاني ابناءه الشريف عبد الله بمهاجمة الطائف وإجلاء الترك عنها ، فقصدها عبد الله يوم الخميس ٧ شعبان ١٣٣٤ هـ وتم له فتحها يوم ٢٦ ذي القعدة من السنة نفسها بعد أن قاومت ثلاثة اشهر وستة عشر يوماً . وآب الى مكة فذبح في جريدة « القبلة » (٢) حديثاً مع مديرها . هذه خلاصته :

قال الامير عبد الله : قصدت الطائف في ٧٠ هجائاً عقيلياً ، فوصلتها يوم ٩ شعبان ١٣٣٤ وعلمت ان الترك قد شعروا بحدوث أمر في الحجاز فاستطعت أن احوو هذا الحس من نفوسهم بعد أن اجتمعت بغالب باشا (٣) في داره وابديت له سروري وشكري من حسن سلوكه معنا . . وتوجهت من داره الى معسكري في

(١) جار الله هو : محمد عبد العزيز بن عمر العلوي الهاشمي المكي . من علماء القرن العاشر . زار الطائف مع أبيه سنة ٩١٥ هـ والى كتابه هذا « تحفة الطائف في فضائل ابن عباس ووج والطائف » وهو يقع في مئة صفحة قسمه الى أربعة أجزاء صغار رأيت منه نسخة مخطوطة في مكة وعلى ظاهرها : « هذا التاريخ غير المذكور في الكشف » يريد كشف الظنون

(٢) الجريدة الرسمية لحكومة الحجاز تصدر بمكة مرتين في الاسبوع .

(٣) والى ولاية الحجاز وقائد جيشها التركي يومئذ ، كان مصطافاً في الطائف .

« الوجريات » بجهة « القديرة » من قرى الطائف . وهناك اجتمع لي جمع قسمته الى ثلاثة اقسام أعظمها قسم قبائل « عتيبة » في الشمال الغربي للطائف ويدخل فيه الشرق كله ، والقسم الثاني وهو الجنوبي مؤلف من قبائل عوف وثمالة وبني سفيان وهذيل ، والثالث وهو الغربي مؤلف من قبائل قريش وطويرق والغمور . فقطعنا الأسلاك البرقية وهاجمنا الطائف صباح الاثنين ١١ شعبان ثم حاصرناها فخرجت قوة الترك الى جبال « أم الشيع » و « المداهين » و « شرقرق » في شمال الطائف ، وهضبة « أم السكرى » في الجهة الغربية . وبعد خمسة أيام وصلت اليها أسلحة جديدة من البنادق وخرجت قوة من الترك فاستولت على هضبة « الشهداء » شرقي الطائف وهضبة « دقاق الاوز » فوجهت اليهم ثلة من الخيالة بقيادة الشيخ فاجر بن شليوبح الروقي فأخّر جناهم بعد أن قتلتنا منهم ٤٨ جندياً ، وأمرت قسماً من هذيل الطلحات وآل حجة من بني سفيان فاغاروا على هضبة « أم السكرى » وقتلوا حاميتها وضبطوها ، فانسحب الترك من جبال « أم الشيع » و « المداهين » و « شرقرق » الى هضاب « الشريف » وجبال « ابي صحفة » و « معشي » و « عكابة » وفي العشر الثاني من رمضان وصل اليها ستة مدافع وست رشاشات ثم جاءنا في العشر الثالث من شوال المدفع الضخم من طراز « هاويزر » ويوم ٢٢ ذي القعدة اضطر القائد التركي للالتجاء الى بيت عربي في الطائف فاصلينا هذا البيت ناراً حامية فاضطر للمسلم وامضى بقبول الشروط في قرية « المليساء » على ان يخرج هو ومن معه من الضباط - وكانوا نحو خمسين ضابطاً - الى شجرة في ظاهر البلد ، ثم تذهب احدى القوى العربية الى السكنة الكبرى في الطائف فينسحب جنود الترك من مواقعهم العسكرية ويدخلون السكنة فيشبكون بنادقهم في أحد جوانبها ويجلسون في غرفها . وتم ذلك كله في اليوم التالي فكان دخولنا الطائف يوم ٢٦ ذي القعدة سنة ١٣٣٩ هـ وقد حافظنا على عائلات الاسرى وبعثنا اليها بالمؤن الكافية ولم نجرد الضباط من سيوفهم ولم نأخذ منهم مسدساتهم وجيهم الى مكة ثم الى جدة حيث سيقوا الى معقل الاسرى وكانت قوة الترك في الطائف ثلاثة آلاف مقاتل جرح منهم ٣٠٠ وقُتل منهم ٧٠٠ .

ثم تنكلم عن طرائق أهل البادية في حروبهم فقال : نشأ العرب في وسط السلاح ، ومهروا في أساليب الحرب وهم لا يحاربون الا متفرقين لشلا يؤذيهم رصاص البنادق وشظايا القنابل ، ومن أبهج أحوالهم أنهم في أثناء نشوب المعارك يتفرغ بعضهم للقتال ويشغل بعضهم بتهيئة الطعام ويجلس بعضهم لشرب القهوة ويتسلى بعضهم بألعابهم وأغانيمهم ، حتى كأن هؤلاء الجماعات لا يدرون شيئاً من أمر المعارك الناشئة في جانبهم ، وبعد قليل يذهب المستريحون بسلاحهم الى ساحة القتال ويعود المحاربون الى المعسكر للاستراحة كأنهم لم يكونوا في حرب

ولهم في أثناء القتال مهارة عجيبة في الاختفاء وراء الحجارة الصغيرة ، والانبطاح على الارض ، والتقلب من مكان الى مكان دون أن يرى الاعداء أشخاصهم . ولهم في كل هذه الاحوال رشاقة وخفة يدي في إطلاق الرصاص ، ولا تسكد رمية أحدهم تخطي ، غرض صاحبها . والعربي وقت الحرب قائد نفسه ، له الحرية في اختيار المكان الذي يرى السلامة فيه ، من حيث ينال مأربه من عدوه . ولا يتقيد الا بالخطط العامة التي يعطاها . وكان الاعداء لا يستطيعون التفريق بين أحجار الاودية وأجسام العربان ، بل ربما كان يخيل لهم أن الرصاص يأتيهم من الصخور والاحجار لا من بنادق الرجال

وأكثر ما يحارب العرب وقت الظهيرة . واذا أرادوا الهجوم اختاروا له منتصف الليل ورجحوا وقت احتجاب القمر . ولهم حروب سهلة وحروب جبلية فالحروب السهلية يمتطون فيها الخيل والهجن لسرعة الانتقال ، وأكثر عربنا مهارة في ذلك قبائل عتيبة . وأما المأهرون في حرب الجبال فهم ثقيف وقريش وبنو سفيان والنمور وطويرق وهذيل وأشباههم من عرب الحجاز.



آثار الطائف

« مناجده ، المقابر والآنصاب ، الخطوط القديمة في جباله ، الأضنام »

الطائف قاييل الآثار القديمة لكثرة ما طرأ عليه من نوازل الحروب والسيول وإني لذا كرم رأيته تاركاً الزيادة عليه لمن يتوسع في بحثه عنه ويكون له من الوقت والوسائط والمعرفة بأنواع الخطوط القديمة كالكوفية والمسماوية والمسند ما يكفي لتتبع كل أثر قديم فيه . أما الشاحص اليوم من آثاره فينحصر في ثلاثة مواضع : المساجد ، المقابر ، والجبال . وإليك مجمل ما عثرت عليه فيها :

الاول — المساجد القديمة البناء : وهي في شكلها وحجارتها وهندسة بنائها جديرة في أن تؤخذ رسومها إلا أنني لم يكن معي ما أصورها به كما أنه ليس في الطائف رسام ماهر أعتمد عليه في هذا الشأن . فمنها :

١ — المسجد العباسي : وهو مسجد الخبر ابن عباس وله الشأن الأكبر في مساجد الطائف ومزاراته وقد دفن فيه جماعة (يأتي الكلام على بعضهم في ذكر أشهر المدفونين في الطائف) وهو متسع مستطيل ينسب إلى ابن عباس لأنه مدفون فيه . وقد كان وما زال موضع عناية زائريه ، كلما تخرب منه جانب عمر . قال العجمي : ومن جملة من كانت لهم يد في عمارته الملك المظفر يوسف بن عمر بن علي ابن رسول ، صاحب اليمن سنة ٦٧٥ هـ والمستضيء بأمر الله العباسي سنة ٥٩٢ هـ وأمير الحاج المصري رضوان بك سنة ١٠٤٧ هـ والشريف زيد بن محسن بن الحسن بن الحسين بن أبي نجي سلطان مكة (كذا) جدد عمارته سنة ١٠٦١ هـ قال : وقد زادت القبور في المسجد العباسي وكثرت حتى امتلأ نصف صحنه بها ولولا نهي الشريف زيد بن محسن عن الدفن فيه لتواصل وصار جميعه مقبرة . وكانت صلاة الجمعة تقام في مسجد الجمعة في « السلامة » حتى اتفق في أيام هذا الشريف أن كثر القادمون على الطائف فأمر بإقامة الصلاة في المسجد العباسي وذلك في ٣ جمادى الأولى سنة ١٠٥٤ ثم قال : وكانوا لا يقيمون الجمعة فيه لاعتباره مقبرة لا لمسجداً .

وجاء في كتاب أشراف مكة وأمرائها^(١) ان والي الشام محمد باشا العظيم عهد الى الشيخ محمد العنتبلي سنة ١١٩٣ هـ بان يزيد في مسجد الخبر ، فزاد فيه ٣٢ ذراعاً طولاً ومثلها عرضاً . وكان ذلك في أيام امارة الشريف سرور بن الشريف مساعد بن الشريف سعيد فلما اطلع على هذه الزيادة جدد في المسجد عقدين في العام نفسه . قال صاحب هذا الكتاب : وفي ٢٨ رجب سنة ١١٩٣ توجه الشريف سرور بأهله الى الطائف من مكة ونزل في قرية السلامة . وفي نصف شعبان أخرج له الهلال القديم الذي كان على قبة الخبر منذ بنيت هذه القبة على يد المستنجد بالله يوسف العباسي سنة ٥٥٥ هـ وكان الهلال صفراً مموهاً بالذهب ، فوضع الشريف سرور بدلاً منه هلالاً أبدع في صنعه ، زنته ٦٠٠ أوقية من الفضة النقية ثم سوّده الندى فامر بتمويهه بالذهب ، وبعد زمن غير طويل أخرجه ووضع آخر اكبر منه يقارب وزنه قنطاراً وموّه بالانضار سنة ١١٩٦ هـ

٢ — مسجد عدّاس في المثناة : ينسب لعداس أول من آمن في الطائف وقد مرّ ذكره في فصل ففتح الطائف . وهو مدفون في هذا المسجد . وفي تاريخ الميورقي أن هذا المسجد أقيم في المسكان الذي اوى اليه النبي (ص) وأسلم به عدّاس ودفن فيه . قال : ووقف له احد أهل الخير بستاناً لخدمته .

وفي اللطائف للحضراوي^(٢) ما يؤخذ منه ان هذا المسجد كان يعرف قبل زمنه باسم « مسجد السنوسي » وعرف في أيامه باسم « مسجد الريم » قال : وهو

(١) مخطوط ، فيه تراجم جماعة من اشراف مكة وامرائها ابتداء من سنة ١١٦٥ هـ الى سنة ١٢٢٠ هـ وهو مرتب على السنين ، بارد السجع ، ضعيف الانشاء ، وفي آخره اخبار كثيرة عن حرب الوهابية وكانت في أيامه كما يظهر من كلامه . رأيت منه نسخة في دار الكتب العامة بمكة ، في نيف و ٢٥٠ صفحة ناقصة الاول والاخر والوسط ، وليس فيها ما يعرف منه اسم المؤلف .

(٢) الحضراوي : هو الشيخ احمد بن محمد بن احمد الحضراوي من علماء مكة المكرمة توفي بعد سنة ١٢٣٠ هـ بقليل . واسم كتابه « اللطائف في تاريخ الطائف » جمعه من عدة تواريخ ، وهو في خمسة كراريس رأيت منه نسخة مخطوطة بمكة ناقصة قليلاً من آخرها .

مشرف على السلامة . اما اليوم فما زال الكثيرون يعرفونه بمسجد الربيع وادباء الطائف محافظون على تسميته باسمه القديم « مسجد عدّاس » . وهو من قديم الآثار والمزارات .

٣ - مسجد بنسب للنبي صلى الله عليه وسلم : اول من بناه عمرو بن امية بن وهب بن معتب بن مالك لما أسلمت ثقيف . ثم خرب فجددت عمارته زبيدة بنت جعفر العباسية . قال الفاسي في شفاء الغرام : وجدت بخارج الجدار القبلي من المسجد العباسي حجراً مكتوباً فيه : « امرت السيدة ام جعفر زبيدة بنت جعفر أم ولاية عهد المسلمين بعمارة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطائف وذلك في سنة اثنتين وتسعين ومائة ١٩٢ هـ » وقال الحضراوي : المسجد المنسوب للنبي (ص) هو الآن (اي بعد سنة ١٣٠٠ هـ) تحويطة صغيرة طولها يزيد عن ذراع ملاصقة للجدار القبلي من القبة الاخيرة الواقعة في آخر المسجد العباسي على يمين الداخل من بابه الشرقي . ١ - ولا يزال الى يومنا على هذه الصفة .
هذه اشهر المساجد القديمة في الطائف .

..

الثاني - المقابر والانصاب : وهنا يجد المنتقب كثيراً من الخطوط القديمة منها الكوفي والنسخي وما بينهما . وجلها يرجع عهد كتابته الى القرن الخامس والرابع للهجرة وفيها ما هو قبل ذلك يدل عليه أنه مهمل من النقط وتقرأ في ظاهره صورة من مرور الاعصار والازمان . وأكثر هذا النوع بل كل ما رأيته منه عار عن تاريخ كتابته الا ما جاء فيه من اسماء الرجال المدفونين في تلك المقابر فان فيهم القديم والحديث ولم أر بين هذه القبور ما يرتدّ زمنه الى أوائل العصر الاسلامي لانهم في ذلك العصر لم يكونوا يعنون بنقش الانصاب (وهي المعروفة الآن بالشواهد - جمع شاهدة) بل كانوا يدفنون الميت ويهيلون عليه التراب ويكتفون بوضع حجر عليه ، إشارة الى انه موضع دفنه ليزوره أهله وأقرباؤه . أما الاهتمام بشأن المنافن والحدود فقد حدث بعد الجيل الاول من أجيال الاسلام كما يظهر لمن تتبع آثار الرمم البوالي والعصور الخوالي

ولم تكن العرب في القرون الثلاثة : من أواخر القرن الاول الى أواخر القرن الرابع للهجرة تعنى بكتابة شيء على قبورها غير آيات من القرآن الكريم ، وتابعها على ذلك ابناء المئات الخامسة والسادسة والسابعة والثامنة فجعل أكثرهم يكتب الآية ويتبعها باسم المدفون وفيهم من يكتب نسبه وشأنه وتاريخ وفاته إن كان من ذوي الانساب أو الزعامة والشأن . وفي ابناء هذه المئات من يضيف الى الآية والنسب والتاريخ أبحاثاً من الشعر الجيد يصح التمثل بها في باب الزهد بالحياة والحسين الى لقاء وجه الله

فمن نوع ما كان يكتب بعد القرن الاول نصب رأيناه خارج سور الطائف في المقبرة العامة استدللنا من خطه واكتفاء ناقشيه بالآية على أنه مما كتب بين المئة الثانية والثالثة

وأما ما كان يكتب بعد الرابعة فرأينا كثيراً منه . أحده : نصب في هذه المقبرة أيضاً نقشت عليه آية الكرسي وفي ادناه « هذا قبر يوسف بن الحكيم رحمه الله » وليس عليه تاريخ ولكن الخط جميل واضح على القاعدة الكوفية . وثانيه : نصب لم يكتب عليه شيء من آي القرآن الكريم بل اكتفي فيه بذكر الاسم والنسب والتاريخ وهو : « هذا قبر يحيى بن شجاع بن يوسف بن عبد الله ابن علي بن (غير واضحة لعلها الكبير) توفي سنة تسع عشرة وخمسمائة »

وفي مكة كثير من هذا النوع أجمله وأوضحه نصب رأيت محفوظاً في دار الحكم (قصر الملك) طوله شبران وعرضه شبر واحد كتب في أعلاه « بسم الله الرحمن الرحيم : قل يا عبادي الذين أسرفوا - الآية » وتحتها « هذا قبر الامير مفرج بن الحسين بن يحيى بن فليته بن القاسم - الى - ابن موسى الجون - الى - ابن الحسين بن علي . توفي يوم الجمعة الرابع من ربيع الآخر سنة ست وثمانين وخمسمائة » وعلى أطراف الآية والنسب آيات يقرأ منها :

هي الحياة اذا سرت أوائلها ففي عواقبها التفريق والشك
اذا الزمان بصرف الدهر مديداً فمن له بتصاريف الزمان يد
والموت يخترم الاحياء عن أمم غصبا فلا دية فيها ولا قود
(٨ - ما رأيت وما سمعت)

وبعد هذه الايات بيتان أحدهما محو والآخر :
رحلت وكنت ما أعددت زادا وما قصرت في زاد المقيم
وعلى جانب النصب من أعلاه هذان البيتان :
ترحم بفضلك يا واقفاً وأبصر مكاناً دفعت اليه
تراب الضريح على صفحتي كافي لم أمش يوماً عليه !
وفي أسفله : « عمل عبد الرحمن بن أبي حرمي عفى الله عنه »
ومن أراد مثل هذا في قبور الطائف ومكة وجد كثيراً من أشباهه تختلف
خطوطها بين الوضوح والغموض والجودة والرداءة ، أكتفي منها بما قدمته .

..

الثالث — جبال الطائف : وهنا ما تضيق الصفحات عن استيعابه فان فيها
ما هو مليء بالكتابات القديمة والمتأخرة والحديثة . منها بالعربية ومنها بحروف
أظنها المسماة ومنها برسوم كلها كتابة واهل فيها ما كتب قبل الاسلام
من ذلك صخرة كبيرة مرتفعة تستقبل القادم عليها من الطائف وهي على
مسيرة ثلاثة كيلومترات من باب الخبر في الطائف ، صعدنا اليها فاذا كتابات
ونقوش وفيرة قرأنا بعد الجهد من كتاباتها : « ان الله وملكه يصلون على النبي
يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً — وفي آخرها — محمد بن مهند »
وأظنها من آثار القرن الثالث أو الرابع . وهناك كتابات أحدث منها لم تعرض لها
أما القديم فيها فهو صور حيوانات متناسقة أو شكت نقوشها ان نزول ويغلب على
الظن انها مما نقش أيام عبادة التماثيل والهيكل والصور والأصنام . منها صور
لا نعرف لها حقيقة غير أنها أقرب الى صورة الغيل لولا ان شكل الخرطوم كنصف
دائرة في رأسه منحنية الى الداخل من طرفيها . يجاورها غزال ووعل وفرس
وربما تكررت هذه الصور

ومن الكتابات الكثيرة في هذه الصخرة وما حولها من الصخور الكبيرة
الضخمة ما هو في سطرين أو عدة سطور ، وبعضها في دائرة ، وكثير منها لم نستطع
قراءته ، وأما الواضح أو الأقرب الى الوضوح ، فمن كتابة القرن الخامس أو السادس

لمشابهته خطوط الانصاب السابق ذكرها المكتوبة في ذينك العمرين

وقبل هذه الصخور جبل يسمونه « ام السكارى » يزعمون ان سبب تسميته اتخاذ العرب اياه في الجاهلية موضعاً لاحتساء الشراب ويؤيدون هذا بكثرة ما حوله من الكروم في وادي المثناة والسلامة ولم اجد له ذكراً في المعاجم العربية القديمة . اخبرني قاضي الطائف بان عليه أسطراً تاريخها سنة ١٨٨ هـ فصعدته وهو على الجانب الغربي من المثناة فرأيت كتابات كثيرة ولم أر التاريخ الذي ذكره لي ولكنه يؤكد انه رآه . وعلى احدى صخور هذا الجبل رأيت كتابة تقرب حروفها من اللاتينية فنقلتها ولم أهتد الى من يترجمها لي

وهناك جبل آخر يبعد عن الطائف مسيرة ساعة الى جهة الغرب الجنوبي منه يسمونه « الردف » ويعلمون هذه التسمية بترادف حجارتة وصخوره بعضاً فوق بعض ، والكثيرون يسمونه « السداد » باسم القرية التي هو فيها وسميت بذلك لانه كان فيها ثلاثة سدود لمنع السيول خرب اثنان منها وبقي الثالث متداعياً . وفي هذا الجبل ما هو أكثر فائدة مما تقدم فقد رأيت فيه خطوطاً متعددة أكثرها غير مقروء يلوح لي أنها من كتابة القرن الثاني أو بعده بقليل . وفيها ما هو قبل ذلك

ويظهر ان عبد الله بن علي بن أبي محجن التقفي كان كثير الولوع بالنقش في هذا الجبل فقد رأيت له فيه أثرين غريبين ، أحدهما هذا نصه :

« عبد الله بن علي بن أبي محجن يسأل الله بوجهه الكريم الجنة »

ونص الثاني :

« عبد الله بن علي بن أبي محجن يسأل الله القتل في سبيله على بر كته » . .
ومما قرأته في صخور هذا الجبل :

« عبد الرحمن بن سعيد بن عبد الرحمن يشهد أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً »

وهذه الخطوط الثلاثة يظهر أنها من أواخر القرن الاول للهجرة أو أوائل الثاني

هذا ما رأيت إثباته مما اطلعت عليه من آثار الطائف القديمة وهناك أقوال في آثار آخر لم تصح عند الباحثين كصخرة خارج سور الطائف الى الجهة الغربية منه ، فيها حفر على نسق واحد يقال أنها مواطيء أقدام الغزاة أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس بثابت كما حققه الحافظ ابن الاثير ، وكخرق يسير في جانب صخرة بعد قصر « شبرة » لازاهب من الطائف شرقاً يقولون ان النبي (ص) أو علياً (رض) خرقها بأصبعه ليضع فيها زمام راحلته . . . وهذا غير صحيح أيضاً . وانما ننفي صحة هذين الاثرين - خلافاً للشائع - لانهما بعيدان عن المعقول وغير ثابتين في المنقول . وفي كل بلد من امثالها ما يرده البحث فلا نتعرض للاطالة في وصفها .

الاصنام :

وقد يلحق يبحث الآثار الكلام على اصنام العرب في الجاهلية وان كنت لم اثر لها على أثر ، غير ما نقل لي وانا في الطائف عن هيكلي « العزى » من أنه كان محفوظاً هنالك حتى كانت وقعة الوهاية ومحمد على باشا فعثر الوهايون عليه فكسروا رأسه ومددوه في الطريق على باب المسجد العباسي الى أن زال منذ عهد قريب . وروي لي أن في طريق السيل (بين مكة والطائف) أثراً شاخصاً يراه المار به عن بعد في صورة انسان ، منتوشاً على صخرة ، وحين يقترب منه لا يشهد غير أثر مخطيط ونقوش هي أقرب الى الغموض

وقد كانت قبائل ثقيف قبل الاسلام تعبد صنمين احدهما اللات والثاني العزى كما كان لكل قبيلة في العرب صنم يعبد جهلاًؤها ، ويتقرب فيه الى الله عتلاًؤها ، واتماماً للفائدة أذكر أشهر هذه الاصنام بايجاز ما استطعت :

(١) اللات : قال علماء التاريخ : هو صخرة بيضاء مربعة كان يجلس عليها رجل يبيع السمن واللبن للحجاج في زمن الجاهلية الاولى . ثم اعتقدت ثقيف أن إلهها دخل في تلك الصخرة ، فبنوا عليها بنياناً وعبدوها ، وجعلوا لها سدة ، وطاقوا حولها ، وضاهوا بها الكعبة ، وجعلوا لها كسوة ، وحرموا الصيد في واديه . فلما أسلمت ثقيف بعث رسول الله (ص) المغيرة بن شعبه فهدمها وأحرقها .

بالنار وقال يا قوت : هي اليوم (اي في عصره) تحت مسجد الطائف . فلمل ذلك ما بقي من الصخرة بعد احراق البناء الذي فوقها وهدمه . وقيل ان أصل اسمها « اللاه » فأبدلوا الهاء بالتاء قبل الاسلام

(٢) العزى : تأنيث الأعز . يظهر من كلامهم انها كانت على شكل امرأة ، نافشة شعرها ، واضعة يديها على عاتقها ، تصرف بانبيائها . وكانت في واد من نخلة الشامية (على ليلتين من مكة) الى يمين المصعد الى العراق . اتخذها رجل يسمى ظالم بن أسعد فبنى عليها بيتاً ، وهي أحدث من الالة ومناة ، وكانت أعظم الاصنام عند قريش ، يزورونها ويهدون لها ويتقربون عندها بالذبائح . ويقال ان النبي (ص) ذكرها يوماً فقال : لقد اهدت للعزى شاة عفراء وأنا على دين قومي . وكانت قريش تخصها بالاعظام وقد حمت لها شعباً من وادي حراض يقال له سقام يضاهون به حرم الكعبة . وكان سدنة العزى بنو شيان بن جابر . وكان من الناصبين في عبادتها ابو احيحة سعيد بن العاصي بن أمية - وكان عزيزا في قريش يعتم بمكة فلا يجسر أحد أن يعم بلون عمامته - ولما قوي ساعد الاسلام بعث رسول الله (ص) خالد بن الوليد الى العزى فكسر رأسها وقتل سادنها دبية بن حرمي السلمي

(٣) مناة : صنم كان يثرب (المدينة المنورة) يقال إنه أقدم أصنام العرب . وكان أشد الناس تعلقاً به الاوس والخزرج ومن يخذو حذوهم من عرب يثرب وما جاورها ، فكانوا يحجون (الى الكعبة) ويقفون مع الناس المواقف كلها ولا يخلقون رؤوسهم ، فاذا نفروا أتوا مناة وخلقوا رؤوسهم عنده وأقاموا ، لا يرون لحجهم تماماً إلا بذلك . وكانت قريش وجميع العرب تعظم مناة حتى خرج النبي (ص) سنة ثمان للهجرة (وهو عام الفتح) فبعث ابا سفيان بن حرب فهدم مناة وأخذ ما كان لها ، ووجد عندها سيفين كان الحارث بن أبي شمر الغساني أهداهما اليها ، احدهما يسمى مخدماً والثاني رسوباً ، وهما من أسياف العرب المشهورة . ولم أجد وصفاً لمناة

(٤) هبل : قيل انه كان من عقيق احمر ، على صورة الانسان ، مكسور

اليد اليمنى أدركته قریش كذلك فجعلت له يداً من ذهب ووضعت في جوف الكعبة . أول من نصبه خزيمه بن مدركة ، وقد يسمونه « هبل خزيمه » . وكانت لقریش أصنام في جوف الكعبة وحولها أعظمها عندهم هبل . وعبدته بنو كنانة — وكانت تعبد ما تعبده قریش — وقد كسر مع أصنام الكعبة يوم فتح مكة .

(٥) ود : تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال ، نقش عليه حلطان متزرجمة ومرتد بأخرى ، عليه سيف ، قد تنكب قوساً ، وبين يديه حربة فيها لواء ، وجعبة فيها نبل . كان لبني وبرة في دومة الجندل (المعروفة الآن باسم الجوف على شرق سورية الى الجنوب) . وكانت سدنته لبني القرافصة بن الاحوص السكابين . هدمه خالد بن الوليد

(٦) سواع : صنم كان لهذيل في ينبع . سدنته بنو لحيان
(٧) يغوث : صنم قديم ، كان للمذحج على أكمة في اليمن تعرف بأكمة مذحج
ثم نقل الى نجران

(٨) يعوق : صنم قديم أيضاً كان لهمدان في اليمن قيل في قرية تدعى خيوان من صنعاء على لياتين مما يلي مكة . قال ياقوت : ولم أسمع لهمدان ولا غيرها شعراً فيه وأظن ذلك لانهم قربوا من صنعاء واختلطوا بحمير فدانوا معهم باليهودية أيام تهود ذي نواس فتهودوا معه

(٩) نسر : من الاصنام القديمة . كان في موضع من أرض سبأ في اليمن فعبدته حمير ومن والاها ولم تزل تعبد حتى تهودت مع ذي نواس .

(١٠) إساف : من قديم الاصنام كان بمكة على الصفا وكسره الصحابة يوم الفتح

(١١) نائلة : صنم قديم أيضاً كان منصوباً على المروة بمكة وهو في شكل امرأة وكان اهل الجاهلية اذا سحوا مسحوا به . كسر يوم الفتح

(١٢) ذو الخلصة : صنم مشهور اختلف المؤرخون في مكانه وهيأته . ومن أقوالهم — ولعله الاقرب الى الصحة — انه مروة بيضاء منقوشة ، عليها كهيئة التاج

كانت بقبالة بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليال من مكة^١. وكان سدنتها بني أمية من باهلة . وكانت خثعم وبجيلة وأزد السراة تعظمها وتهدي لها . هدمها جرير بن عبد الله واضرم في بنيانها النار بعد أن أسلم

اعلام الطائف

« شهداء وقعته ، بعض المعروفة قبورهم فيه ، رجال ثقيف ، نساء ثقيف »

تهاون المؤرخين المتقدمين في الكلام على الطائف أضاع على ابن هذا العصر تراجم كثير من ابنائه في الجاهلية والاسلام وما بعده الى يومنا . ولما كانت القاعدة المعمول بها أن ما لم يكن كاه فليكن جله او أقله ، رأيت أن اسمي هنا اشهر من ولعوا في ديار الطائف او دفنوا فيه ممن توصلت الى معرفتهم بالنقل أو بالأثر

شهداء وقعته :

يحسن بي ان ابدأ هذا الفصل بالكلام على من ثبت استشهادهم في الطائف من الصحابة رضوان الله عليهم في غزوة النبي (ص) لثقيف عام ثمانية للهجرة . وهم اثنا عشر رجلاً وبعض المؤرخين يضيف اليهم عبدالله بن ابي بكر الصديق لانه جرح في غزوة الطائف وتوفي في المدينة متأثراً من جرحه فيكونون ثلاثة عشر : سبعة من قریش ، واربعة من الانصار ، وواحد من بني الليث ، وآخر من ثقيف .

١ — عبد الله بن ابي بكر الصديق : لم يمت في الطائف وانما جرح في غزوته ، واندمل جرحه مدة حتى اذا كان في المدينة انتكت الجرح فتوفي بها .

٢ — سعيد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس القرشي الاموي : امه صفية بنت المغيرة عمه خالد بن الوليد . أسلم قبل فتح مكة بيسير وقتل شهيداً يوم الطائف .

٣ — عرفة بن عبدالله بن أمية : احد ثلاثة كانوا يعرفون بزاد الراكب لان من سافر معهم كان زاده عليهم . توفي شهيداً في هذه الواقعة على الارجح .

٤ — السائب بن الحارث بن قيس النرشي : احد المهاجرين الى الحبشة قتل في هذه الواقعة .

- ٥ — عبدالله بن الحارث بن قيس : من المهاجرين الى المدينة ايضاً . قتل في الواقعة نفسها وهو اخو السائب وبها انقرضت ذرية ابيها الحارث .
- ٦ — طلحة بن عبدالله بن ربيعة : قتل في وقعة الطائف بسهم من أحد أهليها .
- ٧ — ثابت بن الجزع ، ويسمى ثعلبة ، الانصاري الخزرجي السلمي : شهد العقبة وبردأ وقاتل بالطائف شهيداً
- ٨ — الحارث بن سهيل بن أبي صعصعة الانصاري ، قتل في هذه الواقعة
- ٩ — المنذر بن عبد الله الانصاري من الخزرج : من شهدائها
- ١٠ — رقيم الانصاري : من شهدائها
- ١١ — رجل من بني الليث لم يذكر واسمه : من شهدائها
- ١٢ — عروة بن مسعود الثقفي : من شهدائها
- ١٣ — عبد الله بن عامر بن ربيعة : من شهدائها .
- وفي تراجمهم والمواقع التي توفوا بها خلاف لاحاجة بي اليه .
- بعض المعروفة قبورهم فيه :

(١) ابن عباس : أشهر من دفن في الطائف ذكراً . صاحب المسجد العباسي فيه ، الصحابي ، ابن عم صاحب الرسالة (ص) : عبد الله بن عباس بن عبد المطلب . جد الخلفاء العباسيين . قال صاحب دستور الاعلام : ابن عباس الهاشمي الفقيه المفسر ترجمان القرآن ورباني هذه الامة ، ولد قبل الهجرة بثلاث سنين . وقال غيره : ابن عباس أحد الستة المكثرين من حفظ الحديث عن رسول الله الراوين الألوف ، وهم : ابو هريرة ، وابن عمر ، وجابر ، وابن عباس ، وأنس ، وعائشة . وكان سعد بن أبي وقاص يقول : ما رأيت أحداً أحضر فها ولا ألب أباً ولا أكثر علماً ولا أوسع حلماً من ابن عباس . وكان علي يقول في ابن عباس : إنه لينظر الى الغيب من ستر رقيق !

وكان ابيض وسماً جسيماً مشرباً بصفرة طويلاً صبيح الوجه له وفرة يخضب بالحناء ويلبس الخز ويعتم بعمامة سوداء . يرخيها شهراً . توفي سنة ٦٨ هـ وقد كف بصره .

(٢) عبد الله بن عون : أحد أمراء مكة وأشرفها من ذوي عون . الشريف عبد الله باشا بن محمد بن عبدالمعين بن عون . وبقية النسب معروفة . قال زيني دحلان في الجداول المرضية : ولي إمارة مكة بعد وفاة أبيه سنة ١٢٧٤ هـ وكان في الآستانة برتبة الوزارة فوصل مكة سنة ١٢٧٥ هـ واستمر الى ان توفي سنة ١٢٩٤ هـ وهو بالطائف في بستانه المسمى بشجرة وعمره سبع وخمسون سنة ومدة ولايته عشرون سنة إلا ثلاثة أشهر ، ونقل الى قبة ابن عباس فدفن فيها .

(٣) الشريف جعفر : من أمراء مكة أيضاً ، وهو الشريف جعفر بن سعيد بن سعد بن زيد بن محسن . ولي الإمارة سنة ١١٧٢ هـ ثم تنازل عنها بعد شهر الى أخيه مساعد وتوجه الى الطائف فمكث به الى ان توفي سنة ١١٧٨ هـ

(٤) ابن الحنفية : ابو القاسم محمد بن علي بن ابي طالب . المعروف بابن الحنفية نسبة لأمه ، وتميزاً لسبطي رسول الله (ص) من فاطمة عنه . كان عالماً ورعاً ، شديد القوة ، له فيها أخبار عجيبة (انظر وفيات الاعيان) ولد سنة ٢١ وتوفي سنة ٨١ هـ والمؤرخون مختلفون في موضع وفاته ودفنه . وأهل الطائف لا يشكّون في انه بمقبرة ابن عباس . على ان في جملة الاقوال انه مات في الطائف .

(٥) الميورقي المؤرخ : ابو العباس الشيخ احمد الميورقي ، توفي سنة ٦٧٨ هـ سبقت لنا كلمة عنه . دفن في مقبرة ابن عباس . قال ابن عراق في نشر الطائف : وفي جبانة ابن عباس قبر الشيخ ابي العباس الميورقي ، وبقرها شجرة سدر تسمى الخلداء كانت قريش تعتمد الرأي تحتها (وقد زالت الآن)

(٦) عون الرقيق : الشريف عون الرقيق (باشا) ابن الشريف محمد بن عبدالمعين بن عون . ولي إمارة مكة في ٢٤ ذي القعدة سنة ١٢٩٩ هـ ووصل مكة يوم ١٠ ذي الحجة وظلّ متر بعا في دسيت الإمارة الى ان توفي في الطائف عام ١٣٢٣ هـ فدفن في مقبرة الخبر بن عباس .

..

وهناك آخرون من المعروفة قبورهم في الطائف ، أضربت عن ذكرهم إيجازاً .

رجال ثقيف :

(١) زياد : من أشهر المولودين في ديار الطائف زياد بن عبيد^(١) وهو المعروف بزياد بن أبيه لاختلاف المؤرخين في نسبته . كنيته ابو المغيرة ، وأمه سمية^(٢) ولد سنة الهجرة . وأسلم في عهد أبي بكر وكان كاتب أبي موسى الأشعري في امرته على البصرة . ولما توفي علي بن أبي طالب كان زياد عاملاً على فارس فتحصن في قلعة وعصى معاوية . فألحقه معاوية بنسبه وأثبت أنه أخوه من صلب أبي سفيان . وصالحه على ألفي ألف درهم (٢٠٠٠٠٠٠٠ درهم) فجمع له زياد إمرة العراق . قال ابن حزم في الفصل : امتنع زياد وهو قفعة القاع لا عشيرة له ولا نسب ولا سابقة ولا قدم فما أطاقه معاوية إلا بالمدارة وحتى أرضاه وولاه . وقال الذهبي : كان زياد لبيداً فاضلاً حازماً من دهاة العرب بحيث يضرب به المثل وقال الشعبي : ما رأيت أحداً اخصب نادياً ولا أكرم مجلساً ولا أشبه سريرة بعلاينة من زياد . وقال الاصمعي : أول من ضرب الدنانير والدراهم ونقش عليها اسم الله وحما عنها اسم الروم ونقوشهم زياد . وقال العتبي : ان زياداً أول من ابتدع ترك السلام على القادم بحضرة السلطان . وقال الشعبي : أول من جمع له العراق وخراسان وسجستان والبحران وعمان زياد . وهو أول من عرف العرفاء ورتب النقباء ومشى الأعوان بين يديه ووضع الكراسي وربع الأرباع بالكوفة والبصرة وخمس الاخماس

وقال الاصمعي : الدعاة أربعة : معاوية للروية ، وعمر بن العاص للبدية ، والمغيرة بن شعبة للمعضلة وزياد لكل كبيرة وصغيرة .
ولي العراق وحاول ضم الحجاز اليه فعاجله الموت سنة ٥٣ هـ ولم يخلف غير ألف دينار وقيصين وازارين ، لا دار له ولا عقار .

(٢) الحجاج : ومن مواليد ديار الطائف الحجاج الثقفي . قال الذهبي في تاريخه : هو الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود الثقفي (أمير العراق) ولد سنة ٤٠ للهجرة . وروى عن ابن عباس وسمرة بن جندب واسماء

(١) عبيد مولى للحارث بن كلدة الثقفي (٢) جارية الحارث بن كلدة

بنت أبي بكر الصديق وابن عمر . وكان له بدمشق امر . ولي اماراة الحجاز . ثم
ولي العراق عشرين سنة

قال أبو عمرو بن العلاء : ما رأيت أحدا أفصح من الحسن والحجاج والحسن
أفصحهما . وقال يزيد بن أسلم الثقفي : كان الحجاج على مكة فكتب اليه عبد
الملك بن مروان بولايته على العراق فخرج في ثمانية أو تسعة على النجائب . وقال
عبد بن شاذب : ما رؤي مثل الحجاج لمن أطاعه ولا مثله لمن عصاه . كان سفاكا
سفاحا للدماء . عاش خمسا وخمسين سنة وتوفي ليلة ٢٧ رمضان سنة ٩٥ هـ . قال
ابن خلكان : مات الحجاج بواسط وأجري الماء علي قبره فاخفى واندرس .
والشائع اليوم أن مولده في قرية بني صخر من قرى الهداة وقد مرت لنا كلمة في هذا
الشان . وخطبه معروفة أشهرها البتراء

(٣) ابن أبي العاص : أبو عبد الله عثمان بن أبي العاص بن بشر الثقفي أحد
الوافدين على رسول الله من ثقيف وكانوا بضعة عشر رجلا هو اصغرهم سنا
لا يتجاوز عمره اذ ذاك ٢٧ سنة . توسم فيه النبي (ص) الخير والنجابة فاستعمله
على الطائف فكان اول أمير عليه في الاسلام ولم يزل في عمله مدة حياة النبي وأقره
أبو بكر ولما انتهى الامر الى عمر أبقاه سنتين ثم نقله منه وولاه عمان والبحرين
سنة ١٥ هـ وفي أواخر أيامه رحل الى البصرة فمات بها سنة ٥١ وقيل ٥٥ هـ

(٤) الحكم بن أبي العاص : اخو عثمان السابق ذكره ، قيل كانت له محبة .
وولاه اخوه عثمان البحرين فافتتح فتوحا كثيرة . قال ابن سعد في الطبقات : ولما
كان اخوه على الطائف كتب اليه عمر : أقبل واستخلف اخاك الحكم . فاستخلفه
حتى عاد . ولما ولي عثمان عمان والبحرين في أيام عمر عهد الى اخيه الحكم بولاية
البحرين فأدار شؤونها . ولعله توفي بها .

(٥) عبد الله بن عمرو : بن غيلان الثقفي . ادرك الجاهلية ، واسلم قبل حجة
الوداع . ثم رحل من الطائف الى الشام فانصل بمعاوية فكان من كبار رجاله ،
وولاه البصرة بعد موت زياد فاقام عليها اميرا ستة اشهر .

(٦) عبد ياليل : بن عمرو بن عمير الثقفي . من عظماء ثقيف ووجوهها في

الجاهلية والاسلام . تقدم ذكره في فتح الطائف واسلام ثقيف ، ارسله قومه الى رسول الله (ص) بعد رحيله من حصار الطائف ، يفاوضه في اسلامهم وبيعهم فاستصحب معه وفداً منهم ، واتفق مع النبي (ص) فأسلم هو ومن معه وعاد الى ثقيف فأسلمت كلها .

(٧) جبير بن حية بن مسعود الثقفي ، ابن عم المغيرة بن شعبة ، وابن اخي عروة ابن مسعود . شهد الفتوح في عهد عمر ، وكان يسكن الطائف يعلم الصبيان فيه ، ثم قدم العراق فاستقر كاتباً في الديوان ثم ولاه زياد أصفهان وعظم شأنه . ومات في خلافة عبد الملك بن مروان .

(٨) الأخنس الثقفي : ابو ثعلبة أبي بن شريق . يلقب بالأخنس . من شجعان ثقيف كان حليف بني زهرة ، أسلم وشهد حنيناً . ومات في أول خلافة عمر

(٩) الأسود بن مسعود : من شعراء ثقيف ، وفد على النبي (ص) ومدحه بآيات .

(١٠) أسيد بن جارية : بن أسيد الثقفي . كان حليفاً لبني زهرة ، أسلم يوم فتح مكة وشهد حنيناً وأعطاه النبي (ص) مئة من الابل .

(١١) أمية بن أبي الصلت : الشاعر الجاهلي المشهور . من حكماء العرب وعقلائهم كان له نظر في الجاهلية بكتب الاديان ، وتزهد فلبس المسوح وتبعد على دين ابراهيم واسماعيل ، وحرّم على نفسه الخمر ، وتجنب عبادة الاوثان ، وادرك بدرأ ورثى قتلاها . وشعره كثير ، وهو من ثقيف مات ايام حصار الطائف وهو فيه ، عام تسع

(١٢) يوسف الثقفي : بن محمد بن يوسف . ابن اخي الحجاج . عدّه صاحب «الارج المسكي» ^(١) في جملة من ولوا امر مكة المكرمة غير الاشراف . وذكر انه واياها من قبل الوليد بن يزيد بن عبد الملك عام ١٢٥ هـ . وفي «اتحاف فضلاء الزمن» ^(٢) ما يؤكّد هذا وزاد عليه ان ولايته دامت الى انتضاء دولة الوليد سنة ١٢٦ هـ ولم يذكر تاريخ وفاته .

(١) الارج المسكي والتاريخ المسكي - للعالم الامام عبد القادر الطبري الشافعي المسكي ، كتاب في مجلد غير ضخم . منه نسخة مخطوطة بمكة . (٢) اتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن - للشيخ محمد بن علي بن فضل بن عبد الله بن محمد -

(١٣) خفاف بن فضالة بن عمرو بن بهدلة الثقفي . وفد على النبي (ص) فأسلم
وانشد قصيدة اورد ابن حجر في الاصابة بعض ابياتها

(١٤) العرجي : الشاعر المشهور ، عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان
القرشي الاموي . قيل له العرجي لانه كان يسكن قرية العرج في الطائف . وفي العقد
التمين ^(١) أن محمد بن هشام بن اسماعيل كان والياً على مكة لهشام بن عبد الملك
فسجن العرجي في تهمة دم مولى لعبد الله بن عمرو . فلم يزل في السجن الى أن مات
ولم يذكر تاريخ وفاته .

(١٥) السائب الثقفي : السائب بن الأقرع بن عوف بن جابر . روى الكلبي
عن ابن عباس أنه لم يكن في العرب أمرد ولا أشيب أشدّ عقلاً من السائب بن
الأقرع . دخلت به أمه على النبي (ص) وهو غلام فمسح رأسه ودعاه . ثم استعمله
عمر (رض) ووجهه الى نهاوند ، وشهد فتحها . وكان عاملاً لعمر على المدائن . ثم
ولي اصبهان ومات فيها .

(١٦) سفيان بن عبد الله : ابن ابي ربيعة الثقفي . أسلم مع الوفد . وكان
عاملاً لعمر على صدقات الطائف عام ٢٤ هـ وقيل انه كان أحد عمال النبي (ص)
في الطائف

(١٧) الحارث بن كلدة : طبيب العرب ، الحارث بن كلدة بن ابي علاج بن
ابي سلمة الثقفي . وفد على كسرى قبل الاسلام وقصته مشهورة . واختلفوا في
اسلامه . وكان في الطائف أيام حصاره ، والراجح انه مات قبل حجة الوداع لما

- ابن يحيى بن مكرم بن الحب محمد الطبري الحسيني المكي امام المقام الابراهيمي الملقب
بالجلال الاخير ، توفي سنة ١١٦٣ هـ ودفن بالمعل في شعبة النور . وكتابه هذا من
اجل ما رأيت في موضوعه ، اتى فيه على ذكر امراء مكة المكرمة وغيرهم من
ابناء الحسن (رض) وهو مجلد كبير رأيت منه نسخة بمكة خسنة الخط حديثه .

(١) العقد الثمينة في تاريخ البلد الامين للمؤرخ الامام الحافظ ابي الطيب محمد
تقي الدين بن احمد بن علي الحسني القاسي المكي المتوفى في منتصف القرن التاسع
للهجرة . كتابه عظيم الفائدة نحافل باخبار مكة وهو في عدة مجلدات كبار ، رأيت
نسخة منه بمكة واضحة الخط .

يذكرونه من انه لم يبق من ثقيف في حجة الوداع أحد إلا وقد أسلم ، وشهدها أكثرهم . وكان الحارث يعالج مرضى المسلمين اذا جيء بهم اليه . وفي ترجمته طول .

(١٨) المغيرة بن شعبه : ابن أبي عامر بن مسعود بن معتب الثقفي : الامير الداهية من كبار أمراء العرب في صدر الاسلام . اشتهر بجودة آرائه حتى قيل له مغيرة الرأي . اسلم قبل عمرة الحديبية وشهدها وشهد بيعة الرضوان ، وشهد اليمامة وفتوح الشام والعراق . وأصابت عينه في وقعة اليرموك ففقدتها . وولاه عمر البصرة ففتح ميسان وعدة بلاد غيرها . ويذكر انه أول من وضع ديوان البصرة وأول من سلم عليه بالامرة وكان من قبله عمالاً لا إمارة لهم . ثم نقله عمر الى الكوفة . وأقره عثمان ثم عزله . ولما قتل عثمان اعتزل المغيرة القتال الى ان حضر مع الحكمين فبايع معاوية بعد اتفاق الناس على بيعته . وولاه معاوية الكوفة فاستمر على إمرتها حتى مات سنة ٥٠ هـ

(١٩) الشريد بن سويد : الثقفي من سكان الطائف ، قيل كان اسمه مالكا والشريد لقبه . رحل الى مصر في الجاهلية مع المغيرة بن شعبه ثم كانت له صحبة وكان النبي (ص) يستنشد شعر أمية ابن أبي الصلت فيرويه . وشهد بيعة الرضوان .

(٢٠) طريح بن اسماعيل : ابن عقبة الثقفي : شاعر مجيد ضاع شعره . ادرك عصر النبوة فأسلم . ولما صارت الدولة الى بني أمية وآل الامراء الى الوليد بن يزيد في الشام وفد عليه وتوسل له بالخوالة لان أم الوليد ثقفية ، فأختصه الوليد نديماً فكان أكثر شعر طريح في مدح الوليد . وعاش الى خلافة المهدي بن المنصور العباسي فقصده وأراد الدخول عليه ليسمعه شعره فأبى المهدي . ومات في أيام الهادي .

(٢١) غيلان بن سلمة : ابن معتب بن مالك الثقفي . شاعر خطيب فصيح ذو شأن وفد على كسرى في خبر طويل . أسلم بعد فتح الطائف وأسلم أولاده وهم أربعة : عامر وعسار ونافع وبادية . مات في آخر خلافة عمر

(٢٢) عامر بن غيلان : ابن سلمة الثقفي . أسلم مع أبيه بعد فتح الطائف ورحل

الى الشام مع خالد بن الوليد . وكان عامر فارس ثقيف يومئذ . توفي بطاعون
عمواس سنة ١٨ هـ ورثاه ابوه غيلان

(٢٣) ابن أبي عتيل : عبد الله بن أبي عتيل الثقفي . كان شجاعا حازما . نزل
بالكوفة ، وهو أحد اربعة بعث بهم عمر سنة ٢١ هـ مادة (نجدة) للاحنف بن
قيس في مرو والشاهجان . ذكره الطبري في تاريخه .

(٢٤) عثمان بن ربيعة : من شجعان ثقيف بعثه عثمان بن ابي العاص حاكم
الطائف عند وفاة النبي (ص) الى من تجمع من الازد في شأن الردة فخاربهم وهزمهم
وقال في ذلك من أبيات :

وأبرق بارق لما التقينا وعادت خلباً تلك البروق !

(٢٥) عمرو بن شذيل : من ولد عتاب بن مالك الثقفي : شهيد بيعة الرضوان تحت
الشجرة . وفي معجم الشعراء للمرزباني انه مخضرم ادرك الجاهلية والاسلام وله
شعر لم يحفظ .

(٢٦) عمرو بن مسعود بن معتب الثقفي . أخو عروة الصحابي المشهور . كان
صديق أبي سفيان بن حرب في الجاهلية ينزل عليه ابو سفيان اذا أتى الطائف
وعاش الى ان أسن ووفد على معاوية وهو شيخ كبير فأنشده أبياتاً وكان شاعراً

(٢٧) قارب بن الاسود : ابن مسعود بن معتب الثقفي . كان قائداً شجاعاً
صاحب رأي . حمل راية الاحلاف يوم حنين وقيل بل حمل راية ثقيف في
الاحلاف فلما تبين الوهن فيهم قال لتومه : اعصبوا رايتمكم بشجرة ليحسب
من رآها انكم لم تبرحوا وانجوا على خيلكم ، ففعلوا فنجوا . أسلم في وفد ثقيف
وقيل قبله .

(٢٨) القاسم بن أمية : ابن ابي الصلت الثقفي : كان شاعراً . وأدرك مقتل
عثمان بن عفان فرثاه .

(٢٩) كنانة بن عبد ياليل : من رؤساء ثقيف يروى انه الوحيد الذي ابى أن
يسلم منهم . ولما أسلمت ثقيف خرج الى نجران ثم توجه الى بلاد الروم فمات بها على
دين الجاهلية بعد السنة العاشرة من الهجرة .

٣٠) مالك بن عمرو : من خطباء ثقيف وشعرائها . وجهه ابو بكر بعد الردة رسولا الى مسيلمة باليمامة فخطب عنده خطبة بليغة دعاه فيها للرجوع الى الحق فغضب منه وهمّ بقتله ، فنجوا .

٣١) شرحبيل بن غيلان الثقفي . أحد من اوفدتهم ثقيف باسلامها الى رسول الله وكان وجهياً في قومه ، من ذوي الرأي والعقل ، مات سنة ٦٠ هـ

٣٢) عروة بن مسعود : الثقفي ، الصحابي المشهور . قدم على النبي (ص) بعد انصرافه من الطائف فأسلم وسأل النبي أن يأذن له بالاياب الى قومه يدعوهم للاسلام فأذن له بعد أن انذره بشر يصيبه منهم . وكان عروة وجهياً في ثقيف ذا منزلة وشأن فلما عاد الى الطائف صعد الى عليّة له ودعا قومه الى ما جاء به فرموه بالنبل فقتلوه . قيل له وهو يلقي الموت : ماترى في دمك ؟ فقال : كرامة اكرمني بها الله وشهادة ساقها اليّ ، ليس فيّ إلا ما في الشهداء الذين قتلوا بين يدي رسول الله فادفوني معهم . فلما مات دفنوه بين شهداء الطائف السابق ذكرهم وعدّ منهم . وكان مقتله سنة تسع من الهجرة .

٣٣) الحكم بن مسعود : بن عمرو الثقفي . اخو ابي عبيد . شهد وقعة الجسر مع اخيه سنة ١٣ هـ واستشهد بها .

٣٤) عبد الله بن مسعود : اخو الحكم و ابي عبيد . استشهد معهما في وقعة الجسر

٣٥) ابو عبيد بن مسعود : بن عمرو الثقفي . والد المختار الثقفي . كان قائداً من كبار الغزاة . آخر ما عرف عنه قيادته للجيش في وقعة الجسر سنة ١٣ هـ واستشهد فيها . واتخذ يومه تاريخاً ، يقال : قتل فلان يوم جسر ابي عبيد .

٣٦) المختار الثقفي : ابن ابي عبيد الثقفي . في ترجمته اعاجيب كان شجاعاً مقداماً وخطيباً حازماً وداهية صليب العود . له مثالب ومناقب . ولد عام الهجرة ورحل من الطائف مع أبيه في أوائل أيام عمر حين ندب الناس الى العراق . فاستشهد أبوه وأخوان له يوم الجسر وأقام المختار في المدينة منقطعاً الى بني هاشم . ثم كان مع علي بالعراق . وسكن البصرة بعد علي . ونفاه بنو أمية الى الطائف بلدته فكث الى أن قام عبد الله بن الزبير في طلب الخلافة فجاءه الى مكة فسيره الي التكوكة

وحدثت بينه وبين مصعب بن الزبير أمور اتسع خرقها فانفرد المختار بمحيشه وقال
مصعباً حتى تغاب مصعب فقتله سنة ٦٧ هـ في الكوفة . وكان يجهر بالمطالبة بدم
الحسين . وادعى النبوة . وقتل المختار كل من اشترك بقتل الحسين .

(٣٧) ابو محجن : الثقفى الشاعر الفارس المشهور . شهد حرب القادسية وخبره
فيها معروف وسكن اذربيجان حتى مات .

من نساء ثقيف :

(١) بادية بنت غيلان : تقدمت ترجمة أبيها غيلان الثقفى . من النساء المعروفات
في التاريخ والحديث . اسلمت حين أسلم أبوها ورأت النبي (ص) . وروت
احاديث عنه وعن عائشة .

(٢) رقيقة الثقفية : اسلمت حين خرج النبي (ص) من مكة الى الطائف في
المرءة الاولى وكنمت اسلامها حتى ماتت قبل فتح الطائف .

(٣) زينب : بنت ابي معاوية بن عتاب الثقفية ، امرأة عبد الله بن مسعود
الثقفى . روت بضعة احاديث . وروى عنها غير واحد .

(٤) الفارعة بنت ابي الصلت : أخت أمية بن ابي الصلت الشاعر المشهور .
قدمت على النبي (ص) بعد فتح الطائف وكانت ذات لب وعفاف وجمال . وكان
يعجبه أدبها ويستنشدھا شعر أخيها فتنشدھ .

(٥) ميمونة بنت كردم : امرأة من ثقيف لها سمعة . رأت النبي (ص) وسمعت
منه وروت الحديث .

داخل السور

سور الطائف ، أبرابه ، حاراته ، منازلہ ، سكانه ،
قاعته ، ثكنته ، أميره ، مدارسہ ، أدباؤه

إذا أطلق لفظ الطائف ارید به البلدة وما حولها من قرى وجبال وأودية
حتى منتهى الحدود من كل جانب . ولذلك اخترت العنوان « داخل السور »
دفعاً للالتباس وحصر الكلام في المدينة نفسها

(١٠ — ما رأيت وما سمعت)

أحيط الطائف بسور يضم داخل البلدة من جميع أطرافها وليس هذا بالخائط الذي يقال ان الطائف سمي لاطافته به منذ عرفت هذه الديار في العصور الغابرة بل ان ذلك قد اندرس واقيم هذا بعد عام الالف حول أكبر قرية في ديار الطائف وما برح الامراء والاشراف وغيرهم يتعهدونه بالاصلاح والترميم والبناء حتى بقي الى الآن حافظا مكانه

..

ولسور الطائف ثلاثة أبواب تغلق كل يوم بعد الغروب ، ويجوز أن تفتح الى الساعة الثالثة من الليل (نحو التاسعة زوالية) لفريق مخصوص من الناس أو لمن كان معروفًا لدى الشرطة حفظة الابواب . وأما بعد الثالثة فقل أن تفتح لاحد . والابواب الثلاثة هي :

١ — باب الحزم : وهو الشرقي الموصل الى شبرة

٢ — باب الريع : وهو الغربي الموصل الى السلامة والمثناة

٣ — باب ابن عباس : وهو بجانب مسجد ابن عباس يقع على الجهة الجنوبية الى النرب من الطائف

وهذه الابواب (او البيان كما يقولون) يرجع عهدا الى زمن بناء السور على الغالب وقد جدت عمارتها قبل قدوم محمد علي باشا المصري الى الحجاز (وكان قدومه سنة ١٢٢٨ هـ) وبقيت الابواب تعرف باسمها الى اليوم .

..

والطائف ثلاث حارات (ج : حارة — وهم يجمعونها على حواير)

الاولى : حارة فوق : وهي وراء باب الريع للداخل على البلدة .

والثانية : حارة أسفل : وهي مسكن الامراء والاشراف وتقع خلف باب الحزم .

والثالثة : حارة السلمانية : وهي على مقربة من باب ابن عباس براها الداخل

من هذا الباب على يمينه .

وأوسع هذه الحارات وأكثرها سكانًا حارة أسفل ثم حارة فوق ثم السلمانية .

وقد نخرّب ، في أيام الثورة الاخيرة على الترك ، كثير من بيوت حارة أسفل .

وكانت منازل الطائف قبل الحرب تناهز ألفاً وخمس مئة منزل . وفي أوائل الحرب اشتدت أزمة العيش فيه فبحرجه بعض سكانه . ثم كانت الثورة فتهدم جانب عظيم من القصور والابنية وتداعى جانب غير يسير ما زال الى اليوم يراه الناظر شاخصاً في الفضاء ، وقد جرد من الاثاث والبلور وتباعد عنه الناس مخافة سقوطه . فلا أصحاب هذه المنازل يعنون بها فيعمروها ، ولا هي تسقط فيستفاد من أرضها . وقد أخبرني رئيس بلدية الطائف أن الدور العامرة الآن المسكونة قد لا تزيد على ألف دار .

..

وأما سكان بلدة الطائف عدا القرى المحيطة بها والقبائل الضاربة قريباً منها أو بعيداً عنها . فهي الآن لاتقل عن خمسة آلاف وربما كان عدد الراحين عنها قبل الثورة يقارب عدد الباقين اليوم .

..

وقد زرنا قلعتها وهي غير قديمة ، بنيت منذ نيف ومئة عام ، طول المعمور منها نحو خمسين متراً وعرضه نحو ٢٥ متراً . وكانت ذات طبقتين (دورين) فلما نشبت الحرب بين العرب والترك اضطر الاتراك لرفع مدافعهم الى اعلاها واقاموا وراء كل جدار منها جداراً ملاصقاً له يقيم قنابل مقاتليهم من الجبال المحيطة بالطائف بحيث تكون الجدران بضخامتها كالحصون . وبعد أن أتموا بناء الجدران واصعدوا المدافع ، رأوا أن الثقل اشتد على البناء الاسفل وخافوا انهياره ، فعمدوا الى السقف الاعلى فخرّبوه تخفيفاً ، وازالوا نحو مترين من ارتفاع جدران الطبقة الثانية فاصبحت القاعة الآن ذات طبقة واحدة أي الطبقة السفلى . وأما اثنية فبقي نحو نصفها ولا سقف لها ، وفيها رأينا الغرفة التي كانت سجن مدحت باشا زعيم أحرار الترك المشهور وهو مدفون في الطائف .

وزرنا السكنة العسكرية ايضاً وهي واسعة جداً طولها نيف وثلاث مئة متر وعرضها نحو ٢٥٠ متراً وليس فيها ابنية مرتفعة اكتفاء بمبانيها السفلية وهي مأوى الجند النظامي الآن .

وعرفنا في الطائف حاكمه الشريف شرف بن راجح بن فواز بن ناصر. وقد علمت من أحد العارفين أن حكومة مكة جهلت لهذه الأسرة الولاية على الطائف بالتوارث منذ زمن غير قريب ، ثقة بها واعتماداً على إخلاصها .

..

وهنا يجدر بي أن اذكر كلمة عن اسم كانت تعرف به هذه البلدة ثم نعي ، فقد اتفق أهلها اليوم ومن جاورهم من سكان القرى بل كل من عرف الطائف على اختصاص البلد بهذا الاسم . والصواب ان يقال إن الطائف هو اسم عام لجميع ما يدخل في حدوده من قرى ومزارع وأودية . وقد كانت هذه البلدة قرية أنشئت حديثاً بعد سنة ألف للهجرة على أثر خراب قرية السلامة القريبة منها . ثم اتسع بنيانها وكانت تدعى قرية « الهضبة » ولما كبرت تنوسي هذا الاسم واطلق الناس عليها اسم الطائف كما يطلق اسم الشام على دمشق ، والشام هي سورية كلها .

وقد جريت في هذا الكتاب على ما هو معروف في أيامنا حذراً من التشويش في البحث واكتفاء بالغاية التي أرمي إليها من التعريف بهذه البقعة الأثرية القديمة في تاريخها وشهرتها ، وإنما أوردت هذه الكلمة هنا لاعتقادي أنها فائدة في تاريخ هذا البلد لا ينبغي إغفالها .

..

وفي هذه المدينة عدة مدارس أهلية صغيرة ، ومدرسة رسمية سميت بالمدرسة الخيرية الهاشمية . وهي ذات أربعة صفوف فيها نحو أربعين تلميذاً ، وبناؤها حسن الموقع ، كان منزلاً لأحد الأهلين فاشترته الحكومة التركية سنة ١٣٢٥ هـ وأنامت فيه مدرسة من الدرجة الرشدية (ذات ستة صفوف في ست سنين) ثم قلبتها الى ابتدائية ، ثم جعلتها مدرسة اناث حتى كانت الثورة (عام ١٣٣٤ هـ) فجعلتها الحكومة العربية مدرسة تحضيرية للذكور ثم وسعها سنة ١٣٣٥ هـ فجعلتها ذات أربعة صفوف كما رأيناها ، وفصلت التحضيرية عنها الى مكان آخر في البلدة نفسها . وفي التحضيرية الآن نحو ٦٥ تلميذاً . والحكومة تقدم للتلاميذ الكتب والدفاتر والاقلام والحبر مجاناً . وفي المدرسة الخيرية الهاشمية الآن استاذان ،

أحدهما : الشيخ عبد الله قاضي من فضلاء الطائف ونابهية ، يتولى تعليم التفسير والحديث والنحو والبلاغة والتاريخ والادب العربي والتوحيد والانشاء في الصف الرابع ، وثانيهما الشيخ صبحي الحلبي يعلم الهندسة والجغرافية والحساب وقسم المعاملات من الفقه والقراءة العربية .

..

والشيخ صبحي يمد اليوم من أدباء الطائف ، اطلعت على مجموعة شعره فكان مما قرأته فيها قوله في مطلع قصيدة :

هذي الديار فقف بها يا حادي واعطف لحالي فرقتي وبعادي
ومنها :

حرمت نومي بعد بعدكم فما والله زار العين طيب رقاد
لي أنة مذغبتكم عن ناظري مصحوبة بعويلي المتماذي
وقوله من قصيدة :

رعى الله قوماً بلدة (الخبر) دارهم لهم في ربى عليها المسكن العالي

..

وزرت دائرة البرق والبريد والتلفون في الطائف فرأيت في صدرها الأعلى هذا البيت (الكعب بن سعد من قصيدة) :

واست بمسد للرجال سررتي ! ولا انا عن اسرارهم بسؤول !

فاعجبني حسن اختيار هذا البيت لذلك المكان ، ولاح لي أن في الدائرة أدبياً ثم عرفت مديرها الشيخ عثمان بن عبد الرحيم قاضي فاذا هو ذلك الاديب . ولم ابث أن قرأت له قصيدة يرحب فيها بالامير زيد عند عودته من ايطاليا الى مكة المكرمة

..

ومن عرفت في الطائف قاضيه الشيخ عبد الله ابن ابي بكر بن علي كمال وهو افقه من في هذه المدينة واعلمهم بالادب وفنونه . رغبت اليه ان يطلعني على شيء من شعره فتلا لي بضم قصائد ، منها قصيدة نظمها وهو مع جلالة الملك في رحلته

الى اليمن ، وقصيدة قالها في فتح المدينة المنورة . نشر الاولى في كتاب الرحلة
البحرية والثانية في جريدة القبلة . ومن شعره قوله من قصيدة :

ترفق أيها الحادي وعج بي نحوهم عج بي
كرام قد عهدناهم بذاك السفح والشعب
أريج المسك رياهم وريح المنديل الرطب
إذا وافيت أفياء بذاك المنزل الرحب
وأوردت المطايا القود من سلسالها العذب
فبلغهم سلاماً من محب هائم صبّ
وان حيوك بالطف وبالتسائل والرحب
فقل عهدي به مضى سمر الانجم الشهب

..

وأطاعني على مجموعة أدب مخطوطة عنده قرأت فيها الأبيات الآتية لمحمود
سامي باشا البارودي المصري :

الشعر زين المرء مالم يكن وسيلة للمدح والذام
يأطالما عز به معشر وربما أزرى بأقوام
فاجعله ما أنشدت في حكمة أو عظة أو حسب نام
واهتف به من قبل تسربحه فالسهم منسوب الى الراعي !

الطرق الى مكة :

بين الطائف ومكة عدة طرق لايسلك منها اليوم غير طريق واحدة وهي التي
أجتزأها في رحلتنا . وقد تسلك طريق ثانية يسمونها البمانية أو طريق السيل ،
وجميع الطرق القديمة ما زالت معروفة الى اليوم ويمكن سلوكها إلا ان أكثر الناس
هجروها ماعدا هذين . وقد رأيت في عقود اللطائف إسهاباً في الكلام على المسالك
بين المدينتين يفيد المطالع والباحث ، أختصره في مايلي :

١ — كرا (وهو طريقنا) : قال فيه : هو جبل في غاية الكبر والصعوبة ،
صعوداً وهبوطاً ، وان كان الثاني اخف .

٢ - يعرج : وهو طريق جبلي اسهل من كرا واقرب مابعدة من المسالك الآتي ذكرها . على ان فيه حرجة ، بعد هبوط ، عسرة يتعب فيها الراكب والماشي
٣ - الثانية : طريق جبلي فيه عقبات اكثرها سهل بالنسبة لغيره ولذلك يؤثره اكثر اهل الحجاز على غيره لما تجده جاهلهم فيه من الراحة

٤ - غرزة :
٥ - خروب : } وهما دون الثانية

٦ - عفار : قل من يسلكه ، يأتي على الوهط ثم ينزل على رأس وادي نعمان
٧ - اليمانية : اسهل الطرق ، على ما فيه من هبوط وصعود متكرر في جبل يقال له المنحوت ، وتسلك هذه الطريق لاغلب الناس في ثلاث مراحل كبيرة : مرحلة من مكة الى الزيمة ، ومرحلة منها الى السيل ، ومرحلة منه الى الطائف ، وكثيرون يجتازونها في مرحلتين .
وهذه الطريق قد تعرف اليوم باسم « طريق السيل » كما قدّمت .

عكاظ

وعلى ذكر طريق السيل او اليمانية ، لأرى أن تفوتني الإشارة الى اشهر سوق من اسواق العرب اعني سوق عكاظ لوقوعها في تلك الطريق .
على مرحلتين من مكة للذهاب الى الطائف في طريق السيل ، يميل قاصد عكاظ نحو اليمين فيسير نحو نصف الساعة فاذا هو امام نهر في باحة واسعة الجوانب يسمونها « القانس » - بالكاف المعقودة - وهي موضع سوق عكاظ الذي لا تنكاد تقرأ كتاباً من كتب الادب أو التاريخ العربي إلا وجدت له ذكراً فيه .
وهذه الباحة التي يسمونها « القانس » هي مجتمع الطرق الى اليمن والعراق ومكة ، وهي مرتفعة تشرف على جبال اليمن وبينها وبين الطائف مرحلة واحدة .
كل ذلك يدلك على ما دعا العرب في الجاهلية لاختيار هذه البقعة المتوسطة من دون غيرها لتكون مجمعهم الاكبر ومعرضهم الأشهر ، ولم أجد فيما بين يدي من مصنفات التاريخ تعليلاً لاتفاق القبائل على الاجتماع في هذا المكان غير ما عرفته الآن .

والواقف في القانس (أو عكاظ) يرى على مقربة منه موضعين مرتفعين أحدهما يسمى الدمة^(١) والآخر البهيتة^(٢) وعكاظ هو الفاصل بين الدمة والوادي الموصل الى الطريق التي يمر بها سالكو درب السيل (المانية)

أما ما جاء في كتب التاريخ عن عكاظ فاعلأ أفضله قول صاحب معجم البلدان ما خلاصته : عكاظ اسم سوق من أسواق العرب في الجاهلية تجتمع فيه القبائل كل سنة يتفاخرون ، ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر ، ثم يتفرون . وقال الاصمعي : عكاظ ، نخل في واد بينه وبين الطائف ليلة وبينه وبين مكة ثلاث ليال (؟) كانت تقام سوق العرب بموضع منه يقال له الاثداء وبه كانت أيام الفجار ، وكان هناك صخور يحجون اليها ويطوفون بها . وقال ياقوت : أشهر أسواق العرب عكاظ وذو الحجاز ومجنة . وقال الواقدي : عكاظ بين نخلة والطائف ، وذو الحجاز خلف عرفة ، ومجنة بحر الظهران ، وأعظمها عكاظ ، كانت العرب تقيم فيه شهر شوال ، ثم تنتقل الى سوق مجنة فتقيم عشرين يوماً من ذي القعدة ، ثم تنتقل الى سوق ذي الحجاز فتقيم فيه الى أيام الحج . اهـ

وسمعت كثيراً من أهل الطائف يقولون إن عكاظ كان في مكان يعرف اليوم باسم « القهاري » في وادي لية من الطائف . غير أن الشيوع يؤيد ما قلناه آنفاً من أنه هو « القانس » نفسه وعليه أكثر العارفين من أهل هذه الديار

خلاصة موجزة

« البعثة الزراعية ، زراعة الطائف ، مياهه ، معادنه ، الاستفادة منه »

استقدم الملك حسين في خريف عام ١٣٣٨ هـ — ١٩١٩ م بعثة من المشتغلين بعلم الزراعة واستخراج المعادن من سورية ، فطافوا بعض بقاع الحجاز . ولا سيما الطائف ، ورفعوا اليه في ١٥ ربيع الاول ١٣٣٨ بياناً بما رأوه ، هذه خلاصته :
وادي منى^(٣) — يمتد الى منى واد عرضه ١٠٠ متر تمتلأها اراض زراعية

(١) بكسر ففتح (٢) بصيغة التصغير (٣) في طريقهم من مكة

مساحتها ٥ — ٧ دونمات ، أكثرها على سفوح الجبال من الجهتين الشمالية والجنوبية تسقى بماء الآبار .

عين زبيدة — على بعد كيلو متر واحد من منى نحو الجنوب الشرقي تبدو عين زبيدة . ماء هذه العين وسرعة جريانها ٦٣ ليتر في الثانية ، وقوتها في الساعة ٢٢٦٨٠٠ ليتر أي ٢٢٦ متراً مكعباً وكسر ، وفي أربع وعشرين ساعة ٥٤٤٣٢٠٠ ليتر أي ٥٤٤٣ متراً مكعباً وكسر

عرفة — اراضي عرفة واسعة وفيها عدة أحواض كبيرة منها ما درست آثاره بمرور الأيام ، والباقي منها قرب جبل عرفات المرتفع عن سطح البحر ٧٥٠ قدماً ، وهو محاط بشكل نصف دائرة بمجرى عين زبيدة .

الكر — آخر نقطة من منطقة تهامة ، ترتفع عن سطح البحر ٢٥٨٠ قدماً ، يكثر فيها من النباتات الشجرية السلم والحرم والضم . ومنطقة تهامة تكاد تكون على نسق واحد في تكوين أرضها وأقليمها وتربتها الزراعية . ويظهر أن ما بين مكة وسفح كرا مؤلف من جبال بركانية مختلفة الارتفاع تتخللها مجاري السيول وأكشبة رملية .

منطقة الطائف — تختلف عن تهامة ببرودتها التي ساعدت على نمو أشجار فيها لا تنبت في غير المناطق المعتدلة كالقريس والعرج والتين البري والزيتون البري والجيز وغير ذلك من أشجار الفصيلة الوردية والحشائش من الفصيلة المركبة والشفوية والباذنجانية ، والجوز والخروب وشجر الكينا (كاليبتوس) وحلاب البوم (ايفوريا) وهو من الحشائش .

تكوينها الارضي — تعد هذه المنطقة من الاراضي البركانية ، تحتوي على صخور اندفاعية صلبة ، وتتخلل سلاسل جبالها مجاري سيول عديدة ، وأوديتها خصبة تربتها الزراعية — تربتها على الاجمال رملية طينية ويزيد الرمل على الطين في أكثرها . وهي تحتوي على مقدار وافر من الكلس .

زراعتها المحلية — انحصرت الزراعة المحلية بزراعة الحبوب وأخصها الحنطة والشعير والدخن ، وبزراعة الاثمار وأخصها الرمان والسفرجل والتفاح والكثري

والعنب والليمون والخوخ وقليل من العناب ، وتكثر فيها الخضرة وأخصبها الملفوف والكرنب والسبانخ والبندورة والباذنجان والملوخية والكوسى والبامية والفاصولية والبصل والثوم والشمام (الخربز) والبطيخ الاحمر (الحبجب) والفل والفجل والفليفلة . وفي المراعي يزرعون البرسيم دون سواه .

مواسم زراعتها — تجود منطقة الطائف بثلاثة مواسم : (١) المزروعات الربيعية اي التي يزرعونها في أوائل الشتاء ويحصدونها في أواخر موسم الربيع (٢) المزروعات الشتوية اي التي يزرعونها في أواسط الصيف ويحصدونها في أوائل الشتاء (٣) المزروعات المتوسطة ما بين الاولى والثانية .

طريقة زرعهم — طريقة الزرع عندهم أن يحرث المزارع أرضه ثلاثة أوجه ثم يبنر بذاره ولا يصفيه . ويرغب أكثرهم بزرع الحبوب الضعيفة الصغيرة زاعمين انها تبذر أرضاً أوسع مجالا مع أن في أكثر هذه الحبوب بذوراً عديدة من النباتات المضرة كالشوفان البري ، وجل الحبوب الصغيرة مصاب بالامراض الطفلية أخصبها مرض الصدأ المعروف بالسقم . وأما المحارث فانها لا تزال على شكلها القديم . وأما زراعة الخضرة فهي عندهم ارقى الزراعات فهم يستعملون السماد من أجْلِها ويزرعونها على طريقة صالحة نوعاً ما ويتناولون اثماناً حسنة من تجارتها الحيوانات الاهلية — يعنى أهل هذه المنطقة بالابل والهمتر والخيول والبغال والغنم والماعز ويستخدمون في الزراعة البقر وأحياناً الجمال ولا يستعملون البغال والخيول في الاشغال الزراعية الا نادراً .

مياه الماشاة — ^(١) تبلغ مياه الماشاة ٤٤ ليرة في الثانية ، وفي الساعة ١٥٨٤٠٠ ليرة ، وفي الاربع والعشرين ساعة ٣٨٠١٦٠٠ ليرة . وهي تسقي قسماً كبيراً من وادي الماشاة ثم تدخل الطائف .

ما يمكن زرع - يمكن في منطقة الطائف زرع أكثر الاشياء النافعة كاللوز والشوندر والبطاطا والدخان (التبغ) والقنب والسمسم وأكثر البقول . وافضل طريقة لانجاح زراعة المنطقة هي طريقة الزراعة اليابسة .

(١) الماشاة واد في الطائف يأتي الكلام عليه

وادي جفيجف - هو على الشمال الشرقي من الطائف ، تترشح المياه فيه من كل جانب وتجري على سطحه متجهة نحو الشمال .

الارز - يمكن تخصيص بقعة في وادي جفيجف لزراعة الارز لانه يحب التربة المالحة وهذه الخاصة من خواص وادي جفيجف الذي ينمو فيه الارز نمواً حسناً ، وان كان من طبيعته افساد الهواء المحلي لكثرة المياه التي تكون دائمة فوق الزرع ، ولكن ماسيفرس من الاشجار حوله يصحح ما يفسده .

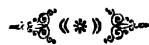
القطن - ويمكن أيضاً ادخال زراعة القطن والبرسيم والفصة في الاراضي التي تزرع ارزاً وذلك لان القطن من النباتات التي تنبت في الاراضي ذات السباح ومن النباتات التي تحتاج الى المياه في ادوار حياتها .

الورد - حياة الورد في الهذة وما مائل تربتها ، تشبه حياته في بلاد اسبارطه وبوردو المحصنين لزراعة الورد والاستفادة من عطره ، لان التربة والهواء هنا لا يختلفان عن ذينك الاقليمين .

معادن الطائف - الاراضي التي في منطقة الطائف (ويلحق بها ما بين الطائف وجدة) هي من اقدم طبقات الاراضي الجيولوجية . جميعها من الصخور الاندفاعية الصلبة . وهي لا تمتص المياه ولذلك يقل وجود الماء في الجبال اذ تتسرب عنها وترسب في الاودية . وهذه الصخور مركبة من « غنايس » وهو رمادي اللون فيه ذرات سوداء ويتركب من « ميغا » و « كوارنس » و « قلدسبارت » ثم تليه طبقة صخور « الغرانيت » وهو على الغالب احمر اللون فيه بعض حبيبات رمادية لماعة وتركيبه كتركيب « الغنايس » وتليه طبقة صخور « البازالت » وهو صخر بركاني كحلي أو أسود اللون مثقب كالاسفنج . وقد تتغير هيئة الصخور في منطقة الطائف ويكثر فيها صخر « الميكاشيست » وهو صخر اسود اللون مصفح ذو طبقات بعضها فوق بعض ، و « الكوارس » وهو صخر أبيض لامع وقد يوجد بصفة متبلورة ويتركب منه « السيليس الصلبي » . ويعلو هذه الطبقة القديمة طبقة مركبة من « كاسيت » اجتمعت في الاودية ومجاري السيول . وعلى مرور الزمان تألفت الطبقة العليا التي هي من تفتت الصخور الممتدة فوق الارض .

. تحليل المعادن - ومن خصائص هذه الطبقات القديمة أنها تحتوي على معادن من الجنس الجيد ومن جملتها معدنان أحدهما رمل مركب من حديد «مؤكسد» ممزوج به قليل من النحاس ويبلغ مقدار الحديد نحو ٦٠ في المئة ولا بد من تحسن المعدن في العمق، والثاني حديد «مؤكسد» أيضاً إنما هو صاف من الجنس الجيد يصلح للاستخراج ويحتوي على نحو ٧٠ في المئة حديداً صرفاً. وفي منطقة الطائف وخصوصاً ما بين عين الخضرة والطائف مقادير وافرة من المرمر الأحمر الجميل الذي من فوائده أنه يتخذ اعمدة للابنية الجميلة وتوضع منه اشكال عديدة للزخرفة.

وعلى بعد اربع ساعات من الطائف محلة تدعى «المعدن» فيها جبل مرتفع . ٥٤ . قدماً به حفريات قديمة تنبيء باستخراج معدن منه . وفيه آثار معدنية تحتوي على شي، من الحديد وقليل من النحاس وإذا حفر هذا الموضع فلا بد من وجود اشكال معدنية غير الشكل الظاهر على السطح . ومما يبرهن على استخراج هذا المعدن قديماً آثار بيوت مبنية في قمة الجبل وبوادي من حجر يحرق فيها المعدن بنار الحطب أو الفحم ويستخرج منها الحديد . وإذا اريدت متابعة استخراجها الآن لم يكف له الحفر على وجه الأرض بل ينبغي حفر آبار تتفرع منها سراديب تحت الأرض . وفي جبل « الوهط » جنس صخري يدعى « ميصا » ابيض اللون تتجزأ منه صحف رقيقة كالورق ، شفافة كالزجاج . وهو غير قابل للذوبان في النار مهما بلغت حرارتها، ومن فوائده أنه يستعمل الآلات الكهربائية والمواقد الحديدية المنخذلة لادف وفيه من الحجر الكلس المتبلور الصافي الصالح لاستخراج الكلس النظيف الصافي اللون . انتهى .



ما حول الطائف

« قراه وجباله وأدويته وآباره وبساتينه وحصونه وعيونه »

(مرتبة على الحروف)

لابد لي قبل الشروع في الكلام على ما حول بلدة الطائف من الإشارة الى أربعة أمور :

الاول - ان أهل هذه البقاع يطلقون اسم القرية على كل موضع منفرد ، فيه بيوت قلت أو كثرت ، من الاثنين أو الثلاثة الى الخمسين أو ما فوقها - وقد وافقتهم في الاصطلاح على طريقةهم هذه - كما انهم يطلقون لفظ البلاد على كل موضع فيه مزارع وليس فيه بيوت ، يقولون : كنا في بلاد فلان أي في مزارعه - خالفتمهم في هذا ووضعت المزارع بدل البلاد .

الثاني - أن جبال الطائف كثيرة جداً ، قيدت في رحلتي منها ما له تعلق بقرية أو ارتباط يبحث ، أو ذكر في شعر ، أو بيان في تاريخ ، أو فيه أثر يذكر وأهملت ما لا فائدة للقاري ، من الإشارة اليه .

الثالث - في تواريخ المتأخرين ذكر لكثير من القرى والعيون والآبار والمواضع التي لم أوفق لمعرفة في أيامي القليلة بالطائف فرأيت انما للفائدة ان اذكر ما نقل لي انه لم يزل موجودا ، وأعرضت عن ذكر أكثر ما لم أره مما لم ينقل لي خبر بقائه الى الآن مرجحا اندراسه او تغير اسمه .

الرابع - من أودية الطائف الكبيرة الكثيرة القرى والمزارع « وادي لية » لم يتفق لي طوافه فاعتمدت في ما ذكرته على أخبار الموثوق بهم وما اطلعت عليه من كتب التاريخ الحديثة وبعض القديمة . واليك جملة ما تحصل عندي :

الآبار - قرية ، قال المعجمي : هي خلف قرية السلامة من الجهة الشمالية ، وسميت بذلك لكثرة ما حفر من الآبار بها في زمن القائدة درة جارية الشريف حسن بن أبي نبي . وهذه القرية غير معروفة الآن بهذا الاسم بل يسمونها « قروة » وسيأتي ذكر هذه

ابن منديل - هضبة كبيرة على جنوب الطائف وراء قلعة ثكمنت لا تبعد عنها كثيراً ، وربما قالوا « جبل ابن منديل »
أبو نقطة - جبل في وادي لقيم بينه وبين جبل السويقة درب يقال له شعاب الماء .

أبو زبيدة - أو جبل ابي زبيدة . في طريق الذهاب من الطائف الى وج يقابل الاصحجرين .
الاصحجران - أو جبل الاصحجرين . مقابل لشرقي قبة ابن عباس وهو المعروف الآن باسم البازمين .

الاصيفر - قرية كبيرة فيها بساتين ودور قليلة في وادي جفن - ذكرها الفاكهي - وهي لا تزال موجودة .

أم الادم - هضبة ماثلة أمام « أم السكارى » الى جهة الغرب منها . وهي في غرب الطائف .

أم البكار - مزارع (بلاد) لقبيلة الاعصمة ، فيها بئر . تغل حبوباً ولا فاكهة فيها وهي بين الحادمية والخضراء .

أم الخض - قرية وراء حدود لقيم في اصطلاحهم ، تلي قرية الصفاة ، فيها مزارع حبوب وثلاث آبار ويكثر بها شجر الطرفاء (يسمونه الاثل والعرين) أم خبز - مزارع بعد شجرة فيها بساتين قليلة .

أم السكارى - هضبة كالجبل على الجانب الغربي من المنشأة تبعد عن الطائف مسيرة نصف ساعة أو أقل وقد سبق ذكرها في الكلام على الآثار .

أم الشيع - هضاب متصلة في شمال الطائف كانت عليها وقائع بين العرب والترك في زمن النهضة .

أم صدعين - قرية في لقيم قبل الرئيسية يسير تسكاد تلاصقها ، فيها بضعة بيوت ومزرعتان وبئران .

أم الفضلين - مزارع ذات نخيل وفيها بستان وبئر ماء . في وادي لقيم تبعد عن الطائف مسيرة ساعة وهي للشريف شرف .

أم المعين - هضبة تلي أم الادم وكلاهما خلف قرية «قروة» من الجنوب .
 أم هيثم - مزارع في وادي لقيم ، بعد قرية الغنامين وقبل مزارع الوسطى .
 وهي من أراضي عشيرة البخاتين .

البازمان - جبل ، واكثر ما يقال جبل البازمين . وهو المعروف قديما باسم
 الاصيحرين وقد تقدم ذكره فيه .

بحرة الرغا - موضع في لية . قالوا : هو من ديار بني نصر . ولعله المحل المعروف
 الآن باسم البحرة في وادي لية . قال الحضراوي : وبحرة الرغا من لية مسجد
 يقال انه موضع صلى فيه النبي (ص) مازال أثره شاخصا .

قرية البخاتين - البخاتين قبيلة ، وقريتهم كبيرة ، تعرفهم ، تبلغ بيوتها
 العشرين وفيها بستان عنب وبستان رمان وارض تزرع حبوبا وثلاث ابار ، وهي
 من لقيم بعد مزارع البسيلية وقبل الغنامين .

برد - جبل في بلاد قرش يبعد عن الطائف ستة فراسخ يقال ان جميع عيون
 المياه التي في الطائف منشأها منه . كذا رأيت في تعليق لاحد المعاصرين على كتاب
 المعجمي . ولم أر هذا الجبل .

البسيلية - مزارع حبوب (وهم يجمعونها حبان) فيها بئران ، احدهما
 للاشراف من ذوي زيد ، والثانية لافراد من قبيلة الأعصمة وهي في وادي لقيم بعد
 الخضراء وقبل قرية البخاتين .

الجال - قرية ناضرة على بعد نصف ساعة من الطائف الى الشرق ، فيها بركة
 ماء كبيرة على مرتفع جميل ، يمر بها جدول صغير يسقي ارضها يأتيها من قرية حوايا
 المجاورة لجبل شهار . ويقابل الجال الى شمالها قريتا قلة والقطبية . وخلف الجال الى
 الجنوب جبل وراء وادي النمل . وفي الجال بساتين وبضعة بيوت . وفيها فواكه كثيرة .
 جبرة - مزارع في وادي الجفيعف ، شرقي الطائف ، فيها بئر يخرج ماؤها من
 عمق مترين ونصف . وفيها بساتين .

جديدة - بئر لافراد من قبيلة طوهرق ، يقال لهم التراكية وهي البئر الثانية في
 قرية ام صد عين .

الجزع - قرية صغيرة في وادي لية - ذكرها الفاكهي -

الجنيحف - وادي في شرق الطائف على مسيرة اقل من نصف ساعة . بعد قرية الريان وقلة ، فيه آبار ، وعين ماء تسمى الخرار وفيه مزارع جبرة . وهو مستطيل بين جبلين يتقاربان ويتباعدان ، كثير الريّ رطب الارض ، وقد يسمون اقصاه وادي الخرار باسم عين الماء التي هي فيه .

جلدان - قال ياقوت : « موضع قرب الطائف بين لية وسبل يسكنه بنو نصر ابن معاوية » . لم اسمع به .

الحزمان - قرية فيها بساتين وآبار ، في وادي لقيم قبل المليساء وبعد ام خبز . الحسيرج - واد صغير ، بين قرية الحماضية ولقيم ، وهو على سفح جبل شرقي الطائف .

الحصنان - أو قرية الحصنين ، من قرى وادي لية ، ذكرها الفاكهي . الحماضية - مزارع للشريف شرف بعد المليساء تبعد عن الطائف شرقاً اقل من ساعة ، فيها دار وبئر وقد وضع للبئر محرك بخاري لآخراج الماء بواسطته ، تمّ وضعه ونحن في الطائف . وبجوار الحماضية الى يمين الذهاب من الطائف قرية الحدة . الحدة - ^(١) قرية قبل لقيم ، هي المليساء ، وقد تسمى الحدة باسم القبيلة الساكنة فيها (انظر المليساء) .

حوايا - قرية غرب الطائف غير بعيدة عنه كثيراً ، فيها بيوت وبستان كبير واربع آبار ، وكان بها ايام الفاكهي سبع آبار . بئر حوايا - احدى آبار قرية حوايا ، جنوبي البستان ، ماؤها عذب ، اخف ماء بالطائف .

الحادمية - مزارع في وادي لقيم قبل ام البكار فيها بستان غنّب ورمّان وتين واراض تزرع حبوباً .

الحبرة - قرية في المثناة غربي الطائف الى الجنوب فيها بضعة بيوت وبستان وبها مسجد عداس السابق ذكره . وهي قديمة ضبطها القاموس بأنها كعنبه .

(١) يلفظونها بسكون الحاء وفتح الميم والذال .

عين الخبزة - قيل لنا ان هذه العين تسقي المثناة كلها ، وهي جارية في قناة متسربة مما يجتمع من رشح الجبال المجاورة للمثناة غرباً وجنوباً .

الخرار - أشرنا اليه في الجفجف ، وهو واد بعده ، يفصل بينها جبل في أقصى الجفجف يعطف فيه السالك الى يساره . وهو واد خصيب كثير العيون والينابيع ، أرضه ملاءى بالماء الراكد من سيول جباله ، حفرنا بأيدينا نحو شبر واحد في عدة مواضع منه فكنا لا نلبث أن نرى الماء يكاد يملأ الحفرة ، كثير المستنقعات يجتمع من ينابيعه جدول صغير من الماء يقرب بين الصخور فيسمع له خرير ولذلك سمي الخرار . وهذا الوادي يمتد الى العرج . والخرار يبعد عن الطائف مسيرة ساعة . وقد أكد لنا أحد العارفين أن ماءه لا ينقطع طول السنة وأنه في الشتاء اذا جادهم الغيث يجري كالنهر الكبير وقد يملأ ما بين جبلية المتقاربين .

الخضاري - مزارع في أوائل وادي لقيم ، للشريف هاشم بن عون . قبل قرية العبايد .

الخضراء - بالقصر تميزا لها عن الخضراء الآتي ذكرها . وهي مزارع للشريف علي بن زيد بن فواز . فيها بئر عليها محرك (مصعد للماء) بقوة خمسة حصن . وهي في وادي لقيم على مقربة من قرية المريسية وقد يلحقونها بالمريسية . الخضراء - قرية فيها ستة بيوت ومزارع كثيرة تسقى من ثلاث آبار فيها ، وهي للشريف علي باشا ابن عبد الله باشا .

الخضيرة - بئر في قرية العقباء .

الخليطي - قرية بالقرب من الشدايين في أوائل وادي لقيم عندها مزارع أم الفضلين .

الدار البيضاء - قرية في وادي القرن ، ذكرها الفاكهي ، وقيل لي انها ما زالت موجودة ، ولم أرها .

دحلة - مزارع محاذية للنصيلة في وادي الجفجف تكاد تكون ياباً . رحاب - قرية على مسيرة أربع ساعات من الطائف الى الجنوب ، عامرة ، فيها

بيوت ومزارع يملكها الشريفان هاشم بن عون وناصر بن هزاع من ذوي ناصر الردف - جبل - وقد يسمونه الرادف - يبعد ساعة عن الطائف الى الغرب الجنوبي وقد تسكلمنا عنه في بحث الآثار .

رغاف - جبل وراء أم الحمض وبعد لقيم يبعد عن الطائف مسيرة ساعتين الى الشرق ، كانه الحد الطبيعي لوادي لقيم ولكنهم لا يعدونه ولا يعدون أم الحمض من لقيم . وما أدري لهذا سبباً .

رغيف - بصيغة التصغير : جبل صغير كالهضبة ، ملاصق لرغاف .
أم رغيف - على صيغة التصغير : مزارع حبوب على سطح جبل رغيف وفيها بستان جيد العنب والمان والخضر ، ولها ثلاث آبار وارضاها تزرع حبوباً . وبعضهم يلحق أم رغيف بأم الحمض .

الريان - قرية خضراء كلها الحديقة الغناء ، بعد شبرة الى شرق الطائف في طريقنا الى وادي الجفجف منحرفة الى اليمين كثيرة الاشجار ، فيها رمان وعنب وفواكه متعددة الانواع ، كان فيها أربعة بيوت فخر بثلاثة وبقي واحد عامراً . وذكرها الفاكهي فقال انها قرية قلة نفسها ، تدعى بالاسمين . والصحيح انها قريتان متجاورتان .

ربع التمار - هضبة صغيرة بين المايساء (الحدة) ووادي الحسيروج ، على مقربة من الحماضية .

الزبيرية - بئر ينسبونها الى الزبير بن العوام في قرية العقيق .
الزوران - قرية صغيرة في لية ، سماها الفاكهي « الوزير » ما زالت عامرة .
السابب - من قرى لية . قال الفاكهي : تعرف بدار ابن معيق آخرها عوف القبيلة ويقربها حصن كبير جاهلي يعرف بحصن ليلي .
السداد - قرية فيها هضبة الردف . تسكلمنا عنها في الآثار .

السلامة - قرية محاذية للطائف من جهة باب ابن عباس ، كثيرة البيوت بعضها عامر ، وبعض خرب ، سكانها قليلون من قریش وغيرها ، ذكرها ياقوت فقال : قرية من قرى الطائف بها مسجد للنبي (ص) وفي جانبه قبة فيها قبر ابن

عباس وجماعة من أولاده ومشهد للصحابة (رضي الله عنهم) . اه كلامه . وهي الآن في ظاهر البلدة يفصل السور بينها وبين قبة ابن عباس . وما زال المسجد فيها . وقال العجمي : لا أعلم بدأ عمارتها إلا أنها كانت معمورة في أوائل القرن التاسع ، وبها كان ينزل أعيان مكة وفضلاؤها ثم خربت في حدود الثمانين (كذا) وتخول أهلها عنها ولم يبق بها منهم غير القليل وانهدمت بيوتها في مدة يسيرة . اه . وقد مر بنا ما نقلناه عن كتاب أشراف مكة وأمرائها من أن الشريف سروراً نزل بها سنة ١١٩٣ هـ وهذا دليل على انها كانت عامرة الى عهده .

سلسلة - ذكرها الفاكهي ولم أجد من يعرفها - قال : قرية كبيرة بينها وبين قرية الوزير (الزوران) بحجرة الرغا . وعندها آثار حصن جاهلي هدم في صدر الاسلام ثم قال : ومن لطيف ما يذكر أن رجلاً من أهل هذه القرية قيل له : ما اسمك ؟ فقال : كليب . فقيل : وما سكنك ؟ قال : سلسلة قبالة الوزير . فقيل له لا قدرة لنا على كليب في سلسلة قبالة الوزير !

سويد - من قرى وادي لية ، كبيرة فيها بساين .

السويقة - جبل صغير على جنوب قرية الخضراء ، بينه وبين جبل «ابونقطة» درب يقال له شعاب الماء .

شبرة - على يمين الذهاب من الطائف الى الشرق ، مزارع خضرتسقيها جداول صغيرة من الماء تمتد مسيرة ربع ساعة وتنتهي بقصر هو ألخم بناء في الطائف وربما كان أعظم قصر في الديار الحجازية بحسن بنائه وجودة مناخه وسعة مساحته وتنظيم غرفه ، وهو منقسم الى قسمين أحدهما منحرف عن الآخر ، وقد يبلغ عدد ما فيهما من الغرف والابهاء مئة وخمسين أو يزيد . تحوط جهاته الداخلية حديقة غناء هي اجمل حدائق الطائف وغيره من بلاد الحجاز على الاطلاق بانتظام أشجارها وأزهارها وحسن هندستها وجمال بركها . وانما سميت هذه المزارع وفيها القصر والحديقة باسم « شبرة » تشبيهاً لها بشبرة مصر . وعلى جانبي الطريق الموصلة اليها من الطائف أشجار كبيرة من الطرقاء (العرين أو الاثل كما يسمونه) وقد زال بعض هذا الاشجار قبيل النهضة وفي أوائلها . وقصر شبرة هو منزل

الامراء في الطائف وأكثر ما ينزلون في الجانب الايسر منه كما فعل الامير علي ولي عهد الحجاز ، ونحن في الطائف ، فانه اختار هذا الجانب على الثاني مع ان ذلك أعظم وأضخم .

عين شبرة - رأيت في هامش على تاريخ العجيمي لاحد أفضل الطائف المعاصرين أن من أشهر عيون الطائف عين شبرة يروى منها أهل الطائف .

الشدايين - مزرعة الشدايين هي أول وادي لقيم من جهة الطائف ، بين المليساء والخليطي وفيها اراض تزرع حبوباً .

شرقرق - أحد جبلين متحاذيين قبالة قصر شبرة . والجبل الثاني يدعى عكا به . ولما اضطرت نار الحرب بين العرب والترك أيام النهضة تحصن الاتراك في عكا به وأخذ العرب يرمونهم من شرقرق ومن شبرة حتى أزالوهم عن مواقعهم ، وفي ذلك يقول أحد شعراء البادية . ويسمون هذا النوع من الشعر « المجرور » :

عكا به رموك . من شرقرق وشبرة . يبنندق ميازر

ولا الله فتك فيك . تظلين عبره . لكل النواظر !

والبنديق في اصطلاحهم رصاص البندقيات ولعله أصبح اسم يمكن اطلاقه على الخرطوش ، والميازر في بيتي هذا الشاعر جمع موزر كانه أرجعها الى اصل عربي فجمعها كما يجمع مسجد على مساجد ولكن كان عليه ان يقول « موازر » كموقد ومواقد ، وقد عقدت فصلا في الذيل للشعر في البادية تجده في أواخر هذا الكتاب . وأما قوله « ولا الله » فهو في اصطلاحهم « واذا الله »

شعاب الماء - طريق كالوادي تحت جبل « ابو نقطة » وهذه الطريق تتصل بالهدة فككة ، وهي غير الدرب الذي بين جبلي « ابو نقطة » و « السويقة » السابق ذكره في الكلام على السويقة .

شهار - قرية معروفة في الطائف ، قيل ان النبي (ص) لما هاجم الطائف بعد فراغه من غزوة حنين جاء عن طريق « لية » حتى قرب من حصن الطائف فوقف هناك وأمر بشهر الاسلحة ، قسمي ذلك الموضع شهارا بشهر الاسلحة فيه .
الشهداء - هضبة معروفة في شرق الطائف .

الصخرة - في عقود الطائف أنها قرية قديمة كبيرة يبلغ أهلها أربعين وفيها ٢٢ بيتاً . ولم يتفق لي ان اراها أو أعرفها .

الصخيرة - من قرى وادي جفن الكبيرة فيها بساتين وزروع ، ذكر لي انها موجودة ولم أرها .

صعب - قرية في آخر المنشاة من وادي وج الى غرب الطائف . سميت باسم جبل مجاور لها يدعى « صعبا » وهو في واد امام جبل المحرق .

الصفاة - قرية كبيرة عامرة بعد الرئيسية ، فيها نحو ثلاثين داراً وأربع آبار واربع مزارع منها مزرعة للشريف فهد بن شاكر والثلاث للأعصمة . وهذه القرية هي منتهى حدود اقليم في اصطلاحهم وبعدها ييسير قرية ام الحضر السابق وصفها .
الصهية - ذكرها الفاكه في قرى القرن من وج ولم أعرفها .

العبايد - قرية في وادي لقيم ، فيها مزارع وبضعة بيوت وبئر ماء . وهي قبل قرية الفقهاء وبعد الخضاري . تبعد عن الطائف الى الشرق مسيرة ساعة ونصف .

العبلاء - قال الفاكه في : قرية كبيرة عند حصن جاهلي في اية .
بئر عجلان - من أشهر آبار الطائف ، وماؤها من اعذب مياهه ، وهي في قرية الآبار .

العرج - قرية كبيرة من قرى الطائف ، الى شرقه ، تلي وادي الخزار بعد مسافة . كانت من أنضر قرى هذه الديار وأجملها حتى أنهم كانوا يدعونها « مصر الصغيرة » ثم قلت مياهها فنجف بعض مزارعها وزال رونقها . وفي كتاب اشراف مكة وامرائها أنها كانت عام ١٢١٦ هـ من أعمر القرى ومن أكثرها ماء ، ومروجاً وذكر أن حادثة نشبت فيها في ذلك العام فاحترقت دورها ونهبت مواشها . ولكنها بعد ذلك استعادت شبابها ثم تضاءلت منذ بضع سنين . . والى هذه القرية (أو الوادي كما سماها بعض المؤرخين) ينسب الشاعر المعروف بالعرجي وقد سبقت الإشارة اليه في رجال الطائف . وفي معجم البلدان لياقوت : العرج أول تهامة ، في بلاد هذيل . وهي غير العرج الذي بين مكة والمدننه وغير العرج الذي في اليمن بين المحالب والمهجم .

العقيق - قرية أقرب الى الصغر ، موازية لشجرة على غربها . وفي بعض كتب التاريخ انها قرية المقداد بن الاسود الصحابي . وبها ثلاث آبار : بئر المقداد وبئر الزبير وبئر عكرمة ، وقد قلت مياه هذه الآبار الآن وجف بعضها .

عكابة - جبل قرب الطائف الى شرقه ، مقابل لشجرة ، محاذ لشرق ، تقدم الكلام عليه في شرقق .

العكرمية - قرية بالقرب من العقيق ، تنبع قريباً منها البئر المسماة نجمة المملوكة . لم أرها . وعارفوها كثيرون .

قرية الغنامين - قرية كبيرة كثيرة المزارع والفواكه ، تقع في أواخر وادي لقيم ، الى شرق الطائف ، بعد قرية البخاتين وقبل مزارع ام هيثم . فيها نحو عشرين بيتاً وخمسة بساتين وست آبار وبها أراض (ويسمونها الركبان) تزرع حبوباً وبها خوخ وسفرجل ورمان وعنب وتين .

الغفر - مزارع للشريف شرف في أم الفضلين عند قرية الخليطي في لقيم . الفضيلة - بئر في مزارع النوامي الآتي ذكرها .

الفتحاء - قرية في لقيم وراء قرية العبايد . فيها نحو عشرة بيوت وبها مزارع وأشجار وبئر ماء ، تسمى الخضيرة . وهذه القرية قبل قرية الخضراء .
القديرة - قرية كبيرة تبعد عن ام الحمض الى الشرق مسيرة ربع ساعة ، وبعدها عن الطائف مسافة ساعتين ونصف . وهي خلف لقيم . فيها نحو خمسين بيتاً وسبع آبار ومزارع حبوب .

قروة - هي قرية الآبار السالف ذكرها لاتعرف اليوم بغير « قروة » مشتملة على دور متعددة بلغت حد الكثرة وفيها خمسة عشر بستاناً .

القرن - قرية عامرة ، وقد يقال لها وادي القرن ، على طريق المسافرين من الطائف الى مكة قبيل الهدية في وادي الحرم . وفي هذه القرية يكون الاحرام . وكانت في أيام العجمي خربة وسماها « القرنين » بالتصغير قال في تاريخه : « جاء في القاموس القرنين قرية بالطائف . وهي الآن خربة » ولعل القرنين غير القرن ولكنهم لا يعرفون اليوم قرية تدعى بهذا الاسم على صيغة المصغر .

قحلة - قرية صغيرة عامرة ، قبل وادي الجفجف في الطريق اليه ، محاذية للحزمان شرق الطائف ، فيها بساتين ودور وزروع مختلفة .

لقيم - واد طويل خصيب يجتاز في أقل من ساعتين ، اوله مزارع الشدايين بعد المليساء ، وآخره قرية الصفاة على ما يزعمون وعندي أن آخره جبل رغاف . وهو كثير القرى والمزارع ، وقد أتيت على اسمائها في مواضعها . وفي كتاب العجيمي أن لقيماً قرية كبيرة مشتملة على بساتين ومزارع وآبار . ثم قال : وهي مسكن جماعة من ثقيف يقال لهم الحدة وقد قتل صناديدهم الشريف زيد بن محسن في حدود سنة ١٠٤٠ هـ لخروجهم عن طاعته اهـ . والذي صح عندي أن جماعة ثقيف يسكنون قرية المليساء وقد تدعى باسم الحدة الذين ذكرهم العجيمي لسكنائهم بها الى الآن . اما لقيم ففيه من ثقيف وغيرها من قبائل العرب عدد غير قليل منتشرون في مزارع هذا الوادي وقراه . وأما إطلاق اسم القرية عليه فلا أعلم له وجهاً إلا ان كانت فيه قرية تدعى لقيماً تغير اسمها بعد زمن العجيمي وأطلق الاسم على الوادي كله .

لية - واد أكبر من وادي لقيم ، كثير المواضع ، وفير الري ، في أول طريق السيل الى جهة الشرق الجنوبي ، أثمرت اليه في كثير مما تقدم . قال ياقوت : ولية بتشديدها من نواحي الطائف مر به رسول الله (ص) حين انصرافه من حنين يريد الطائف ، وأمر وهو به أن يهدم حصن ملك بن عوف قائد غطفان . قال غيلان بن سهم :

جلينا الخيل من أكناف وج لية نحوم بالدار عيننا

وقال الفاكهي : لية على ثمانية أميال من الطائف الى الجنوب وهي واد كبير خصيب ، اختلف المؤرخون بها أهى من الطائف ام لا . وفي كتاب العجيمي ما يؤيد أنها من الطائف . والطائفيون يرون أن لية ليس من أوديتهم .

المنشاة - موضع في وج على غرب الطائف ، فيه قرى وبساتين ومزارع . خرجنا اليه يوم ١٤ صفر فكننا بينما نحن نسلك سفح جبل عن يميننا تلقى النظرات على ما في اليسار فيتمثل لنا منظر الربوة الغناء في دمشق أمام السالك على سفح قاسيون !

وانتهى بنا السير الى نيف وخمسة كيلو مترات عن المدينة ففرزلنا بستاناً من بساتين المثناة نخترقه عين ماء تترقق في قناتها ، يسمونها عين الخبزة (وقد مر ذكرها) ولبنّا أمام العين فجلب لنا سفرجل قطف أمانا وهو في غاية الجودة كلما حمل من زبداني الشام ، ورأينا أصحاب البستان يحصدون الشعير فعجبنا من ذلك ونحن في أواخر تشرين الاول (سبتمبر) وما كنا لنخاله موسم حصاد غير أن العجب لم يلبث ان زال حين علمنا ان هذه الاراضي تجود بمحصولين في العام يحصد الاول في الخريف والثاني في الربيع مما لا نعرفه في بلادنا . ولما مالت الشمس الى الغروب صعدنا جبلا مقابلا للمثناة لم نعرف اسمه فرأينا اجمل منظر شهدناه في الطائف : ذلك وادي وج الرحيب ، وحدائق المثناة الخضراء ، وهي من أخصب الارضين في هذه الديار وفيها أبنية عامرة وأخرى عثت بها أيدي النوازل والسنين وكان القمر في ليلة تمامه فجعل يصعد أمانا صعوده البطيء ، وارتفع صغير العصفير طرباً بتوديع الهاجرة ثم لم نلبث أن عدنا الى منازلنا والليل في إبانته .

المحترق - من جبال الطائف المشهورة ، حجارتها أميل الى السواد من غيرها ، يقع في أعلى المثناة ويقابله واد به جبل « صعب » السابق ذكره .

المحرم - اذا اعتبرنا جبل كرا الفاصل بين حدود مكة والطائف دخل وادي المحرم في حدود الطائف ، وهو واد مشهور معروف تقدم الكلام عليه في حديث سيرنا من الهدى الى الطائف .

المدهون - في الطائف جبلان كلاهما يدعى المدهون ، احدهما : عن يمين الذاهب من الطائف مغرباً يلي أرض المثناة بطريق وج . والثاني عن يسار الذاهب من الطائف مشرقا يقابل أول أرض شبرة ، وكأنهما كانا متصلين فخرقتها السيول لان الفاصل بينهما غير عظيم البعد .

المرقبة - قرية في وادي لية ، كانت تقام فيها سوق من عهد الشريف حسن ابن عجلان وفيها مسجد ، وقد بطلت إقامة السوق منذ زمن .

المريسية - قرية كبيرة ذات آبار خمس وبستانين فيها غناب ورمال وتين وحض وتفاع ونخل ولجون ، وبها نحو عشرين داراً وأربعة منازل كبيرة للامراء

والاشراف . وهي في وادي لقيم على مسيرة ساعة ونصف من الطائف الى الشرق مجاورة لمزارع الخضرا (بالقصر) التي قلنا ان على بئرها محركا وضع حديثا . وهذه البئر معروفة باسم بئر « المريسية » وهي بعد قرية أم صدين .

مسرة - جبل عظيم كثير التعاريج يسلك الذاهب بين مكة والطائف جانبا منه وقد تسكلمنا عنه في طريقنا من الهدة الى الطائف .

المسمع - قال الفاكهي : من قرى وادي لية .

معشي - قرية غرب الطائف لا تبعد عنه كثيرا ، يظنها بعض أهل الطائف قرية الهضبة التي ذكرها العجمي وانما الهضبة الطائف .

ملح - قرية في وادي لية معروفة ، فيها بيوت ومزارع .

المليساء - قرية كبيرة من قرى الطائف ، قبل وادي لقيم للذاهب اليه ، يسكنها جانب كبير من عشيرة الحمدة وقد تعرف باسمهم (انظر الحمدة) . فيها نحو ٦٠ منزلا ورجالها نيف ومئة ولعل نفوسها تناهز ثلاث مئة ، وهي مشهورة في قرى الطائف بمجودة سفرجلها ، وفيها كروم عنب ومزارع حنطة وشعير . وكانت فيها عدة آبار جف بعضها . وهي قبيل بئر الحماضية التي تقدم ذكرها وتكاد تلاصقها . تبعد عن الطائف نحو خمسة كيلو مترات .

منيفة - ذكرها بعض متأخري المؤرخين في قرى وادي لية ولم التحقق وجودها .

نجمة المملوكة - بئر مشهورة بكثرة مأها وهي لفريق من الاشراف على مقربة من قرية العكرمية .

نخب - بفتح فكسر . واد بين الطائف ولية . له ذكر في التاريخ والشعر ، وفيه بيوت كثيرة ونحو عشرة بساتين ، يسكنه الآن عرب « وقدان » وهم قبيلة من عتيبة . وفي كتابي العجمي ياقوت أن سكانه هذيل . ولعلمهم كانوا قاطنيه في السابق ثم جلوا عنه . وكلام ياقوت في المعجم : « نخب واد بالطائف وانشد :
حتى سمعت بكم ودعتم نخبنا ما كان هذا يحين النفر من نخب

قال : وهو بأرض هذيل وقيل واد من الطائف على ساعتين مر به النبي (ص) من طريق يقال لها الضيقة ثم خرج منها على نخب حتى نزل تحت سدره يقال لها

الصادرة . ورواه الاخفش بفتحين اه كلامه

ورواية الفتح فالكسر في نخب هي الصحيحة خلافاً للاخفش فان أهله لا يزالون يسمونه بها رغم مرور الاعوام والاحقاب ، فلا مجال للخلاف .

النصيلة - مزارع في وادي الجفجف ، ذات بسانين واشجار ، ولا فواكه فيها بل اشجارها من نوع النبق وزروعها انواع الحبوب وهي بعد مزارع جبرة وقبل دحلة .

حصن النقرة - النقرة طائفة من ثقيف لم أسمع بها في رحلتي . وهذا الحصن يظن انه الحصن الذي نزل بقربه النبي (ص) في غزوة الطائف فقد قال المرجاني

انه باق الى الآن بالبناء الجاهلي . ونقل العجمي ان فيه أربعين بيتاً وفيه بئر وتنين عظيم يمنعه من البناء فيه إلا أن يذبحوا عنده (!) وهو بالقرب من مسجد الحجاج بن يوسف وكان قد عمر هذا المسجد بتربة حمراء يؤتى بها من اليمن ، ولم يبق إلا آثار

المسجد ومنازته خراب . ثم قال : وهذا الحصن موجود على ما ذكره المرجاني وقد وصلت اليه ورأيت آثار المنارة ومسجد الحجاج واما التنين فانه فقد منذ سنين

وحوله بيوت وبساتين . والشائع عند أهل القرية ان بيت عبدالله بن عباس فيها . اه وهذا الحصن في وادي لية لم تتيسر لي زيارته وعندى شك في بقائه الى الآن .

النوامي - مزارع في أوائل وادي لقيم من جهة الطائف للشریف شاكرو . فيها أراض كبيرة بعضها مزروع . وفيها بئر الفضيلة الآنف ذكرها وهذه المزارع بعد

أم الفضلين وقبل الحضاري .

الهضبة - ذكرها العجمي فقال : قرية كثيرة البيوت جداً ، بدئت عمارتها بعد الاف ثم زادت بيوتها بعد أن خربت السلامة .

وهي الآن غير معروفة ويظنها بعض فضلاء الطائف قرية معشي السابق ذكرها ، لوقوعها تحت هضبة تعرف اليوم باسم هضبة معشي . والصحيح ما ذكرناه

في الكلام على داخل السور من انها هي بلد الطائف نفسه .

الهدية - تقدم للكلام على الهدية فصل خاص في أوائل هذا الكتاب وقد يعدونه آخر حدود الطائف للسائر الى مكة كما يعدون الكرك آخر حدود مكة للذهاب الى الطائف يفصل بينهما جبل كرا وهو الحد الطبيعي . ولاهل البلدين في هذا اقوال .

الهميلة - كان يجدر بنا أن نهملها ! قرية لها شي ، من القدم تقع في آخر وادي جفيف وقبيل عطفة وادي الخرار ، خربت كلها ولم يبق منها غير دار واحدة كأنها خربة ولا سكان فيها .

الواثليتان - الشرقية والغربية : قريتان في وادي لية .

وج - واد عظيم في ديار الطائف الى غربها يمتد بين جبلي المحترق والاصحجرين طولاً وبين جبلي المدهون وأم السكارى عرضاً . وهو أشهر أودية الطائف ومواضعها حتى أن بعض المؤرخين اطلقوا لفظ وج على الطائف كلها عمراتها وقراها وارديتها ، وفيهم من يرى أن وادي وج عرف قبيل الطائف وأن قرى الطائف ومدينته بنيت فيه . وبهذا جاء الحديث الشريف : « آخر وطأة الله يوم وج » وفسروا الوطأة هنا بالغزاة وكانت غزوة الطائف آخر غزوات النبي صلى الله عليه وسلم . اما المعروف اليوم عند أهل الطائف فهو أن وجاً هو ذلك الوادي الذي اشرنا الى حدوده وهو خارج عن الطائف . واكثر المؤرخين يرون انه سمي وجاً بنزول احد العماقة به في العصر الغابرة ، قالوا : وهو وج بن عبد الحق (او عبد الحي) . وزاد ابن عراق ^(١) ان هذا العملاق كان من أهل نجد يقيم في هذا الوادي مدة فصل الصيف .

ولم يمر به النبي في غزوة الطائف ، لانه جاءه من طريق السيل فوادي لية وهو على شرق الطائف منحرفاً قليلاً الى الجنوب . فيتضح من هذا أن اسم وج كان يطلق الى ما بعد العصر الاسلامي بتقليل على جميع الطائف ثم خص بهذا الوادي المعروف الى يومنا . وهو كثير القرى والمزارع والآبار والسكان والبساتين . كانت بساتينه في أواخر القرن العاشر نيفاً وستين بستاناً . وقد أهل بعضها اخيراً لقلة الامطار غير أن ذلك لم يؤثر في عمران هذا الوادي وخصبه . وهو على يسار

(١) ابن عراق : هو الشيخ نور الدين علي بن محمد بن عراق الشامي . من مؤرخي الطائف له رسالة فيه سماها « نشر الطائف في قطر الطائف » رأيتها بمكة مخطوطة لا تتجاوز السكراس .

الذاهب من الطائف الى مكة وعلى يمين القادم من مكة . يبتدىء بعد الطائف بمسافة غير بعيدة .

الوزير - هي القرية المعروفة الآن باسم « الزوران » من القرى الصغيرة في وادي لية .

الوسطى - مزارع في أواسط لقيم لقبيلة الاعصمة ، فيها بئر واحدة . وهي بعد مزارع أم هيثم وقبل الحادمية .

الوهط - بستان كان لعمر بن العاص ، مرت الاشارة اليه ، وهو الآن قرية على ثلاثة أميال من وج يراها المؤرخون آخر حدود الطائف من غربه . فيها عين ماء كانت تعرف بعين الازرق وتعرف اليوم بعين الوهط . وقال الفاكهي في الكلام على الوهط في عصره : هي قرية قريش وأم قرى الطائف .

وفي أمثال الميذاني نبذة أوردها في كلامه على دهاء عمرو بن العاص . قال : وبحكى من دهاء عمرو أن معاوية قال له يوماً : هب لي الوهط ياعمر بن واسألني ما سألت . فقال : هو لك . ثم قال لمعاوية : وقد بقيت مسألتي . فقال : أنت بكل ما سألت مسعف . قال ترد لي الوهط ! فمجب معاوية من دهائه ، وقال : لك هو ! الوهيط - قرية خلف الوهط فيها ثلاثة بيوت وبها عين وبستان

قبائل الطائف

« عتيبة . ثقيف ، شابة ، خندف »

ترجع قبائل الطائف في أنسابها اليوم الى أصلين كبيرين أحدهما عتيبة ، والثاني ثقيف . وانا ذاكر ما وصلت الى معرفته من أسماء الفريتين كما يلفظونها هم :

فمن عتيبة ^(١) : الجعدة ^(٢) . والوذانين ^(٣) . والسوطه ^(٤) . والاعصمة ^(٥) والدعاجين . والزود ، وقريش ، والثبتة ^(٦) . والمقطه ^(٧) . والروقه ^(٨) (ومن هذه : الزراريق وطلحة ومزحم) وذووعالي ، والذبية . والفلة . والنخشه ^(٩)

(١) بضم أوله . (٢) بسكون الجيم وفتح العين . (٣) بفتح الواو والذال (٤) بسكون السين وضم الواو (٥) بسكون العين وكسر الصاد (٦) كالعصمة (٧) كالجعدة (٨) بضم الراء المشددة (٩) الثلاث الاخيرات بوزن الجمدة

وبنو الحارث (ومنهم ناصرة - وهم أهل قرى في الحجاز - والشدادين ، وذو حطاب . وهما بداءة)

ومن ثقيف : قريش الحضرم . قريش البدو . بنو سفيان (وهم أكثرهم عدداً وينقسمون الى الخاذ كثيرة) وطويرق (منهم حضرم وبدو) ونماله . وبنو سالم . والصخيريون وعوف .

وفي العارفين بالانساب من يرجع بهذه القبائل الى اصلين أعلى من عتيبة وثقيف . وهما شباة وخندف . فاذا قيل شباة اندجحت بها قبائل عتيبة كلها وزيدت قبائل أخر لم تكن تنسب الى عتيبة ولا ثقيف وهي من سكان ديار الطائف . واذا قيل خندف اندجحت بها ثقيف كلها وزيدت قبائل ايضاً .

فاذا رجعنا الى هذين الاصليين : شباة وخندف ، أضفنا الى عتيبة القبائل الآتية لتسكون منها جميعها شباة : بني الحارث ، بني سعد (وهم رؤوس شباة) وحرب ، وقحطان (وهم أقدم قبائلهم) .

ونضيف الى ثقيف القبائل الآتية لتسكون من جميعها خندف : البقوم ، سبيع ، الجحاذلة ، الشيايين ، مطير ، هذيل (ومنها بنو خالد ، والتدويون ، والعلويون . وقد يستنرب مطالع هذه الرحلة تقسيمنا القبائل أولاً الى أصلي (عتيبة وثقيف) ثم الى اصليين أرفع طبقة (شباة وخندف) ويقول : ما بال صاحبنا لم يكتب بشباة وخندف فيعدد لنا قبائلها ولا يشغلنا بمرجعين ؟

وانما يعرف الفائدة من هذا التقسيم من كان له بالقبائل اقل اختلاط اذ يجد الصربخ اذا نادى يال عتيبة ! تهافتت عليه قبائل عتيبة وتحلف المنتسبون الى شباة مباشرة . وإن نادى يال ثقيف ! أجابته قبائلها وتحلف المنتسبون الى خندف مباشرة . وقد ينادي : يال شباة فتجتمع كلها وعتيبة فيها . أو يال خندف فتجتمع كلها وثقيف فيها .

تلك تقاليد للعرب قديمة غير حديثة ، ولعل عرب البادية أحرص الناس على أنسابهم وأشدهم تعصباً لاصولهم ، فانك لا ترى في الحواضر ما تراه في البوادي من معرفة كل رجل نسبه ، اللهم الا العيال القديمة العريقة في أنسابها .

الرحلة الحجازية

في جملة ما عثرت عليه بالطائف من الكتب المخطوطة قطعة من كتاب للعالم المكي المرحوم الشيخ عثمان الرازي^(١) وضعه في نقد الرحلة الحجازية لمحمد لييب

(١) هو الشيخ الاديب الشاعر عثمان بن الشيخ محمد بن ابى بكر بن محمد الرازي من كبار علماء الادب في الديار الحجازية ومن شعراء طبقتها الاولى في عصره له ديوان شعر يقع في مجلدين ، وكتاب في البديع سماه « الانوار الحمديدية » شرح به بديعية لعبدالله فريج فجاء من اكمل شروح البديعيات وأغزرها مادة وأكثرها أخبارا عن الادب والادباء في مجلد ضخم صفحاته تقارب ست مئة ، خطه جميل لا عيب فيه الا ركة البديعية المشروحة . ولد الشيخ عثمان سنة ١٢٦٠ هـ وتوفي سنة ١٣٣١ هـ ، من شعره بديعية نبوية قال فيها :

(الاستدراك) قالوا نرى لك صبرا بعد فرقتهم

فقلت مستدركا لكنه بغمي

(التوشيع) زادوا هيامي بتوشيع السلام لهم

من صولة الجائرين البين والعدم

(المغالطة) غلطتهم حين قالوا أين منزلهم

ومن هم قلت أهل البان والعلم

(الغيرة) انى اغار عليهم أن أسميهم

وهم بقلبي وأشكو حرّ بينهم

(المنافضة) له - م لدي عهد لست اتقضها

الا اذا شئت اوشا الهوى عذمي

(القسم) لا بلغتني المعالي من تناولها

ان لم أكن في ولائى صادق القسم

وله من قصيدة طويلة :

لله معهد انسا ما بين وج والغدير - مغنى تحال قبايه في البهوهالات البدور
يسمو بروقه على حسن الخورنق والسدير - كم فيه من بدر تكحل بالدلال على الفتور
او شمس حسن بالجمالي - تقنعت لا بالحرير

بك البتدوني . وقد توفي الشيخ عثمان قبل أن ينجز هذا الكتاب . فرأيت أن الخصب ما أصبته منه حرصاً على مادته من الضياع والانتثار . وعسى أن ينظر صاحب الرحلة الفاضل في ما جاء به الناقد فيصلح ما يرى اصلاحه عند اعادة طبع رحلته :

٦ - جاء في الرحلة ص ٢٩ من الطبعة الاولى و٢٣ من اثنائية : « أن السراي التي نزل بها الخديوي عباس في مكة المكرمة كان قد بناها محمد علي باشا المصري سنة ١٢٨٨ هـ لتكون داراً لحكومة الحجاز - الى قوله - لانه هو الذي عين في اماره مكة جدهم الشريف محمد بن عون سنة ١٢٢٩ هـ » قال الرازي ما ملخصه : ان هذه السراي او دار الامارة انما بناها أمير مكة الشريف محمد بن عون وقد ساعده محمد علي باشا على البدء بعمارها بشيء من المال اهداه اياه . واما اسناد تعيين الشريف محمد اميراً على مكة الى محمد علي باشا . فالصواب فيه ان محمد علي كتب الى حكومة الاستانة يرشح محمداً وهو ضيف عنده في مصر اذ ذاك فلبته الحكومة وصدر أمر السلطان محمود الثاني بتعيين الشريف محمد وذلك في افتتاح سنة ١٢٤٣ هـ ^(١)

٢ - جاء في الرحلة ص ٣٤ من الاولى في ذكر قبر عبدالله بن الزبير (رض) : « وكانت له قبة هدمها الشريف .. » قال الرازي : لم تكن له قبة بل كان له بناء صغير مسقوف هدمه الشريف المذكور .

٣ - في الرحلة ص ٥١ من الاولى و٣٩ من الثانية : « وفي مدة الموسم ترى أهل البلاد ولا سيما الاعراب يضعون دائماً سدادتين من القطن في فتحتي مناخرهم بعد أن

(١) وفي كلام الرازي فوائد تاريخية اوردها في هذا الفصل نوجزها هنا حفظاً لها لا لملاقتها ببحثنا :

- كانت مدة غياب محمد علي باشا عن مصر للقيام بما انتدبته له حكومة الاستانة من قتال الوهابيين في الحجاز سنة وتسعة أشهر وذلك من منتصف شوال ١٢٢٨ هـ الى رجب ١٢٣٠ هـ .

- تمت عمارة دار الامارة بمكة سنة ١٢٥٩ هـ

- كانت حكومة مصر واسطة المخابرات الرسمية بين الحجاز والاستانة في أيام محمد علي باشا وكان هذا ينظر في شؤون الحجاز منذ دعي لاجراج الوهابيين منه . اهـ

يفغزوها بدهن المرويسمونها الصائم الخ » قال الرازي : ولعمري ماسمعنا قط ولا علمنا ان احداً من طرق هذه الرحاب المقدسة لنسك او غيره قال هذا القول ولا شهدنا نحن أهلها ولا شهد أحد من الحجاج ولا غيرهم أن أهل البلاد أو الاعراب يصنعون ذلك — الى قوله — وهب ان مؤلف الرحلة رأى واحداً أو عشرة مثلاً في موسم يحتوي على أكثر من مئة الف من أصناف الناس قبل يجوز له أن يبردها من عادات أهل البلاد وهم لا يعرفونها ؟ الخ

٤ في الرحلة ص ٥٣ من الاولى و٤١ من الثانية توهم صاحب الرحلة القدم في بعض بيوت مكة . قال الرازي : ان هذه البيوت التي اشار اليها كالدهلوي والساب ورذة وناقرو ومرزا ، ومن ذكر من الحضارم والشوام والترك ، لاشيء لها من القدم بل كلها ممن جاوروا بمكة انفسهم ، واما البيوت القديمة في مكة فمنها الشييون سدة البيت الحرام والزمزميون والسقاطيون وبيت ابن علان وبيت الخطاب وأمثالهم .

٥ في الصفحة نفسها من الاولى واتي تليها من الثانية في وصف أهل مكة « فبينما نرى الرجل منهم قد آسك برقة حديثه معك وضعت بين يديك ، تراه قد استوحش منك الخ الخ » ردّ عليه الرازي ردّاً مسهباً في إحدى عشرة صفحة جاء فيها : ان كل اقامة صاحب الرحلة بمكة لم تبلغ عشرة أيام قضاها في خدمة الجنب الخديوي والتهيو لصعود عرفة وطلوع منى وعرفة والاشتغال بالمناسك والتبريك والمعابدة ، فأين الوقت الذي استطاع به أن يختلط بأهل مكة وتتكرر محادثته معهم حتى اختبر طبائعهم الخ . ثم أتى على جانب كبير مما جاء في فضل مكة وأهلها وسكانها .

٦ جاء في الرحلة ص ٥٤ من الاولى و٤٢ من الثانية . « والذي يؤسف له ان هذا الخلط وصل الى لغتهم الخ » قال الرازي : ان ما عاب به صاحب الرحلة المكيين من نطقهم ببعض الكلمات على غير أصلاها الصحيح الفصيح ، لا تنفرد فيه مكة بل هو شائع في أكثر لهجات البلاد العربية ومصر في جملتها .

ثم بحث في كلمات ظنها صاحب الرحلة خطأ وعدّها مما أوجب أسفه ، فأبان

الراضي تسلسلها عن العربية الفصحى كقولهم « ابيض » للاستحسان — مجازاً —
و « زل » بمعنى مرّ و « زله » للرجل و « ازهم خلائاً » أي ادعه و « اندر » أي
اخرج و « الصمادة » للكوفية الخ .

٧ جاء في الرحلة ص ٦٢ من الاولى و ٥٨ من الثانية : « وفي مكة قلعتان
تحكمان على المدينة الخ » قال الراضي : بل القلاع ثلاث لا اثنتان .

٨ في الرحلة ص ٥٨ من الثانية : « وبها مطبعة للولاية تسمى باسمها » قال
الراضي : بل بمكة مطبعتان لا واحدة ، احدها للحكومة كما ذكر والثانية بالفلق
لاحد اغنياء مكة .

٩ في الرحلة ص ٨٥ من الاولى و ٩٨ من الثانية : « وفي المسجد ست منارات »
قال الراضي : والصواب سبع لأن مؤلف الرحلة لم يذكر بياض الزيادة غير واحدة
وهما ثنتان .

١٠ في الرحلة ص ٨٦ من الاولى و ٩٩ من الثانية : « الحنفي يتدي ، بالصلاة
في جميع الاوقات ويتلوه المالكي ثم الشافعي ثم الحنبلي » قال الراضي : هذا غير
صحيح وانما الاوقات التي يتدي ، فيها الحنفي بالصلاة أربعة : الظهر والعصر
والمغرب والعشاء ويتلوه في كلها الشافعي لا المالكي ثم يصلي المالكي ثم الحنبلي .
أما وقت الصبح فييتدي فيه الشافعي ويتلوه المالكي ثم الحنبلي ، ويتأخر الحنفي
في الصبح عن الجميع للاسفار ، والمغرب لا يصلي فيه غير الحنفي ثم الشافعي فقط .
وهذه العادة بمكة منذ مئتي سنة وقد كان الشافعي في السابق يتقدم في الاوقات كلها .

١١ في الصفحة نفسها من الرحلة : « إن أهل كل جهة من العالم الاسلامي يجلسون
عادة من الحرم في الجهة التي يستقبلون بها الكعبة في بلادهم الخ » قال الراضي :
ذلك غير صواب فان أهل كل جهة من العالم الاسلامي لهم مطوّف مخصوص وزمزمي
مخصوص فكل جنس من الحجاج تبع لزمزميه حيث يفرش لهم الحصر وربما كان
للجنس الواحد من الحجاج زمزمة متعددة و ربما كان للزمزمي الواحد اجناس
متعددة إلا الاعجام فانهم يجلسون عند باب السلام لانهم لازمزمي لهم الخ .

١٢ في الرحلة ص ٩١ من الاولى و ١٠٨ من الثانية : « وتفتح الكعبة في

العاشر من المحرم للرجال الخ» قال الرازي : جاء كثير من الخطاء في هذا البحث فقله انها تفتح في ليلة الحادي عشر منه للنساء لاحتية له ومثله قوله وفي مسائه للنساء وقوله في العشرين منه لغسيل الكعبة ليس بصواب فربما تأخر أو تقدم ، وقوله « وفي أول جمعة من رجب للرجال وفي تاليه للنساء » قال الرازي : لاحتية له ولا معنى !

١٣ في الرحلة ص ٩٤ من الاولى و١٠٧ من الثانية : و « في الجدار الشمالي مكتوب على باب التوبة هذه الايات — واورد الايات — وعلق عليها في الهامش قائلا : « ومن هذا الشعر يمكنك أن تحكم على مقدار تأخر اللغة العربية في بلاد العرب وخصوصاً في القريص منها حوالي القرن الحادي عشر للهجرة — لان الايات نقشت فيه — » قال الرازي : ان ناظم الايات غير عربي اللسان ، وقد أوضح الناظم ذلك بقوله في الايات : قال تاريخاً له قاضي البلد الخ . وهذا القاضي كان تركياً تولى قضاء مكة من باب المشيخة في الآستانة وكان ممن يعاونون الادب فلما تم ترميم الجدار نظم الناس في ذلك بمكة على العادة عندهم في كل تعبير أو ترميم فنظم مولانا القاضي هذه الايات وقدمها الى أمير مكة طالباً منه تقديمها على غيرها فلم يجد بداً من اجابة طلبه لانه تركي وقاض ، خصوصاً وقد كان تقديمها بواسطة الوالي الخ .

١٤ في الرحلة ص ١٠٢ من الاولى و١٢٥ من الثانية في الكلام على مقام ابراهيم : « وكان هذا الحجر قبل الاسلام موضوعاً بالمعجن الى جوار الكعبة ، ثم ابعد عنها الخ » قال الرازي : وهذا يخالف ما دلت عليه الاحاديث والاخبار . والادلة كثيرة في ان موضع المقام الشريف في الجاهلية والاسلام هو وضعه الآن » ثم اتى بمجيج من التاريخ لاغبار عليها .

هذه خلاصة ما جاء في الاوراق التي تضيفتها من رد الشيخ الرازي ، وهي كما ترى لم تتجاوز ثلث كتاب الرحلة .

الاوربت

« أيام الطائف ، هواجس النفس ، آلام عثرة ، الى مكة »

أهضينا نيفاً وعشرين يوماً في الطائف ، تركب البغال عصر كل يوم ، ونمضي الى جهة من جهاته ، فنبتعد مسيرة ساعة أو ساعتين أو أكثر ، نقب عما نسترشد اليه من الآثار ، وننظر في ما نمر به من الترى والديار ، ونترى في بعض الجنائن والبساتين ونعود بعد الغروب .

وكثيراً ما كانت جماعتنا تتألف من أمير الطائف^(١) ووكيل حربية الحجاز^(٢) وقاضي الطائف^(٣) ومدير شرطته^(٤) وفريق من ضباط الجيش ، فنجمع بين لذتي الرياضة والاستمراء ، والنزهة والاستطلاع ، ولطال ما كنا نعاين الصعاب في صعود بعض الجبال والهضاب ، غير أن اللذة في ما كان يلوح لنا من أثر أو منظر ، لم تبرح تشجعنا على المضي في التصعيد والتطويق والتشريق والتغريب ، وناهيك بما هنا لك من صفاء ، في الارض والسماء ، وسكون في الطبيعة والفضاء ، لولا ما كان يذتاب النفس - وللنفس حنين - من نزوع وتشوق ، وتطلع وتشوف ، الى ديار ، هي ديار صباتي ورباع أنسى ، وهوى هواي ومنبت غرسي ، ديار الشام

(١) الشريف شرف بن راجح .

(٢) صبرى باشا العزاوي ، من قبيلة عزة الخيمة في جوار بغداد . كان في الجيش التركي بالمدينة الى أن استسلمت حاميتها ودخلها الامير علي ، فتطوع ودخل في الجيش العربي فنصب رئيساً لاركان الحرب برتبة قائم مقام قديم « قدمي » ولما استقال قيسوني باشا المصري من وكالة حربية الحجاز اقيم مقامه صبري وجعلت رتبته « أمير لواء » وهو اليوم في سن الكهولة يغلب عليه صفاء السريرة وطيب القلب ، مقيم في الطائف مع القوى النظامية .

(٣) الشيخ عبد الله كمال : فاضل رضي الاخلاق باشر تأليف تاريخ للطائف ما أظنه أمه . بلغني أنه توفي مؤخراً سنة ١٣٤٠ هـ . وقد سبقت لنا كلمة عنه

(٤) الشيخ درويش الحدادني المعروف في الطائف بالحداديدي

المنكوبة ، بلاد الآمال والآلام ، سلام عليها والى سلام !
كذلك كانت تمر - بما فيها من حلاوة - أيامنا القليلة في الطائف ولقد عثرت بي
حرون من شمس البنال ، ذات مساء ، قبل العودة الى مكة بيضعة أيام ، فازمت
الفرش ، وعادتنى ذكريات البمدن الال والخلان ، وجعلت تطيف بي وساوسي
مهولة علي ببعده ما بيني وبين سوربة من مساوف البر والبحر . وم كنت اردد في
في نفسي قول ذلك الشاعر المتفجع :

وارحمتا للغريب ، في البلد النازح ، ماذا بنفسه صنعا !

فارق أحبابه ، فما انتفعوا بالعيش من بعده ، ولا انتفعا !

وزاد في آلامي فقد وسائل التريض في الطائف ، فصبرت ، أغالب الوجد
والوصب ، وبغالبنى الهم والنصب ، فاتفق قدوم الامير علي أكبر أبناء الملك
حسين وولي عهده ، الى الطائف في ذلك الحين فعادني وقد أقبلت على النقاها .
فاستأذنته مع من بقي من الرفاق ، بالابوة الى مكة ، فأذن . وعرفنا أن جلالة الملك
قد استبطنانا وأكثر من السؤال عنا ، فامتطينا مراكبنا ، وقفلنا راجعين ، نلقي على
الطائف ومن في الطائف النظرات تلو النظرات والتحيات بعد التحيات !

كان في النية أن نعود من طريق السيل (اليمانية) لحاجتين في النفس : إحداهما
الرغبة في أن نرى ما نمر به من قراها وأوديتها وشعابها ، ولا سيما عكاظ ، والثانية
حب الراحة بعد أن علمنا سهولة هذه وشهدنا وعوثة تلك ، ولم نكن لنبالي ببعده
اليمانية التي سنضطر في اجتيازها الى ضعفني مدة السير في طريق كرا . إلا أن
ما أكده لنا العارفون الخبثرون من أن انقطاع الناس عن المرور بهذه قد أبدلها
من أمنها خوفا ، أو كاد ، ألجأنا الى اختيار الاولى ، فسلكنها

بتنا ايلة في الهدى . وثانية في عرفات . وحملنا أم القرى ضحوة أول ربيع الاول
سنة ١٣٣٩ وقد ضعفت فيها سورة الحرب ابتداء فصل الشتاء ، فتلونا آية يا أيها النمل
ادخلوا مساكنكم . والقينا في عاصمة الملك العصا ، وما كانت لتستقر بنا النوى ،
وفي غيرها الهوى ، ولسكنها ايام وليال ، تمرّ مر الخيال ، بين ماض وتال . . .

في ضيافة الملك

« في قصره . نسبه وتاريخ حياته . إمارته . سيرته وأخلاقه . ثورته على الترك »
« عهود الخلفاء . مبايعته بالملك . بعد الحرب . عاداته »
« اولاده . قصص وأخبار »

الملك حسين في مكة قصران فخمان متقاربان ، أحدهما حديث العهد بالبناء ، جميل الطراز مفروش بالأثاث الفاخر يبيت فيه ، وهو مقر حرمه المصون . والثاني قديم البناء ضخم الحجم ، أوسع دائرة وأكثر غرقاً وأبهاء ، من الأول ، يقيم به نهاره فيه والهنوع الأول من الليل .

ولا يقتصر الثاني على كونه مقام جلالة الملك ، بل هو ثلاثة أقسام أو أربعة وإن شئت فقل خمسة ، في خمس طبقات لا يقل ما فيها عن مئة غرفة وقد قيل لي انها مئة وعشرون . وهذا القصر هو المعروف عند أهل مكة بدار الحكم أو « سراية سيدنا » وأما الأول فاسمه في مكة « بيت سيدنا »

يصعد الداخل في دار الحكم بضع درجات عريضة واسعة ، في أعلاها باب خديدي كبير يفتح فجر كل يوم ويفلق الساعة الرابعة بعد الغروب ، فيمر بدلهيز قصير ينتهي به الى ساحة رحبة يحيط بها البناء ، من جوانبها الاربعة إلا أن الجانبين الغربي والشمالي أشمخ وأرفع ، بل فيهما الغرف والمنازل والمساكن وكل شيء .

أما أرض هذه الساحة فبسيطة لا بلاط فيها ولا حجر ، تدخاها — من باب آخر — الجمال الخاصة بجلالة الملك فتناخ ويطرح أمامها طعامها فتأكل ، وقد تبيت في هذا المكان أو تقاد الى مكان ثان . يخاطبها في الساحة عدد من الاوز (ديك الحبش) وكباشان كبيران ، سمعت من جلالة الملك أنه رآهما وقد أفلتا من جزار كان يتودهما ليدبحهما فصعدا درجات القصر ، فأمر جلالاته بنقد الجزار منهما ، وحامهما ، وسبقيان عائشين في ظل قصره الى أن يلقيا حتفهما . وكذلك الاوز وغيره مما قد يدخل هذا البيت من أنواع الحيوان ، لا يذبح ولا يؤذى .

وعلى يمين الداخل في القصر سلم حجري يصعد به الصاعد فيرى في طبعته الاولى

غرفاً يسكنها رئيس كتاب جلالة الشيخ أحمد السقاف وبضعة كتاب ، وهناك غرفة للشاهي (الشاهي) والقهوة ، وغرفة للجلوس . وغرفة خاصة ، كثيراً ما كان يجلس فيها الأمير زيد أيام اقامته بمكة قبل انصرافه الاخير الى العراق

ويرتفع الصاعد الى الطبة الثانية ، فيرى عن يمينه مكاناً متسعاً يجلس فيه الشيخ ياسين البسيوني إمام جلالة الملك ، والمضايفي الخاص (الحاجب) سعد ، وبعض منتظري الدخول على حضرة الملك . وفي منتهاء باب خشبي كبير يخرج منه الى سطح مكشوف يجلس الملك على مقعد فوقه ، أكثر ايام الصيف ، فراراً من الحر .

وعن يسار الصاعد « المحلوان » وقد تقدمت لنا كلمة عنه ، وهو غرفة الملك الخاصة في أوقات سمره وخلواته وراحته . ويقابل الصاعد باب ثالث فيه غرفة تؤدي الى مكان أظنه أوسع ما في القصر طويلاً وعرضاً ، وفي هذا المكان يجلس الملك جلوسه العام للناس ، وفيه تقام صلاة المغرب كل ليلة ، فيصلي الملك ومن حضر من ابنائه وأحفاده وضيافته وخدمه وعبدانه . وفي الغرفة التي يدخل منها هذا المتسع ، توضع مائدة الطعام كل مساء لحاشية الملك وضيوفه وابنائهم .

واذا لم يصعد داخل القصر هذا السلم الايمن ، بل استمر داخل ساحته رأى عن يساره عدة ابواب ، بعضها منازل للضيوف وغيرهم ، وبعض متصل بالطبقات الثالثة والرابعة والخامسة . وهناك بيوت وغرف وأدور ، يتقطنها فريق كبير من نساء الاسرة الهاشمية . ولم أر أثر ذلك بل نقله لي ثمة من أهل البيت .

وفي احدى زوايا القصر مطبخ كبير ترسل منه في أوقات الطعام الصواني الكثيرة والقندور ولوازمها الى عدة بيوت وتوزع على سكان القصر كله والله العليم بعددهم .

وفي جانب من ساحة ارض القصر غرفة صغيرة ، في وسطها خرق ينزل منه نحو أربعين دركة الى جوف الارض ، حيث يرى النازل مكاناً مظلماً مخوفاً موحشاً ، يسكنه أناس من البشر مقيدون بالسلاسل ، يأثمهم من العيش مالا يكاد يسد أرواقهم ، ذلك المكان هو « القبو » المشهور ، وأولئك الملقون فيه هم سجناء جلالة الملك السياسيون والعسكريون والمتهمون بجرائم الشعب عليه ، وربما كان فيهم بعض أبناء

عشيرته الاقربين وبعض من كانوا في عناد حاشيته وخاصته ، اراد الله بهم
فسلط عليهم واشياً أو نماماً نزل بهم ذلك المنزل السحيق الرهيب ، حيث لاصوت
صارخ يسمع ، ولا شمس نهار تبصر ، ولا ضوء هلال يرى !

هذا ما رأيت أن أكتفي به مجلداً فيه الكلام على قصري صاحب الجلالة
بمكة . وقد كانت إقامتي في منزل من منازل « دار الحكم » وكان دأبي أن أقضي
حصّة الليل الاولى (السهرة) مع زوار جلالاته ، بين يديه ، وفي مخلوانه ، ثابرت على
ذلك مدة مكثي في هذا البلد الامين ، وهي تزيد على ثلاثة أشهر ، كان نصيبي منها
أن أرى جلالاته أكثر من ساعتين في كل ليلة من نيف وتسعين ليلة ، أسمع حديثه
مع المستمعين وأكله مع المتكلمين ، فعرفته في سروره ورضاه ، كما عرفته في كدوره
وغضبه ، ورأيت في جد الأمر وقلّ أن رأيت في لعبه . واجتمعت لي طائفة
كبيرة مما يحرص على العلم به الكثيرون ، من سيرة الملك العربي الهاشمي وخابره ،
وعاداته وأطواره ، وإنما أنا ناقل ما سمعت وما رأيت ، نقل الحدث لا المؤرخ ،
والمصور لا الكاتب ، متحريراً ابراد الحقيقة كما هي عارية مجردة . ولو استطعت
لاخذت بيد القاريء أريه ما وقعت عليه عيناى ، وأسمعه ما وعته اذناى . على أن
الخبر قد يغني عن الاختبار ، وفي الرواية ما قد يغني عن المشاهدة

..

في يوم من أيام سنة ١٢٧٠ للهجرة ، ولد في الاستانة الشريف حسين بن علي
ابن محمد بن عبد المعين بن عون بن محسن بن عبد الله بن حسين بن عبد الله بن
حسن بن أبي نجي (واسمه محمد) بن بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان
ابن رمية بن محمد بن الحسن بن علي بن قتادة بن ادريس بن مطاعن بن عبد
الكريم بن عيسى بن الحسين بن سليمان بن علي بن عبد الله بن محمد بن موسى
ابن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الامام الحسن
(سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم) ابن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن
هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن
فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار

ابن معد بن عدنان . ونسب عدنان متصل بإسماعيل بن إبراهيم الخليل . وفي النسابين من يرفع النسب الى نوح كما في سفر التكوين .

..

وانتقل الشريف علي (والد صاحب الترجمة) الى مكة ومعه ابنه حسين وهو يومئذ طفل في الثالثة من عمره ، فرباه في بيته وخاف فيه سنة غيره من الاشراف فلم يبعث به الى احدى القبائل المجاورة لمكة ولم ير به تربية بدوية خالصة يتلقن فيها أخلاق البداة في معاشهم ويتمرن على ركوب الخيل واحتمال المشاق ، فتشأ حضرياً مدنياً ، وأولع بالدرس والمطالعة فحفظ مبادي العربية وتفقه في شيء من أصول الدين وفروعه ، وأخذ عن بضعة أشياخ أشهرهم الراوية العلامة الشيخ محمد محمود التركي الشنقيطي تلقى عنه المعلقات السبع ، وهو لا يزال حتى اليوم يذكر قليلاً من بتايا ما تلقنه إياه هذا الاستاذ ، وواصل القراءة على العالم المؤرخ الشيخ احمد بن زيني دحلان صاحب الفتوحات الاسلامية والجدول المرضية وغيرها ، وحفظ القرآن الكريم قبل ان يتجاوز العشرين من سنه ، ورافقه في طلب العلم فتى مصري الأصل هو الشيخ ياسين البسيوني الذي لم يفتأ ملازماً له ، وهو إمامه في صلواته اليوم ، وقد سبقت الإشارة اليه .

واتفق ان كانت في ذلك العهد إمارة عمه الشريف عبدالله باشا ، فأحبه وقر به منه وعامله معاملة الأب لابنه . ثم جعل يسيره في المهمات ويوجهه لتدليل الصعاب ، فسافر في أيامه الى نجد ، وطاف أكثر ما يلي الحجاز من شرقه ، وعرف قبائل تلك الأنحاء ، وعشائرها ، واختبر خفاياها وظواهرها . ثم كان الصلة الدائمة بين إمارة مكة والقبائل الحجازية وغيرها . وزوجه عمه ابنة له اسمها « عبدة هانم » هي أم الامراء علي وعبدالله وفيصل . وأما زيد فأمه تركية من أكبر عائلات الترك تزوج بها بعد وفاة عبدة هانم . وهي من فضليات النساء ، يستشيرها اليوم في أكثر شؤونه ويعتمد عليها في كتمان أسرارها .

..

ومارس ركوب الخيل ، فوّلح بدخول ميادين السباق ، وعرف بالقوة والمقدرة

على ركوب أقسى الجياد وأصلبها . حدثني من لا أشك بنخبره أن الملك لم ينفك يبارز أشد الفرسان طراداً حتى شغلته شواغل الملك . ولقد رأيت ذات يوم واقفاً يريد الركوب ، وثلاثة عبيد من الأشداء الأقوياء يقودون جواداً كلما خطوا به خطوة ثار وشخر وانتفض ، فلم يزلوا يغالبونه حتى اقتربوا به من موقف الملك وهو الشيخ المسن ، فتقدم من الجواد فوضع إحدى رجليه في ركابه ووثب وثبة غير المبالي ، فعاد الجواد الى زيجرته وزهوه ، فلم يكن من الملك الا ان لطمه بقبضة يده لطمه واحدة في عنقه ، فذل الجواد ومشي هادئاً ساكناً أبداً به غيره . وحدثني من رأى الملك في موسم الحج فقال : كان راكباً جواداً أبيض ، وعليه لباس الاحرام الابيض ، وهو مكشوف الرأس الالامع شيئاً ، أبيض الوجه واللحية والشاربين ، فقال : كان ذلك منظرأً عجباً . .

..

وتمكن منه في أيام صباه حب اصطياد النمر والضباع والغزلان ، وقنص كواسر الطير وبواشقه ، فكان يكثر من التجوال في رفقة له يرحلون لرحيله وينزلون لنزوله ، فيتوغل في الجبال النائية والقفار الخالية ويعود بعد أيام أو أسابيع حاذل الوطاب يتبعه غنائه من وحش وطير

..

ولم يزل في مكة الى أن أوعزت اليه الحكومة التركية بمغادرتها سنة ١٣٠٩ هـ فبرحها الى الاستانة وتقلب هناك في مناصب رفيعة استمر بها الى ان توفي عمه عبد الاله باشا في ثالث شوال سنة ١٣٢٦ هـ وانتهت نوبة إمارة مكة اليه فولياها (جلالته) سادس شوال من السنة نفسها وأقام يتهيأ للسفر حتى كان يوم ٢٨ شوال فأبحر قاصداً الحجاز وبلغ جدة في ٩ ذي القعدة سنة ١٣٢٦ هـ فكان ذلك بدء إمارته بمكة

..

في نفس الملك حسين قوة وصلابة ليس من السهل التغلب عليهما ، وهو عنيد شديد لا يتقاد بالعرف ويصعب ان ينقاد بالدين ، وقد ظهرت صفاته هذه بارزة مجسمة منذ ولي إمارة مكة وحط في أم القرى رحاله ، فانه طارد خصومه وتسلم

(١٥) - ما رأيت وما سمعت

مقايد الامور بسهر دائم ويقظة وتحفظ ، وأبى أن يمشی مع جماعة الاتحاديين على العمياء ، فضاق به ذرعهم وأخذوا يتحينون له الفرص للقضاء على نفوذه ، ويوحون الى ولاتهم في الحجاز أن يراقبوه ويعدوا عليه أنفاسه حتى أنهم عزلوا واليا اسمه احمد نديم بك^(١) أهموه بموالاة الشريف والعجز عن مقاومته . ولم يكن شي من ذلك يخفى على الشريف بل كان يزيده حيطة وانتباها . ويلوح لي أن اختلافه مع الاتحاديين بدأ منذ خلعوا السلطان عبد الحميد ، وقد كان الشريف - وما زال - يثني عليه . ويعد في مقدمة مثالب انقوم وثوبهم بساطنهم ، وقد حاولوا كثيراً أن يشنوا فروعا لحزبهم في مكة وجدة فناوهم الشريف فأخفقوا .

..

ولما قامت الحرب العامة على سوقها ، ودخنتها الدولة العثمانية ، عانى الحجاز أكثر مما عاناه سواه من بلادها ، فانتقطع الحجاج عن حجهم وسدت أبواب البحر واتسعت فوضى البر وأكل الناس لحوم ولدانهم ، كما رأينا في بعض ديار الشام ، وقويت شوكة الحزب الاتحادي فشط في الضغط على الشريف وأعوانه ، ورأى الانكليز تهيو الترك والامان للزحف الى قناة السويس وغزو مصر فالتسوا مشغلة لخصومهم ، وعلا صراخ بلاد العرب بالشكوى من دواوين الحرب العرفية في سورية والعراق ، فهد الانكليز أيديهم اليهم عن بعد ، يوهونهم العطف والاشفاق ويمنونهم بالانقاذ والتحرير ، وأجالوا نظرات متتابعة سريعة في ما تشتمل عليه جزيرة العرب من قوة ، ولم يكونوا يجهلون ان للزعامة في هذه البلاد شأنها ، فاندفعوا يوفدون صنائعهم على امراء الجزيرة ، يفاوضون هذا ، ويذاكرون ذاك ، وتقائم

(١) من عقلاء الترك نصب واليا للحجاز وكف عما كان يصنعه غيره من مشاكسة أمير مكة حسين باشا (جلالة الملك اليوم) فلم تطل مدته أكثر من سنة وعزل فماد الى الاستانة قبل الحرب العامة . وجاء مكة بعد الحرب ومعه زوجته وولدان له فأكرمه الملك وأزله في ضيافته وجعل له اكان يتمتع به في أيام ولايته ماعدا السلطة . وقد اجتمعت به كثيراً ورأيت الملك ينهض ويمشي لاستقباله خطوة أو خطوتين كلما استؤذن له بالدخول عليه

الخطب على الشريف وبلادة ، فصغى اليهم بسمعه وتناقل الركبان الرسائل بينه وبين السر هنري مكماهون النائب البريطاني الاكبر بمصر فوضعت الشروط ونقشت العهود ، وأزعم الشريف الثورة .

..

في الرسائل التي تبودلت بين الشريف حسين والسر هنري مكماهون ، قبل الثورة ، مالا يزال مطوياً الى اليوم ، لم ينشر أو نشر شي من مواده وسكت عن الباقي . وقد وقعت بمكة على كتاب يصحح أن يكون نموذجاً لما كان يكتبه مكماهون للشريف ، وإنه لنموذج إن صح أن الترجمة فيه جرفية ، وجب على كل من يقرأه أو يطلع عليه أن يتخذ درس عبرة يتعلم منه كيف يخاطب الساسة غيرهم حين يريدون أن يفافضوه أو يخادعوه ! - وها هو الكتاب بنصه وحروفه :

بسم الله الرحمن الرحيم

الى فرع الدوحة المحمدية ، وسلالة النسب النبوي ، الحسيب النسيب ، دولة صاحب المقام الرفيع ، الامير المعظم ، السيد الشريف ، أمير مكة المكرمة ، صاحب السدة العليا ، جعله الله حرزاً أميناً للاسلام والمسلمين ، بعونه تعالى آمين . وهو دولة الامير الجليل ، الشريف حسين بن علي ، أعلى الله مقامه .

قد تلقيت ، بيد الاحتفاء والسرور ، رقيمكم الكريم المؤرخ في ٢٩ شوال سنة ١٣٣٣ هـ وبه من عباراتكم الودية المحضة ، وإخلاصكم ما أورثني رضا . وجبوراً واني متأسف لانكم استنتجتم من عبارة كتاني السابق اني قبلت مسألة الحدود والتخوم بالتردد والغتور ، فان ذلك لم يكن القصد من كتاني قط ، واكني رأيت حينئذ أن الفرصة لم تكن قد حانت بعد للبحث في ذلك الموضوع بصورة نهائية

ومع ذلك فقد أدركت ، من كتابكم الأخير أنكم تعتبرون هذه المسألة من المسائل الهامة الحيوية المستعجلة ، ولذلك فاني قد أسرع في إبلاغ حكومة بريطانيا العظمى مضمون كتابكم ، وإني بكل السرور أبلغكم بالنيابة عنها التصريحات الآتية التي لا أشك في انكم تنزلونها منزلة الرضى والقبول :

إن ولايتي مرسين واسكندرونة ، وأجزاء من بلاد الشام الواقعة في الجهة الغربية لولايات دمشق الشام وحمص وحماة وحاب ، لا يمكن أن يقال عربية محضة ، وعليه يجب أن تستثنى من الحدود المطلوبة

مع هذا التعديل وبدون اعتراض للمعاهدات المعقودة بيننا وبين بعض رؤساء العرب ، نحن نقبل تلك الحدود

وأما من خصوص الاقاليم التي تضمها تلك الحدود ، حيث بريطانيا العظمى مطلقة التصرف بدون أن تمس مصالح حليفتها فرنسا فاني مفوض من قبل حكومة بريطانيا العظمى أن أقدم الموائيق الآتية ، وأجيب على كتابكم بما يأتي :

١ — إنه مع مراعاة التبديلات المذكورة أعلاه ، فبريطانيا العظمى مستعدة لان تعترف باستقلال العرب ، وتؤيد ذلك الاستقلال في جميع الاقاليم الداخلة في الحدود التي يطالبها دولة شريف مكة .

٢ — ان بريطانيا العظمى تضمن الاماكن المقدسة من كل اعتداء خارجي وتعترف بوجوب منع التعدي عليها .

٣ — وعند ما تسمح الظروف ، تمد بريطانيا العظمى العرب بنصائحها ، وتساعدهم على ايجاد هيئات حاكمة ملائمة لتلك الاقاليم المختلفة

٤ — هذا والمفهوم ان العرب قد قرروا طلب نصائح وارشادات بريطانيا العظمى وحدها ، وان المستشارين والموظفين الاوروباويين اللازمين لتشكيل حياة ادارية قوية ، يكونون من الانكليز . (هنري مكماهون)

..

أما ما عاهد الانكليز الشريف حسيناً عليه ، فقد سئل عنه الامير فيصل في دمشق قبل المناذاة به ملكاً على سورية .. فأجاب بما نصه^(١) :

ان المعاهدات التي يذكرها صاحب الجلالة ما رأيتهما وقد طلبت منه مرارا ان يجعلها سلاحاً لي اذا كانت موجودة ولا أعلم ما سبب تأخير ارسالها لي واكتفاء

جلالاته بإرسال صورة اتفاقية يقول إنها نسخة من تلك المعاهدة وهذا نصها بحروفها :

(١) - تتمتع بريطانيا العظمى بتشكيل حكومة عربية مستقلة بكل معاني الاستقلال في داخليتها وخارجيتها وتكون حدودها شرقاً من بحر فارس ومن الغرب بحر القلزم والحدود المصرية والبحر الأبيض وشمالاً ولاية حلب والموصل الشمالية إلى نهر الفرات ومجمتعة مع الدجلة إلى مصبها في بحر فارس ما عدا مستعمرة عدن فإنها خارجة عن هذه الحدود وتتعهد هذه الحكومة برعاية المعاهدات والمقاولات التي أجرتها بريطانيا العظمى مع أي شخص كان من العرب في داخل هذه الحدود بأنها تحل محلها في رعايته وصيانته تلك الحقوق وتلك الاتفاقيات مع أربابها اميراً كان أو من الأفراد

(٢) - تتمتع بريطانيا العظمى بالمحافظة على هذه الحكومة وصيانتها من أي مداخله كانت بأي صورة كانت في داخليتها وسلامة حدودها البرية والبحرية من أي تعدد بأي شكل يكون حتى ولو وقع قيام داخلي من دسائس الأعداء أو من حسد بعض الأمراء فيه تساعد الحكومة المذكورة مادة ومعنى على دفع ذلك القيام لحين اندفاعه وهذه المساعدة في التقيّات أو انتورات الداخلية تكون مدتها محدودة أي لحين يتم للحكومة العربية المذكورة تشكيلاتها المادية

(٣) - تكون البصرة تحت اشغال العظمة البريطانية لحين يتم للحكومة الجديدة المذكورة تشكيلاتها المادية ويمين من جانب تلك العظمة مبلغ من المتقود يراعى فيه حالة احتياج الحكومة العربية التي هي حكمها قاصرة في حضن بريطانيا وتلك المبالغ تكون في مقابلة ذلك الاشغال

(٤) - تتمتع بريطانيا العظمى بالقيام بكل ما تحتاجه ربييتها الحكومة العربية من الاسلحة ومهماتهم والذخائر والمتقود مدة الحرب .

(٥) - تتمتع بريطانيا العظمى بقطع الخط من مرسين أو ما هو مناسب من النقاط في تلك المنطقة لتخفيف وطأة الحرب عن البلاد لعدم استعدادها . (انتهى)

قال سمو الامير : ولكنني مع الاسف حينما كنت في لوندرة قدمت هذه الصورة الى رئاسة الوزارة فانكرت وجودها كل الانكار وقالت بانه لا يوجد عهد ولا كتابة كهبد ينطق بمثل هذا التصريح .

الرصاصه الاولى

الساعة ٩ والدقيقة ١٢ عربية قبيل فجر السبت ٩ شعبان سنة ١٣٣٤ هـ
بينما الجيش التركي في مكة هادى ، في ثكنة جرول والتابعة الحيدية ، والناس
نيام والحوادث يغطى !

وبينما قادة الجيش التركي يحملون بايناس الشريف حسين لهم بعد صلاة الجمعة
من يوم ليلتهم !

وبينما والي الحجاز غارق في نومه بعد أن تلقى خبر جواسيسه بأن الشريف
سهر تلك الليلة على عادته في قصر الامارة وسرى الى منزله الساعة الرابعة من الليل
فلا جديد هناك

سمع الترييون من النصر طلقة دوى صوتها في ذلك الليل الساجي ، وتلاها
دوي متتابع من بطن مكة ، فتهضوا بكذبون السمع ، وانطلقوا يستمعون الخبر
خرجت الرصاصه الاولى من قصر الامارة من بندقية الشريف حسين ، فلم
يبلغ صداها مسامع جيشه السكاهن حول حصون الترك وثكنها ، حتى اندفع سيل
النار من بندقياته ، فأتته الترك مدعورين ، واسرع جندهم الى المدافع قبل أن
تصل اليهم العرب ، فاطلقوا القنابل على مصاعد نيران البندقيات

ولم ينشق فجر ذلك اليوم الا وجنود الترك محصورون في حصونهم ، وقاعة
أجياد المشرفة على احياء مكة ودورها تواصل القذائف على كل مكان يتخيل
لها أن فيه قوة من العرب ، واستمر بها الامر الى أن طاشت قذائفها فأرسلتها على
غير هدى في كل ناحية من نواحي البلد الامين ، واختصت بالعناية دار الامارة
فأخذتها هدفاً حتى كانت الساعة الثالثة من الصباح

كل ذلك والشريف حسين جالس في القصر لا يبالي بما كان أو ما سيكون . وقد أمر بقطع جميع أسلاك البرق والتلفون إلا سلكا بين القصر وثكنة جرول تاركاً للقوم سبيلاً للتسليم والنجاة وإذا بالتلفون يضرب ورؤساء الجند يسألونه عن الباعث على ما يحدث ، فأجابه منندراً بوجوب الاستسلام . فلم يفعلوا ، ودام تبادل النار بين الفريقين الى المساء . وأحصى ما اطلقوه من التنازل في هذا اليوم بمئتين وثلاثين قذيفة من عيار ٧٥٥٠ أصابت بعض المنازل فاخترقت جدرانها ولم تهدم بيتاً واحداً .

ومن أغرب ما يذكر في هذا الباب أن النار استمر انصبابها من افواه المدافع والبنادق على القصر الهاشمي خمسة وعشرين يوماً ، والشريف مثابر على عادته في الجلوس به ، لم يغير مجلسه ، ولا اختار غير غرفته الخاصة ، المعروفة حتى الآن باسم « المحلوان » يكثر بها وفي ردهة القصر سحابة النهار والربع الاول من الليل ، يتحدث مع من عنده ، ويضع الخطط لاتمام العمل ، حتى ان الناظر الى غرفته « المحلوان » اذا حقق النظر فيها لا يتمالك من الدهشة حين يرى أبواب نوافذها وستفها ومنصتها ، وفي الجميع آثار الشظايا والعيارات النارية التي كانت تتساقط بغير نظام . ولقد دخت احدى القنابل غرفته وهو جالس ، فمرت على قيد شهر من مجلسه فاخترقت أساس الغرفة ، وهو لا يعبا بها ، وأكد لي أحد من حضروا تلك المواقف أن موسيقاه الخاصة لم تنقطع عن العزف في أوقاتها يوماً واحداً وأن قنبلة سقطت عشية يوم بالقرب من العازفين ، فانفرد عقدهم وجاين فأمر الشريف بأن يرجعوا الى عملهم ، ولو ماتوا كلهم ، فعادوا وأتموا ما بدأوا به تحت خطر القنابل !

وعلمت من ثقة كان بين يديه يومئذ أن تساقط النيران لما اشتد على غرفته جعل يكرر هذه الكلمة « قر يا بيت ، إنها ميدي ما هي ميدي ! » ولهذا الكلمة حادثة معروفة اليوم عند قبائل العرب ، أول من قالها رجل منهم أحاط به جمع من أعدائه وهو في خيمته لا يبالي ، ورأى اضطراب عمدان الخيمة من تساقط الرصاص قتلها . فذهبت مثلاً . ومعناها : اسكن أيها البيت ، فإن ما تربي به لم يكن إلا لاميدي أنا واضطرب ، لا لتميد وتضطرب أنت !

ولم يكن قادة الجند التركي جاهلين باوقات وجود الشريف في القصر، فكانوا ضحى كل يوم يطلقون على غرفته قنبلة خاصة، ثم يوجهون قذائفهم الى بقية القصر والبلدة. وأخبرني ثقة انه كان اذا تأخرت القنبلة عن ميعادها وهو جالس في « المحلوان » يتساءل أمام من حوله: عجباً ما لهؤلاء القوم قد أبطأوا اليوم؟ ألا يزالون نائمين!!

كان الشريف قد هياً نخبة من أهـل الرماة بعث بهم الى ذروة جبل «أبي قبيس» يرمون من في القلعة، لان قمة هذا الجبل تشرف عليها. وأقبلت نجدة من أطراف « جدة » انضمت الى من في مكة من جند الشريف الذي كان يقوده الامير زيد^(١) واشتد الحصار على قلعة « أجياذ » حتى اخترقتها قنبلة من أحد جوانبها، فدخل بعض الاعراب من ذلك الثقب، وتبعهم آخرون. والمقيمون بها لا يشعرون. وما هي الا دقائق معدودات حتى علا الصوت، وأعمل الواالجون من الثقب السيف في الآمنين المطمئنين، فاستسلم هؤلاء. واستوات العرب على القلعة وما فيها يوم الثلاثاء، رابع رمضان سنة ١٣٣٤ وفت ذلك في عضد المحصورين في ثكنة جرول فسلمت حاميتها يوم الاحد تاسع رمضان. واحتاز الجيش العربي مباني الحكومة كلها.

وكان قيام مكة وجدة في يوم واحد (٩ شعبان) ومهاجمة الطائف في اليوم الثاني، والمدينة في اليوم الثالث. ولم يكن عند الشريف مدفع ولا رشاش، بل كان سلاح العرب في بدء اثورة البندق (الرصاص) والسلاح الابيض. وبعد الاستيلاء على قلعة أجياذ، بعث الشريف ابنه زيدا الى جدة، فأعان القبائل على التشديد في حصارها، فسلمت حاميتها. وظل عبد الله محاصراً الطائف الى أن استسلمت حاميتها على ما قدمنا يوم ٢٦ ذي القعدة سنة ١٣٣٤ .

(١) وكان الاميران علي وفيصل يومئذ محاصرين المدينة المنورة. وعبد الله محاصراً الطائف

وأما المدينة المنورة فكان القبر النبوي الشريف مانعاً للعرب عن إطلاق القنابل عليها ، فلم يزيدوا على أن حصروا قوى الترك بين جدرانها ، الى أن انتهت مؤنهم وخذت نار الحرب العامة ، فاستسلموا ودخاها علي .
وتقدم فيصل في حماته الى الشمال ، ثم - اق به زيد ، فدخلا دمشق وانتهيا الى حاب .

..

وفي سابع ذي الحجة ١٣٣٤ هـ (٥ أكتوبر ١٩١٦ م) تألفت أول وزارة عربية بمكة ، وسمي اعضاؤها الوكلاء ، ورئيسهم الامير عليّ ينوب عنه قاضي القضاة الشيخ عبدالله سراج . وتألف في اليوم نفسه مجلس لاشيوخ ، رئيسه الشيخ محمد صالح الشبيبي

..

وفي ثاني المحرم سنة ١٣٣٥ هـ كانت بيعة الشريف « حسين » بالملك في حفلة عظيمة أنت على وصفها جريدة « القبلة » في العدد ٢٢ من سنتها الاولى . وحمل اليه نائب رئيس الوكلاء - الشيخ عبد الله سراج - كتاب البيعة ، وهو طويل نشرته القبلة ، جاء في ختامه مانصه بالحرف :

« . . وانا نبائع جلالة سيدنا ومولانا الحس . بن علي ، ملكا لنا نحن العرب يعمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . ونقسم له على ذلك بين الطاعة والاخلاص والانقياد في السر والعلانية . كما أننا نعتبره مرجعاً دينياً لنا ، أجمعنا عليه ربنا بقرار العالم الاسلامي على رأي يجمعون عليه في شأن الخلافة الاسلامية . .

« نبايحك على هذا يا صاحب الجلالة ، ونقسم لك بالله العظيم على طاعتك ، والرضى بك والانقياد اليك ، في السر والعلانية . ولك علينا في ذلك عهد الله وميثاقه ما أقمت الدين واجتهدت في ما فيه صلاح العرب والمسلمين » ومن نكث فاما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً

وتلي هذا الكتاب على مسمع منه ومن أعيان مكة ووجوها وغيرهم . وفاه جلالته بخطاب وجيز قال فيه :

« اني أقسم لكم بالله العظيم أنني لم ارد هذا الامر الذي تكافوتني به ولم يخطر على بالي عند ما قمت معكم بنهضتنا السعيدة ، ولكنني رأيت كما رأيتم أننا أمام خطر عظيم وخطب جسيم ربما قضى علينا القضاء المبرم اذا لم نبادر الى ازالته

« انكم حلموني أمراً أنا أعرف الناس بما يستلزمه من الجهد . وطال ما قاتل اني واحد من جمهور الامة ، أبرم ما يبرهون من حق ، وأرفض ما يرفضون من باطل وامن يدي لكل من يتفقون على إسناد أمرهم اليه على كتاب الله وسنة رسوله . واذا كان لا مناص مما اردتموه فاني أشرط عليكم أن تعينوني على أنفسكم وتساعدوني بأرائكم وأعمالكم في كل ما يحقق آمالنا وآمالكم من الخدمة العامة للعرب والمسلمين . الخ »

وتليت في اليوم الثاني صورة كتاب البيعة في المسجد الحرام . ثم تواردت الكتب بعضها من الطائف وجدة والمدينة المنورة وجيش الشمال ، وأخيراً من العراق وسورية . ولا تزال هذه الكتب (أو المضابط) محفوظة عنده حتى اليوم وفيها من النواقيع ما لا يحصى عدده .

..

سكنت نامة الحرب العظمى بانقضاء الهدنة بين الحلفاء وخصومهم يوم ٥ صفر سنة ١٣٣٧ - ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ وانقلبت كل أمة تعاود النظار في ما بين ايديها من وثائق عليها تجد فيها النفع في مثل ذلك اليوم . وتشمر كل سياسي قوم بحاج ويناضل ويدافع ويقاوم . وتناسى أكثر الحلفاء ما كانوا يخطبون به ود الامم ويستميلون فيه الممالك الى نصرتهم ، من الدعوة الى تحرير الشعوب الخاضعة لغيرها والذناء بانقاذ الامم الصغيرة من براثن الامم الكبيرة . فاذا الدكتور ولسن صاحب جمعية الامم بعض الاصابع من الندم ! ولويد جورج الوزير البريطاني تشغله مشاكل العمال وثورات الارلنديين وصيحات الهنود ونهضة المصريين عن كل ما أبرم وعقد باسم مليكه وحكومته ، وكليمنصو الوزير الفرنسي يهجر معالجة سياسة قومه مفضلاً عليها صيد الثمر في غابات الهند ، والملك عمانوئيل يضطرب لحنوق العلم الاحمر في بلاده وأمام عينيه ، وفينزيلوس الزعيم اليوناني يضع بين شعب أثينة وأسرة قسطنطين !

انفجرت براكين العالم بعدخود بركان الحرب . واستبدل قادة الامم بثياب العفة والحنان والاخلاص ، أبراد الشرد والتمسوة والمكر . فاذا الوجود غير الوجوده . والقلوب غير القلوب ، والانسان اليوم غير الانسان بالامس ..

وهناك على شاطيء البحر الاحمر ، في تلك البادية ، وبين هاتيك الروابي والتلاع ، حكومة كانت وليدة الحرب العامة ، نشأت تحتاطها الخواف ، وترعرت تسكنفها المخاطر ، برئسها ملك تاجه عمامته وعرشه مهابته ، ليس له ما اسواه من ذوي العروش والتيجان إلا طاعة أهل قطره له ، وانقيادهم بين يديه وخوفهم غضبه وتوقيهم سخطه ، ذلك هو الملك حسين بن علي ، ومن وقف الى جانب الخلفاء ثلاث سنين ، يحارب من حاربوا ، ويوالي من والوا ، ينظر اليهم اليوم من وراء حجاب فاذا هم عنه معرضون !

عاهدوه على سورية ، واستعمروها . وعلى العراق ، واحتلواها . وعلى فلسطين وهوّدوها . وعلى الجزيرة ، وقسموها . وعلى الحجز ، وحاولوها .. فاعجب - إن كنت تعجب - لموقفه الاخير أمام حلفائه ، في الماضي . وأعداء الشعوب المناهضة ، في الحاضر . والمضطربين الى مجازاة تيار البشر ، في المستقبل !

يقول الامير عبد الله ^(١) : « وما مثل الذين يعترضون عايكم في مولاة حلفائكم إلا كمثل من يحاول الاعتراض على الله في تدبير شؤونه التي يبيها ولا يتدبها » واعله بعد ان رأى - بعينه - ماصار حال العالم اليه . يتراجع قليلا بل يتقهقر طويلا ، عن مفاجأة الاسماع بمثل تلك الجرأة على الحق والخلق .. !

لم يقف الملك حسين مكتوف اليدين أمام عبث الغرب بهذه البقعة الصغيرة من الشرق ، بل احتج ، وحاول إسماع الصم صوته ، فانكروا اليهود وجحدوا المواثيق ، شأنهم في كل موقف مع كل أمة تمكنوا من تمزيق شملها وتفريق كلمتها وفصم عراها

هم يعملون أو سيعملون على إرضائه أو إسكاته ، فيؤوّلون ما لا مناص لهم من

(١) من « توديع وايضاح » بعث به الى جريدة القبلة من وادي الليمون

ونشرته في العدد ٢٨ من السنة الاولى - ٢٤ الحزم سنة ١٣٣٥

الاعتراف به من عهدهم ، ويتقدمون اليه يحملون تيجاناً خيالية وإمارات وهمية لبعض بنيهم ، كأن مصلحة العرب هي في أن ينصب بنوه ملوكاً وأمراء ، وكأن العرب وفي جملةهم الملك حسين وأبناءؤه ، ما ناروا ولا قاتلوا إلا لتحول ألقاب أفراد فيهم ، من شريف الى أمير ، أو من فلان الى جلالة فلان !

بهذا الزخرف البالي ، وبهذه الزيوف الموهمة ، يعمل الخلفاء ، على اقناع أليهم في الموطن الحشن ، الملك حسين بن علي ، وابهامه بأنهم ما برحوا له ذاكرين ، واهودهم حافظين . وما هم بالذاكرين الواعين ، ولا الحافظين المراعين

..

أنجب الملك حسين أربعة بنين ، عرفتهم جميعاً ، وخالطتهم ، وكانت لي مع بعضهم مواقف ، وأنا ذاكرهم على ترتيب أسنانهم تبعاً لقاعدتهم في تقدم الاكبر فالذي يليه ، لا يراعون في عملهم هذا ما يراه غيرهم من الاعتبارات فقد ترى الصغير ملكاً والاكبر منه أميراً أو وزيراً ، وحينما يتقابلان لا يمنع الصغير نأجه من تقبيل يد الاكبر وان كان لا يوازبه في شأنه ومكانته .

(١) الامير علي : أكبر أنجال الملك حسين . وولي عهد المملكة العربية الهاشمية في الحجاز . يعتمد عليه الملك في الشؤون الداخلية المتعلقة بالتقباثل والمغازي في البادية . وكانت اليه قيادة الجيش العربي ، أيام الثورة ، في جهات المدينة المنورة . وهو الآن رئيس مجلس الوكلاء ، في مكة وأمير المدينة . يتردد بين مكة والمدينة والطائف . في طبعه سكون وناة ، وفي أخلاقه ابن وسولة ، وفي نفسه اباء وشرف . قليل الكلام ، حسن الاصغاء ، لجليسه ، معتدل القامة ، نحيف الجسم . كثير التفكير ، أمه وأم فيصل وعبد الله واحدة .

(٢) الامير عبد الله : ثاني أنجال الملك حسين . افتتح الطائف في بدء الثورة وولاه أبوه وكالة الخارجية ثم انتزعها منه . وكان قائد جيش الحجاز في وقعة « تربة » الشهيرة بين الحجازيين والنجديين ، نجافبها بعدد قليل من الضباط وأضع كل ما كان معه من مال ورجال . ولما نودي بفيصل ملكاً على سورية في دمشق يوم الاثنين ٩ مارس (آذار) ١٩٢٠ --- ١٩ جادى الاولى ١٣٣٨ نادى بعض شبان

العراق بعبد الله ملكا على العراق ، وهو بمكة . وسيره أبوه منها الى عمان فشرق الاردن كما قدمنا^(١) . وهو مطاع اللسان ، له شيء من الاطلاع على الأديين العربي والتركي ، مولع بالحاجة والمناظرة ، مدلل بنفسه ، فخور ، ميل الى الراحة ، مغرم بالشطرنج ، ملول لما هو من جد الأمور ، كثير المزاج مع خوصته ، متطرف في ذلك ، لا يجبس درهما ، ولا يرمي الى هدف ،

ما قال قولاً ودري قلبه لسانه يجري به والفم !

(٣) الامير فيصل : ثالث أمجال الملك حسين . كان نائباً عن مدينة « جدة » في مجالس النواب العثماني قبل الثورة . ثم كانت له في تهيشه أسبابها يد . وافتتح سورية الى اقصى حاب فتولى إمارتها ، وناب عن أبيه في مجالس الامم بباريس فتكررت رحلاته الى أوروبا ونودي به في دمشق ملكاً على سورية يوم ١٩ جمادى الاولى سنة ١٣٣٨ - ٩ (آذار) سنة ١٩٢٠ وكانت « ليلة ميلون » آخر أيام حكمه في سورية وقد سبقت لنا كلمة عنها . ثم برح ديار الشام الى ايطاليا ومنها الى لندن حيث بوحت في ملك العراق ، وكان هذا آخر ما نقاته أسلاك البرق الى مكة ونحن في شعابها .

وفي الامير (او الملك) فيصل ، دهاء وشجاعة ، يتردد في بعض الأمور فيشين حزمه ، عصبى المزاج ، له قوة على الخطابة واعتلا . منارها . وفي بيانه وافته ضعف ، يقول فيجهم ولا يصارح الا حين تدركه الحدة . بعيد مطامح النفس ، كثير السهر والتفكير ، لا يجد استيلاء عليه فلا يكاد يهزل . طبعته في أن تكون له مرونة السياسي تخرج مواقفه وتبتعد فيه عن مراميه ، لقمته حادثة اشياء درسا في حياته السياسية ما إخاله ينساه .

(٤) الامير زيد : أصغر أمجال الملك حسين . قد اثناثرين بمكة يوم قيام أبيه ، ثم لحق بأخيه فيصل ، فدخل معه الشام ، وناب عنه في إمارتها حين برحها الى أوروبا ، ولما احتل الافرنسيون دمشق غادرها مع أخيه الى حيفا ومنها الى ايطاليا

(١) وقد اتيت في كتاب لي وضعته بعد هذا سميته « عامان في عمان » على

شيء من سيرة هذا الامير وأخلاقه ، عساي أن أطبعه في فرصة ثانية

ونشرت الصحف ازماع أخيه أن يدخله جامعة اكسفورد ، فاضطرب جلالة ايها لهذا النبأ وأبرق الى عاصمة بلاد الانكايز يدعو اليه ، فلم تمض أيام حتى كان بمكة . وهو شاب في مقتبل عمره ، يصفه من شهبه في مواقع القتال البطولة ، فيه ذكاء وسرعة انتباه غريبان ، لاصبي في نفسه أثر يضيع بين نشاط الفتوة ورجحان العقل ، وفيه ميل للدرس والتعلم بل شغف وولوع فيها ، صريح مع من يأمن ، بعيد عن المواربة ، نقاد ، يسمي الحق حقاً والباطل باطلاً ، بهزل ويمجد ، في طباعه وأخلاقه نقاء وصفاء ، يكره التدجيل والتدليس ويسخر من التعمل والتكلف .

..

هؤلاً . بنو صاحب الجلالة . أجنحته ومعاقده آماله ، وثقافته ومفاتيح أفعاله . أطالهم في الجزيرة ، فكان — أو سيكون — لكل منهم نصيبه من جهاده ، وسهمه من سعيه . ولهم في إقناعه واستمالته واسترضائه عن أعمالهم طرائق وربما شدة أحدهم فخرج عن رأيه في أمر أو حادث ثم لا يابث أن يرجع صاغراً ينتحل الأعذار وياتمس الاعذار . وهو شديد بهم ، متصلب ، قاس ، صعب . قال الامير عبد الله : لقد ربيت في حجر والدي ، وما أعلمه والله قبلي يوماً ، لا طفلاً ولا ناشئاً ، ولا قداماً ولا مودعاً . !

..

الملك حسين أشد الناس محافظة على خطه ، ومثابرة على عادة ، واسترسالاً في سبيل . حدثني أحدهم عن عرفت بالصدق في مكة ، فقال : عرفنا سيدنا أميراً ومالكا فإذا هو واحد في امارته وماله ، أمضى ثمانين سنين في دار الامارة وسنيناً في قصر الحكم ، لم يتخلف عن الجلوس للناس إلا يومين اثنين منها ، لمرض شديد أصابه ، وهو لا ينأى أكثر من ست ساعات بل قد تنقص ساعات نومه عن هذا المقدار . ينهض قبل الفجر فيتوضأ ثم يصلي وربما نزل الى الكعبة فطاف حولها والناس نيام . وتطلع الشمس وهو في قصره (بيت سيدنا) فيتناول طعام الفطور ويترجم خيله الخاصة ، فتعرض أمامه وهو يفطر ، واتقد قال يوماً : إن منظر هذه الخيل ليعجبني ويروقي حتى لا أكاد عند رؤيتها أن أنسى الدنيا وما فيها !

وينزل بعد ذلك من قصره فيركب بغلة أو جواداً ويأتي « دار الحكم »

والمسافة بين الدارين قريبة جداً . فيستريح قليلاً في الخلوأف ، ثم ينهض ، الى المجلس العام فيتصدره ويأذن لمن شا، بالدخول، فيتوافد الناس وأكثرهم بل كلهم من البدولان الحضرة قل أن يراجعوه في شؤونهم لمعرفةهم بأساليب وراجعة الحكومة فهم يراجعون نائب رئيس الوكلاء الذي هو قاضي النفضة الشيخ عبد الله سراج ، أو يراجعون رئيس البلدية أو مدير الشرطة وذلك كله في « سراي الحكومة » على مدخل حارة أجياد . وقد كانت هذه السراي مقر الولاية في أيام الترك

حضرت يوماً مجلس الملك العام وعنده بدوي أكمل حديثه وخرج . فأدخل الحاجب بدويأ آخر تقدم من الملك فأهوى على يده ثم على ركبته تقييلاً وتقهر فجاس في منتصف المكان على الارض رافعاً إحدى ركبتيه وطاويأ الثانية تحته وفي يمينه خيزرانة يشير بها وهو يخاطب الملك، فقص قصته وخلاصتها أنه بينما كان يرعى ابله وراء شعب من الشعاب اذ خرج عايه ثلاثة رجال أرادوا سلبه الابل فامتنع فاطلقوا عليه النار من بندقياتهم فأجابهم بمثلها وتحصن وتحصنوا وانتهت الحادثة باستيلائهم على جملين والنجاة بهما . وكان الملك مصغياً اليه كل الاصغاء، وهو طوراً يخاطبه بسعادتك وتارة بسيدنا وحيناً بضمير المخاطب المفرد والخيزرانة في يده يقلبها ويعبث بها ، ولما انتهى صفق الملك بيديه فجاءه سعد (الحاجب) فأمره بأن يذهب به الى قائم مقام القصر (وهو أحد الاشراف) وان يلباه وجوب ارسال من يقص أثر المعتدين على الشاكي ثم يعلمه النتيجة . فانصرف البدوي بعد ان قبل يد الملك وركبته مرتين مرتين .

وهكذا فان جلالة الملك يمكث في هذا المجلس الى ما بعد الظهر ثم يصلي وينصرف الى الخلوأف، فيتمدد ويرتاح الى العصر ، ثم يأخذ بقبول فريق من الناس، ممن يدعوه أو يرغب في مذاكرتهم ببعض الشؤون . وان كان ذلك اليوم موعد وصول البريد المصري خلا جلالاته بنفسه يتاب صفحات ما يحمله اليه من صحف ورسائل فشغله ذلك الى قبيل الغروب . ويصلي المغرب بعد ذلك خلف إمامه، في المصلى الذي كان قبل الظهر مكان جلوسه للنظر في المظالم واستماع الشكايات .

ويعود بعد الصلاة الى المحلوان فيأتيه طاهيه الخاص بصينية فيها شيء من مرق اللحم أو الشوربا وأنواع يسيرة من الطعام يأكل منها ما تميل اليه نفسه. ونحو الساعة الثانية بعد الغروب يدعوا اليه من في غرفة الانتظار من الزوار، فيجلسون عنده نحو ساعتين ثم يخرجون، فيصلي العشاء منفردا أو خاف الامام، ويسري الى بيته الخاص حيث ينام .

ذلك ديدنه وشأنه كل يوم . وله في كل حركة من حركات يومه طريقة خاصة. فهو يجي، في الصباح من بيته الى قصر الحكم راكبا يحف به بضعة من العبيد والخدم ويعود في الليل ماشيا وبين يديه عبدان من عبيده والمضايقي (الحاجب) سعد وله في التواء يده لمقبليها حركات يدهش لها من لا يعرف أسرارها ومهانيها . ولا أدري إن كنت أستطيع وصفها او يخوتني البيان ، فمن هذه الحركات :

(١) أن يلقى يمناه على العادة المألوفة المعروفة فيقبلها المقبل ويحس أو يمضى .
(٢) أن يبسط يده ثم لا يمكن مرير تقبيلها منها بل لا يكاد يلمسها ذلك حتى ينزعها منه انزعاجا

(٣) أن يبسط يده ولا يجعل لمقبليها سبيلا الى غير أصابعها فيقبل الاصابع
(٤) أن ياتني يده للمقبل وبينما ذلك آخذ بها في يده يقبض جلالاته بكفه على يد المقبل

(٥) أن يمد يده جاعلا باطن كفه الى وجه المقبل فيقبل الباطن
(٦) أن يعطي المقبل باطن كفه وحينما يشرع هذا بالتقبيل يقبض جلالاته على وجهه بيده

(٧) أن يعطي المقبل باطن كفه ثم يقبض على وجهه ويطبوع على لحيته قبله
(٨) أن يعطي المقبل باطني كفيه فيأخذ هذا بالتقبيل بينا جلالاته قابض يديه على وجهه

(٩) أن يزيد على الطريقة السابقة قبله من لحية مقبل يده
(١٠) ان يجعل يده على ركبته ، فيقبليها القدام بادئا باليد ثم بالركبة.

وهناك فروع ثمانية . منشأها هذه الاصول . وقد يوهم جلالته من يعطيه يده على الطريقة الثانية أو الثالثة أنه إنما يمنعه تقبيلها احتراماً له أو إكباراً والحقيقة أن الأولى دليل الكراهية والمقت ، والثانية دليل العتب والالوم ، كما أن الثالثة والرابعة والخامسة من ادلة الرضى ، ويزيد الرضى في السادسة ثم في السابعة والثامنة ، وما بعد التاسعة زيادة لمستزيد . أما العاشرة فللبدو ولمن يؤذن له بالدخول من العلة .
ورأيت في الاشراف من يتناول يمين صاحب الجلالة فيقبها ثم يتناول اليسرى فيقبها ثم يرتفع بفعه الى رأس الملك فيقبل طرف عمامته ثم ينحدر الى ركبته فيقبها ويتراجع فيجلس حيث يؤمر .

..

وليس للداخل أن يختار الكرسي الذي يجلس عليه ، فإن الملك يكفيه مؤنة ذلك ، اذ هو يشير اشارة خفية ، بيده أو بعينه ، الى المكان اللائق به ، قريباً منه أو بعيداً عنه ، على الكرسي أو على المقعد ، فيجلس .
وتقديم القهوة للزائرين عادة جارية ، ولكن جلالته قد يطلب الشاهي^(١) في بعض الايام فتدور الاكواب على الجالوس جميعاً . ولم أر أحداً من خاصة الملك وأضيافه يطلب الماء في حضرته ، بل ربما خرج أحدهم متسللاً فشرّب وعاد .
وجلالته صاحب الحديث في مجلسه ، فهو يفتح الكلام أدباً أو سياسة أو تاريخاً أو فكاهة أو وصفاً لحادثة شهداها أو رحلة رحلها أو عادة غريبة رآها ، وكثيراً ما كان يحدثنا بما اتفق له الاطلاع عليه من أحوال اليمن ونجد والجزيرة .
وقد يروقه كتاب فينتدب أحد الجالسين لقراءته أو قراءة فصل منه . ويدور على لسانه كثير من آي القرآن الحكيم فرمما طلب تفسير آية فينهض أحدنا الى بعض كتب التفسير مما هو في خزنة غرفته فيراجعه ويحل الاشكال ، كذلك يفعل في السيرة النبوية وبعض حوادث التاريخ الاسلامي المشهورة . وفي خزانته هذه نسخة صالحة من كتب التفسير والحديث والتاريخ والادب .

(١) اهل الحجاز جميعاً يقولون شاهي كأنهم ينسبونوه الى الشاه ، وارى هذه التسمية أقرب الى الصحة من كلمة الشاهى التي لا معنى لها .

ولا يستحب لاحد الجالسين عنده أن يقف بغتة حين يريد الانصراف ، بل السنة المتبعة في حضرته أن يستمر زواره ، يحادثهم ويحادثونه ، الى أن يرغب بانصرافهم ، فيصمت صمتاً غير معتاد ، فيدرك القدماء في مجالسته رغبته بفض المجلس فيغمز بعضهم بعضاً ، أو يتطوع أحدهم فيسأل جلالاته الاذن بالانصراف ، فيجيبه بكلمة « مرحبا » فينهض الجميع ، يقبلون يده ، الواحد بعد الآخر ، ويخرجون .

وهو اذا كره انساناً أو غضب على انسان لم يسمح بذكره في مجلسه بل انه ليسكت المتعرض للكلام عليه قائلاً : لا ، لا ، لا يا ابني ! كفى كفى ! ويشير بيده كأنما يدفع شيئاً عن وجهه . ويفعل مثل ذلك حين يريد اسكات متكلم في غير ما يروقه .

وهو لا يمل العمل ولا يسأم الاشتغال في شؤونه وشؤون بلاده ، فبابه مفتوح في كل وقت لكتابه الخاص السيد احمد السقاف ، يأتيه بالرقاع الصغيرة مفتولة بحكمة الغتل ، فيأخذها منه وينشرها رويداً رويداً ، ممعناً في سطورها وكلما قرأ سطرأ بطواه الى ان يأتي على آخرها ، فيأخذ القلم — والدواة قريبة منه — فيوقع ما بهتياً له او يصلح ما يراه في انشائها ان كانت « مسودة » ويلقيها الى الكاتب فيذهب ، وقد يعود بها بعد تبويضها فيمضيها جلالاته . ويرى بعضهم ان التقارير ترفع اليه على هذه الطريقة ، فربما كان في بعض الرقاع ما هو من ذلك النوع .

وجلالته لا يرى للوزارات سلطة ، بل أكثر ما يكتبه يوجهه الى الملوك مباشرة . ولا ينحصر اهتمامه في كبير الامور بل هو يهتم لصغارها ككبارها ، ولقد حدث أن جاءني كتاب من صديق لي في دمشق يخبرني فيه أن الافرنسيين أغلقتوا مدرسة الفيحاء الحسينية ، وهي مدرسة أهلية للبنات ، وبعلل صديقي اغلاقها في أن سببه تسميتها بالحسينية . فترأت السكتاب على جلالاته ، فغضب له وأخذ القلم فسكتب برقية الى الملك جورج ولقبه بصاحب الحشمة والجلالة البريطانية ، لافتاً نظره الى عمل الافرنديس في سورية واغلاقهم مدرسة الفيحاء الحسينية لاتنسابها اليه . وأمر بترجمتها فترجمت الى الافرنسية ، فوضعها في ظرف وختمه بيده وامضائه وبث به الى مدير البرق والهريد . ولا أعلم ما كان الجواب .

ويضاف الى هذا النوع القارؤه التبعة في ما يكتبه عنه أحد الافراد في احدى البلاد ، على الملك المنسوبة اليه تلك البلدة . فهو يعتب على ملك مصر اذا نشرت صحيفة مصرية طعنا في الحجاز ، ويعتب على ملك الانكليز اذا تعرضت صحيفة انكليزية لانتقاد أمر في الحجاز . يقيس ذلك كله على ما له وحده من النفوذ المطلق في بلاده ورعيته . ويرى لاهلوك في ممالكهم ما يراه لنفسه من السيطرة على دقيق الامور وجليها ، ويعجب من ملوك الغرب كيف يمكنون العمال في بلادهم من الاعتصاب او الاضراب بل يخيل اليه أن ذلك ضعف كامن في نفوس الفايضين على زمام الامور هنالك وربما عده جهلاً منهم في السياسة والادارة ، وعى عن سبيل الاخذ بالحزم والارهاب والشدة . .

وله هوى في تقايد الخلفاء ، فتراه يتنكر في بعض الليالي ويطوف ازقة مكة واسواقها ، يتسمع ما يتحدث به اهلها ويصبر ما هم صانعون ، وتراد لايالي بالآهة والعظمة والمظاهر بل يؤثر السكون ويظهر الزهادة ويلبس لباس النساك . وفي مكة من حدثني ان عدد من كان يخدمه من العبيد وغيرهم في عهد إمارته كان يفوق ضعفي عدد من يخدمونه اليوم . وقد عرض ذكر ذلك في احد مجالسه فأشار الى ما معناه : كننا نظمح الى ما هو بعد الامارة ، وكنا نزاحم الولاة ، واما الآن فلا هذا ولا ذاك .

..

وتتفق له حوادث ما علم في التاريخ شاهداً عليها ، مثال ذلك : وققنا عشيّة يوم لصلاة المغرب معه ، وتقدم إمامه ، فقام الصلاة وهم بالتكبير ، فاذا فتى قد أقبل ملقياً نفسه على قدمي الملك يقبها ، فنهاه عن عمله وأمره . وصلينا جميعاً وخرجنا فجلسنا في غرفة الانتظار والفتى معنا يحمل سبحة طويلة في يده ، ورأيت في نفسي قوة تدفني الى التحديق به بعد أن سمعت صوته ، فجعلت اتسأل في نفسي : من يكون هذا الشاب ، المعتدل القامة ، الالبض الوجه ، الأشقر اللحية ، المتظاهر بالعبادة ، المكثّر من التسبيح ، المتشبه بالمتصوفة في حركاته وسكناته ؟ كأنني أعرفه . ولكن أين رأيته ؟ خانتني الذاكرة . فسأته من القادم ؟ قال : من أهل الجزائر . وأعقبها بقوله : الله الله ! فعجبت لامره ، وعدت فسألت : ومن أين الآن ؟

قال : من القسطنطينية . . وعاد الى التسبيح . فقلت : اما زرت سورية ؟ قال : اقامت مدة في بيروت ، سبحان الله سبحان الله . . فقلت وابن كنت في بيروت ؟ قال : في المدرسة العثمانية ، لا إله إلا الله ، لا إله إلا الله . وهنا صحت فقلت : اسمك يا أخي ؟ قال ابو الغيث . قلت : البلغيسي ؟ فقال : نعم . . ونظر اليّ بملأ عينيه العجب . فقلت : اطمئن ولا تعجب ، أنا فلان . فقال : لم أعرفك . وهو يعرفني حق المعرفة . فقلت : لا بأس ! ودعينا للطعام فأكلنا ، ثم جاء اذن الملك بالدخول عليه ، فدخانا . ومضت خمسة أيام وصاحبنا يصلي المغرب ويتعشى ويسمر معنا وينصرف بعدنا ولا نعلم من أمره شيئاً . وقد سأله عن مكان مبيته وأين يقضي نهاره لازوره او يزورني فأخبرني أنه في القصر نفسه ، ولم يزد . . وفي الليلة السادسة جاء فابتدأ الكلام على غير عادته وحدثنا ان جلالة الملك قد أمر بقطع جواز له بالسفر الى بلاده (الجزائر) وجعل يكرر الدعاء الملك مبهجاً مغتبطاً وسافر قبل أن يودعنا او نودعه . وانكشف الامر بعد سفره فعرفت ماددهشني وراعي . . ذلك أن الملك تناول كتاباً من الآستانة جاء في الباخرة التي حملت صاحبنا وفيه أن البلغيسي موفد الى مكة لغاية غير صالحة . فطلبه الملك فقبضت عليه شرطة مكة وهو متعلق باسنار الكعبة ، وزج في القبو . . فكان يمكث فيه ليله ونهاره مقيداً مغلول اليدين والرجلين ، ويطلق عشية كل يوم فيصلي مع الملك ويتناول الطعام مع خاصته ويسهر بعض الشطر الاول من الليل في مخلوانه ، ثم ينزل به الموكل في حراسته الى قبر الاحياء وقرارة الشقاء . . الى أن مرت بمجدة باخرة فأمر الملك باخراجه من أرض الحجاز فأخرج .

ليس في حبس المشتبه به أو المتهم عجب ، ولكن العجب كله في ما كان عليه هذا السجين من التقلب كل يوم بين النعيم والجحيم ، بين الاكرام والاهلام ، بين الحياة والموت ، بين الجنة والنار . من مخلوان الملك الى سجنه ، ومن ضيافته الى دار نقمته . . فهذا ما لم أدرك سره ، ولم يفتح عليّ بهزاه ، وعلمه عند الله !

..

أما ما يعتمد عليه الملك حسين في الحجاز فقوتان . إحداهما « القوة النظامية » والثانية « القوة البدوية » واليك شيئاً من التفصيل عنهما :

القوة النظامية — تلبس لباس الجند المعروف وتعيش العيشة العسكرية المعروفة ، أكثرها من أبناء سورية والعراق ، وفيها قليل من الألمانين والحجازيين . يقودها ضباط فيهم من تلقوا علومهم الحربية في مدارس الترك العثمانية وفيهم من جعلهم نشاطهم وإقدامهم في ميادين الحرب ، أيام الثورة ، ضباطاً وقادة . ومرجع هؤلاء وكيال الحربية . ولهم شارات عسكرية انفردت ببعضها حكومة الحجاز وهي :

الملازم الثاني

نجمة

الملازم الاول

نجمتان

للزعيم (اليوزباشي) ثلاثة نجوم

ثلاثة نجوم

لوکیل القائد (قدملی یوزباشی) تاج

ج

للقائد (بیکباشی) تاج و نجمة

تاج ونجمة

لِقَائِهِ الْمَقَامِ تَاجُ وَنَجْمَتَانِ

تاج و نجمتان

لامير الالاي تاج وثلاثة نجوم

تاج و ثلاثة نجوم

الامير اللواء سيفان ونجمة

سيفان ونجمة

سيفان ونجمتان الفرق

سیفان و نجمتان

المشير
سيفان وثلاثة نجوم

سيفان وثلاثة نجوم

ورتبة المشير أرفع الرتب في الحجاز .

والقوة البدوية — تختلف في اوضاع تدريبها واستخدامها وحياتها عن القوة العسكرية، ولها في كل ذلك نظم واساليب خاصة. فالخدمة العسكرية غير اجبارية في الحجاز وانما هي من نوع ما يسمونه «التطوع» وليس على الجندي البدوي ان يبيت في ثكنة او يتعمر في معسكر الا في ايام الحرب. وعمله في السلم ان يشترك مع من تطوع من ابناء عشيرته في المحافظة على الامن ضمن حدودهم، حتى اذا حدث حادث فيهم، من تعرض لعابر سبيل او نهب او سلب، كانوا هم المسؤولين عنه وعليهم تبعته. وجلالته في كل عشيرة من عشائر الحجاز جند من هذا النوع يحفظون الامن في ايام السلم ويلبسون الدعوة في ايام الحرب. وطريقة انخراطهم في سلاك الجيش ان تكتب اسماءهم في السجل بمكة ويعطى كل واحد منهم بندقية ثم يجري له مرتب شهري يقبض في آخر كل شهر نصفه ويحفظ له الباقي

كضمانة على أن لا يفر ولا يتخلف عن الاجابة حين يدعى وليس لهذه القوة ضبط ولا رتب عسكرية عالية ولكن الملك يجعل لهم عرفاً ونقبا. منهم. وقد رأيت جماعاتهم تفد على مكة في اوائل الشهور تمقدمها الطبول ، وفيها الفارس والراجل وصاحب الرحلة ، فتوزع عايمهم المرتبات ويبيتون ليلة على مقربة من القصر، ثم ينقلون على أعقابهم.

..

وللملك حسين موسيقى خاصة ، كانت للاشراف من امراء مكة قبله ، يقال إنها في شكلها الحاضر قديمة العهد ، وسمعت بعضهم ينقل ان أول من كانت له ابونمي ، وبقيت تعزف لكل من يتولى اماره البلد الحرام . وهي مؤلفة من خمسة طبول وثماني نقارات وثلاثة مزامير . يحمل كل طبل رجل ، وكل نقارتين رجل وكل مزامر رجل ، ويصطف هؤلاء الاثنا عشر عازفاً أمام دار الحكم ، كالحلقة ، يابسون اعملهم هذا لباساً خضاً احمر اللون وردياً ، ويعزفون عصر كل يوم وعشاء كل ايلة ، خلا عصر الخميس وايلة الجمعة . وايس في أنغامهم جديد بل ان لهم تاحيناً خاصاً هم مستمررون عليه ، محافظون على نبراته ونقراته ، يتوارثونه عازفاً عن عازف ! ولهذا التلحين ضجة وجلبة . ومن يألف سماعه لا يعدم أن يجد فيه شيئاً لأسميه طرباً ولكنه أقرب الى الطرب .

وقد كانت لوالي الحجاز — في أيام الترك — موسيقى عسكرية كغيرها مما في مصر والشام ، بقيت بمكة حتى الآن . وهي تضرب يومي الثلاثاء والسبت من كل أسبوع أمام بيت الملك ، قبيل الغروب .

..

ولابناء جلالة الملك مع أبيهم أسلوب خاص في المسكاتبة . أما هو فيكتب « ولدنا فلان » ويوقع باسمه « حسين » وأما بنوه فكان خطابهم له قبل تملكه من نوع ابريقيتين الالية صورتاهما بالحرف الواحد كما رأيتهما :

الاولى : من جدة في ١٠ تشرين الاول ٣٣٠ (رومية) الى مكة .

سيدنا وسيد الجميع

ج — العمور ماعداً منهم أحد ، آل سبيع توجوهوا . المملوك: فيصل

والثانية : من جدة (بالتاريخ السابق)

مستعجلدر . سيدنا وسيد الجميع

ج — الرب بعناية الله محفوظ وقصدي الليلة أنتقل على قوس عسى الله
يطرحهم في يدينا . المملوك : فيصمل

وأما بعد التملك فبهم يخاطبونه بجلالة ولي النعم ، والمنقذ الاعظم ، وصاحب
الجلالة الهاشمية ، وما يشبه ذلك .

..

ولجلالته عناية عظيمة بجريدة القبلة لسان حاله والمعبرة عن آرائه وافكاره .
تداول تحريرها وادارتها بضعة ادباء معروفين ، أولهم السيد محب الدين الخطيب
الكاتب القدير ، وثانيهم الشيخ فؤاد الخطيب الشاعر الكبير ، وثالثهم الشيخ
الطيب الساسي من أفاضل المغرب . ولا يزال تحريرها منوطاً بالسامي الى اليوم .
ومديرها الآن الشيخ حسين الصبان من أهل مكة ويرجع الى أصل مصري .
ولجلالة الملك مقالات كثيرة فيها يعرفها قراؤها بأسلوب كتابته الذي لا يتغير ولا يتبدل .
وهو كثير الرجوع الى ما شتمت عليه مجلداتها من أخبار وأفكار . وله ولوع
بمطاعتها والتمثل بأقوالها ، حتى انه ليذكر غير القليل من مقالاتها . وطال ما كان
ينتهي بنا الحديث الى موضوع فيقول : كتبت القبلة في هذا ، وكان رأيها كذا ،
واليكم العدد . ثم يأمر بحمل مجلد السنة الاولى أو الثانية أو غيرها اليه ، فيؤتى به ،
فلا يصعب عليه الاهتداء الى ما يطلب ، بسرعة عجيبة .

..

ولا اراني في حاجة لأن أقول إنه هو كل شيء ، في الحجاز ، ومرجع كل أمر ،
دق أو جل ، وليس ماهنالك من موظفين ومستخدمين ووكلاء وشيوخ ومديرين
وعسكريين وحكام ، إلا أشباحاً وشخصاً لا سلطان لها ولا رأي ولا حول ولا قوة ،
بل هو صاحب الرأي والسكلمة في السياسة والادارة ، وفي البدو والحضر ، وفي
الجند والضباط ، وفي المحكمة والسجن ، وفي المطبعة والجريدة ، وفي البلدية والشرطة ،
وفي البرق والهبريد ، وفي المسكن والجباية ، وفي كل ما لا يتسع المجال لذكره .

وأثر في نفسه اختلاطه باذكاء البداية وشعراهم الفطرين فنظم « الحميني » وهو نوع من شعر البدو، يأتي في بحث « أدب البداية » الكلام عليه وشي، من نظم جلالة الملك فيه . وأظن للملك نظاماً من المعروف عندنا، ولكنني لم أطلع على شيء منه ولم يتيسر لي أن أجراً على سؤاله أو استنشاده ، وإنما أدركت ذلك من وقفة لي معه يوم قدم مكة ابنه الأمير زيد ، فقد نظمت قصيدة وصفت فيها ما تسكبه سوربة من شقاء الاحتلال ووجهت القول في خلاها الى جلالة الملك فقلت :

با ابن بنت النبي أرهقنا العسـف ، فجرد له الحسام الرقيقا
بالذي شاد « كبكبا » « وثيراً » وأحاط الهداة « بيتاً » عتيقا
بالصفا، بالحجون، بالركن، بالكعبة ، لبالصريح واقض الحقوق !
إن في الشام أمة لا تطيق الضـم ، تأبى لها العلى أن تطيقا !
أوسعوها تعالة وعوداً وسقوها من الخداع رحيقاً !
أنذرونا بالموت ، ما أعذب الموت إذا كان للحياة طريقاً !
مكروا جهدهم بنا ، وإيأى - المكر الا باهله أن يحيقا ..
أور في « جلق » الكئيبة زنداً وأقم للطعان في « الشام » سوقاً !
أمطر القوم بالصواعق حتى لا ترى أعين العداة البروقا !
إن للباطل اضطراباً على الحق - وعقباه ان يكون زهوقاً ..

فكان يقول بعداً كثيراًياتها : لبيك لبيك ! ويهتز ويتألم ، حتى أشفق عليه من شدة تلك الساعة . وبعد أن أتممتها تلاوة قال : والله لقد هممت أن أجيبك عليها شعراً لولا ما يحول دون ذلك من الشواغل الكثيرة .. والتفت الى رئيس تحرير جريدته « القبلة » وهو الشيخ الطيب الساسي فقال : أجبه يا شيخ طيب . أجبه ! .. وصدرت القبلة بعد يومين وفيها القصيدة والجواب عليها بضعة أبيات من البحر والقافية عنوانه « لبيك لبيك » وهو بلا توقيع .

جولة في البادية

يعتبر من عاشر البدو ولو قليلاً ، وخالطهم ولو أياماً ، على عادات وتقاليده وخواص لا يمالك من أن يستغربها أو يستطرفها . وفي بادية الحجاز كثير من هذا النوع كنت أود لو جمعت فيه مجلداً كاملاً تحف به قراء هذه الرحلة ، فإن البداية هم البداية في كل عصر وجيل . يتطور المجتمع وتنقلب الدول وتكثر المخترعات ويتقدم الانسان ، وهم اولئك الحفاة الرعاة الشعث الغبر ، تغمزهم الحضارة غمزات فينقادون خطوات ، وتأنى عليهم طبائعهم إلا أن يعودوا الفهقرى فاذا سجاياهم سجاياهم ، وأخلاقهم أخلاقهم ، كأنما جبلوا من طينة اسمها « سنة الله » لا تحويل لها ولا تبديل !

وهم على انفرادهم في خلاهم وعاداتهم انفراداً أوشكوا أن يكونوا فيه أمة وحدهم لها ما لها وعليها ما عليها . فقد يشاركون في بعض مظاهرهم وتقاليدهم من كان كثير الصلاة بهم أو قريب العهد في مساكنهم ومعاشرتهم من أبناء الحواضر المحفوفة بسكان القفار ولا سيما قطان القرى في الحجاز أخص منهم قروي الطائف فإن جلهم بداية يسكنون الدور بدل الخيام ويأكلون من خير زروعهم لا من لبن ضرعهم وفي هؤلاء من يغزو ويغزى كأصحاب المضارب لا فرق بين الفريقين إلا أن ساكن القرية أحرص على الاشتغال بحرث ارضه واستغلالها وساكن بيت الوبر أواع بالمغازي واحتيازا لاسلاب بقوة الساعد

..

ولقد قيدت اشياء مما رأيت من البدو ، وما سمعت عن البادية ، في جولتي القصيرة هذه ، لعل بها ما يحسن نقله ، إن لم يكن للتاريخ والتدوين فلفسكاعة والمسامرة . ولم أر فائدة في التبويب والتنسيق فأطلقت الحديث مرسلاً ، ومزت كل خبر بعنوان يدل عليه .

الفراسة

الفراسة في اللغة صدق النظر ومنه حديث « اتقوا فراسة المؤمن » وفي القبائل السكثيرة النزول في الطائف قبيلة تسمى « فهما » مشهورة بهذه المزية ، قد يستعان بها في حل المعضلات ، ومنازلها جنوب تهامة . اخبارها غير قليلة يتناقلها الناس معجبين .

منها أن عنزاً سرقت من فهم وهي صغيرة (يسمونها جفرة ، وهي تسمية صحيحة) ومضى على فقدتها نحو سنتين الى أن كانت فتاة فهمة مارة بالطائف يوماً ، فابصرت الجفرة وقد أصبحت عنزاً فعرفتيا في حين انها غير موسومة - ولكل قبيلة وسم خاص تعرف به ماشيتها ، الا أن هذه سرقت صغيرة قبل أن توسم - فأقبلت الفهمية على اصحاب الجفرة تخبرهم بانها رأتها ، فرفعوا القضية الى حاكم الطائف وهو في ذلك الحين الشريف زيد بن ناصر فاستحضر من هي عنده فقال انه اشتراها جفرة وكبرت عنده وولدت . فبحث عن بائعها له فجني ، به بعد ايام وهو من سكان البادية فأخبره بانها كانت كسبا من فهم في اغارة له عليها فأمره برد القيمة الى مشتريها منه ، ودفع العنز الى صاحبها الفهمي ، وعجب من معرفة الفهمية لها بعد تلك المدة .

قص الاثر

قص الاثر في اللغة تنبئه ومنه الآية السكرية (فارتدا على آثارهما قصصاً) وفي القبائل القريبة من الطائف اليوم قبيلتان مشهورتان بمعرفة آثار الناس وغيرهم وهما «وقدان» و«الكباكية» . فأما وقدان فمنازلها على مسيرة ساعة شرقي الطائف الى الجنوب ، واما الكباكية فمنازلهم شداد واطرافها من سفوح جبل كبكب الذي سبقت لنا كلمة عنه . وهم يسمون قص الاثر « الجرة » ويرجعون الى هاتين

القبيلتين في كثير مما يعضل عليهم الاهتداء اليه، وقد تستحضر الحكومة اعدامهم في السرقات الخفية، فينظر في أثر قدم السارق، فيؤتى بمن يشبه بهم فيحقق في آثار أقدامهم فيخرج الاصل منهم . وقد أصبح ما يقوله السكابكة والوقدانيون حجة عند عارفهم لتكرره . فقام وتعدد اصابتهم حتى انهم في ما يقال لم يعرف عنهم الخطأ مرة !

(٣)

فمن أخبار الوقدانيين ان تاجراً كان في الطائف يدعى عثمان شافعي أصبح يوم ٩ من شهر الحج فرأى دكانه قد خرقت وأخذ ما فيها من أمتعة ودرهم ورحلي، وكان الحاكم الشريف زيد وهو في مكة اذ ذاك، فرفع الرجل قضيته الى وكيله فأمر بالبحث والتنقيب . أما عثمان صاحب الدكان فعاد من ساعته ، ودعا وقدانياً ، فجاء ورأى شيئاً من أثر انقادم فغطاه بوعاء وانصرف الى السوق يرى أقدام المارة ثم عاد فاطال النظر في الاثر وغطاه، والحكومة تبحث فلم تمر للسارق على خبر ولم يهتد الوقداني اليه ، وحضر الشريف زيد بعد أيام فحدث بالقضية فادتم لها ولم يظفر بمجدوى فيأس صاحب المال . وبعد أن مضى على الحادثة نحو شهرين ولم يبق للآثر أثر، كان الوقداني ماراً في سوق الطائف فرأى رجلاً ولج أثر قدميه (جرتنه) فعرف الجرة، وتقدم فتثبت منها وأسرع فنادى شرطياً راجياً منه أن يعرفه باسم الرجل فقال : حسن بن عبيد . فاخبر الشريف زيداً بأن السارق في السوق الآن فدعا به فجلب فاستنطقه فكان جوابه أنه يوم تاسع ذي الحجة كن في عرفة يابى مع الحجاج، وأثبت ذلك بشهود ثقات، فكاد الشريف أن يطلق سراحه لولا أن الوقداني أصر على أن هذا هو سارق الدكان دون غيره، فرأى الشريف ان يسجنه ثقة منه بآل وقدان، وشدد عليه فاعترف السارق وأخرج السرقة من مكان دفنها فيه، واتضح أن السرقة كانت قبيل الساعة الرابعة عريية من الليل وأنه أسرع من فوره فوصل عرفة صباحاً فاختلط بالحجاج ! والمسافة بين عرفة والطائف ١١ ساعة للراكب اذا لم يجلس للراحة في مكان . .

(٤)

ومن أخبار السكباكة أن رجلاً من أهل الهدنة ضاف عنده جماعة من هذيل فتظاهر بالنوم معهم حتى وثق من هجوعهم فنهض سارياً كالبرق إلى جبل ككب فسرق بندقاً (خرطوشاً) وعاد قبيل طلوع الصباح ولم يشعر بغيبته أحد ممن كانوا عنده . واصبح السكبي فشر بفقد البندق فأسرع إلى قص جرة السارق فتعقبها إلى أن بلغ الهدنة والمسافة نحو ٢٥ كيلو متراً بين جبل وسهل ووعر فنظر في الجرة فاهتدى إليها واوصلته إلى دار الرجل ، فدعا من في الدار قائلاً : هذه جرة من ؟ — فسئل عن غايته ، فحدث بما وقع له فخرجوا جميعاً فتقبض على السارق بعد أن رأى آثارهم وقال : هذا غريمي ! فشهد الضيوف الهذليون بأنه كان ناعماً معهم . ورفعت القضية ، فبرأت الرجل شهادة أضيافه . ثم عرفت القصة بعد حين .

وأخبار هذه القبائل الثلاث : فهم ووقدان والسكباكة ، غريبة كثيرة ، كلها على نسق ما تقدم . ولو أن في رجال البوليس السري من يعلم علمهم لا كشف كثيراً من الجرائم دون ما تعب أو نصب !

(٥)

الختان في هذيل

من غريب هذيل الحجاز في ختان ابنائهم أنهم يختنون الغلام بين سن الثانية عشرة والخامسة عشرة ، وهم يجتمعون قبل الختان فيلاعبون بالسيوف ويتسابقون على الاقدم والغلام معهم حتى يكون يوم الختان فيتقدم المراد ختنه ويأخذ سكيناً فيشحذها جيداً ، ويكون صباح ذلك اليوم قد ذبحوا كبشاً على صخرة ، ولوثوا الصخرة بدم الكبش ، فيأتي الغلام والسكين في يده فيرتقي الصخرة ، ويناول الخاتن السكين وهو يقول : طهر يامطهر وجود التطهير !

ويعطى الغلام سيفين يأخذهما بيديه فيبدأ الخاتن يكشط له جلدة العانة كلها إلى موضع الختن — وهي عملية جراحية شديدة الالام والخطر — ويظل المختون

يلعب بالسيفين في يديه وينشد قصيدة من شعرهم يحفظها قبل الختان . ويمدون أكبر العار على الفتى المحتون أن يتألم أو يتململ فينعتونه بانه « رحة » أي ذليل ومن ظهر عليه التألم ابت التمتيات ان تزوج به . وقد يحضر الختان أحد أعداء الفتى أو مزاحيه في زواج فتاة فيجد شفرة له أو رمحا فيخزّه في رجله كي يتألم فينسب المله الى جراحة الختان . فاذا وقع لاحدم هذا صبر على الوخزة ودعا قومه بكل ثبات جأش لرؤية ما عاق بقدمه فيخرجونه ان كان شفرة أو غيرها وهو بين يدي الختان كأنه لا يشعر بشي . وكثيراً ما تنشأ الفتن بين القبيلتين أو أفراد القبيلة الواحدة من أجل هذا .

(٦)

• وواكبهم •

إذا أرادت طائفة من إحدى القبائل الكبيرة ان تسير في موكب اغزو أو لحاجة ، تقدمت الخيالة حاملة الرماح ، متمنقة بالشافات ، ثم تتلوها الهجانة (رابكة الهجن وهي نوع من الابل في اصطلاح البادية معروف) والهجانة لا تحمل الرماح وإنما تربط على ميامن ابلها بندقياتها ، ويتوسط الجمع علم القبيلة أو القوم ويبدأون سيرهم بأن يصيح فيهم صائح بكلمات سمعتها ولم أفهمها فيصوتون جميعاً كالهتاف ويعلو صوت شاعرهم أو حاديههم قائل « يا لالا لا ، لا لالي ، يا لالي » فتعيدها الهجانة ، ثم يأخذ بالنشيد على نغمتها ووزنها وهم يرددون ما يجهله كاللازمة من الانشودة والاغنية ، ويتلوهم ضاربو الدفوف من العبيد أو غيرهم ، ينقرون على دفوفهم بما يوافق الحداء .

(٧)•

ركوب الرماحة

يسمون الرمح المريش والمريوش ، لريش يوضع تحت سنانة . ويعاب على حامل الرمح اذا أراد ركوب فرسه أن يعمد الى صخر أو حجر فيرتقيه ليتمكن من اعتلاء الفرس -- وأكثر خيلهم لا ركاب لها . وإنما عليه ان يركز الرمح في

الارض بخفة ولباقة ، ويتسكى ، عليه يئمناه أو ييسراه قافزاً الى ظهر الفرس ، والريح في يده . ثم يعتدل في ركوبه مستعيناً به اذا جمح جواده او تقلقل هو فوقه . وكل أن يجد في فرسانهم من لا يقفز الى ظهر الجواد فياصق به لا ركب له ولا متكأ .

(٨)

صبرهم على الألم

البدو أصبر الناس على الألم . روى لي في مكة أحد ملازمي الأمير عبد الله أنه خرج يوماً لقتال ، حتى اذا اشتبكت القنا بالقنا ، اصابته رصاصة بدوياً كان معه فدخلت من صدغه الايمن وخرجت من الجانب الايسر من أنفه وقامت عينه في مرورها ، فسقط البدوي عن ذلوله حين شعر بالاصابة فشرد ذلوله منه فالتفت الى ما حوله محدقاً بالعين الثانية اين ذهب الذلول ، حتى رآه ، فعدا خلفه كالظبي الى ان ادركه فركبه وعاد والدم يقطر من وجهه فقال له الأمير متعجباً : أما منك الألم من رؤية ذلولك والجري وراءه ! فقال البدوي : يا أمير يكفيني خسران عيني أتريدني اخسر العين والذلول معاً !

(٩)

الوضع

لا تزال في عرب البادية خاصة القدرة على وضع الاسماء لكل ما يرونه ارتجالاً ، وقد كنت اعجب من قصة ساجان البستاني مع الاعرابية في بادية العراق حين ارادت الاستغاثة به ورأت على عينيه نظارتين فصاحت به : يا ابا المناظر ادركني ! وبينما أنا جالس يوماً للطعام بمكة وحوالي رجال من البادية لم ينزلوا الحواضر الا قليلاً ، عرفت ذلك من هيئاتهم ونظراتهم واستغرابهم كل ما يرونه ، اذ جني ، باللحم والارز فأكلوا بأيديهم ما شاؤوا وهم يحسبونهم كل شيء . فقال لهم عارف بهم : اننا معاشر الحضرة لانأني بالطعام دفعة واحدة بل نجعله انواعاً ونجلبه

شيئا فشيئا. فرفعوا أيديهم عما امامهم، وجيء بالصحن الثاني فالثالث فقال أحدهم :
وي، تجلبون الطعام دلف! — يريد تباعاً — قالها من دون ان يفكر أو يتأمل . وأراها
لفظة يحسن بنا ان نجعلها بدلا من الكلمة التركية الشائعة بيننا « قلدر »
وشتان ماها . والدلف في اللغة أن تمشي مشي المقيد .

وعرب الحجاز منذ عرفوا البرقية (التلغراف) سموها السلك على اسم
السلك الذي يحملها فهم يقولون « جاءني اليوم سلك من فلان » وهو كقول العرب
الاقدمين « جرى النهر » يريدون ماء النهر و « أنبت الربيع البقل » يريدون ماء الربيع .
والآية الكريمة « واسألوا القرية » أي أهل القرية . فيقال في « جاء في السلك » أي
خبر السلك ، أرى هذه التسمية أقرب الى الالذهان من كلمة « البرقية » الشائعة بين
ادبائنا منذ سنين كثيرة ولم تدخل حتى الآن في امجاع العامة التي ألفت لفظ
التلغراف فلا تعرف غيره

وأهل الحجاز كافة من بدو وحضر لا يعرفون ما يعرفه أهل الشام ومصر
من كلمتي « بز السيكرة » و « الفم » الاسمين لما توضع فيه لفافة التبغ . بل اسمه
عندهم « المص » وهذه أفضل لولا أنهم يضمون الميم الاولى . كما أنهم لا يفهمون ما
نفهمه نحن من كلمة « قلم رصاص » لانهم يسمونه « المرقم » وهذه التسمية أفضل
وأجمل . وهناك كلمات وامماء كثيرة غير هذه لبت من يسمع له وقته في تلك
البقاع ، يجمعها ويعرضها على الناس

(١٠)

الرياح

سمعت عرب الطائف يتقسمون الرياح الى نوعين : الاصائل ، والاركان .
ويعنون بالاصائل الرياح التي تخرج من احدى الجهات (الاصلية) : الشرق والغرب
والجنوب والشمال . ويعنون بالاركان الرياح التي تخرج من زوايا الجهات الاربع .

فتنقسم الرياح عندهم على هذا الى ثمان ، على الشكل الآتي :

ركن	شرق	ركن
شمال		جنوب
ركن	غرب	ركن

ويسمون رياح الاركان بالنكبا ، وهي مؤذية . يخشونها واما الاصائل فمنعشة نافعة للجسم والنبات .

(١١)

ناقة الاعرابي

من أجل ماسمعت البداة يحلفون به قولهم « وحياة نياقي » يلفظون التقاف كافا معقودة كما يلفظها سائر أهل الحجاز والعراق . وهذه اليمين عندهم من أشد الايمان ، تعرف منها منزلة الناقة في عين الاعرابي !

(١٢)

الثلاث البيض

الثلاث البيض مقدسة عند عرب الباذبة يستبجحون دم من يمسه او ينكص بها وهي كما يسمونها : الضيف السارح ، والطنب السابح ، وخوي الجنب . فالضيف السارح : الضيف الذي نزل على احدهم وأكل عنده وسرح . فان قتله احد في طريقه وجب على مضيفه ان يأخذ بثأره ، فيقتل قاتله ، أو يقتل احد أقرباء القتاتل ، غدرأ او مقابلة ، أو على أي شكل كان . ولا يؤاخذ مؤأخذ . والطنب السابح : يعنون به طنب الخيمة الممدود ، وهو كناية عن الجار

الملازم لجاره ملازمة الطنب (وهو حبل الخباء) للخيمة . يعنون بذلك وجوب المحافظة على الجار والدفاع عنه والاخذ بثاره إن قتل ، ولا يؤاخذ الجار اذا قتل قاتل جاره ، ولادية عليه .

وخوي الجنب : الرفيق وعندهم أن من سار معه البدوي سبع خطوات أصبح « خويه » ووجب عليه ان يقاتل معه ويحميه ولو كان قاتل اخ له .

..

ولهم عناية عظيمة ، وأنظمة خاصة ، في الثلاث البيض . منها أن من خفرت ذمته بان قتل له جار أو ضيف أو خوي (مؤاخ) واعياه الوصول الى القاتل ليقته به أو اعجزه الاخذ بثاره ، رفع شكواه الى كبير عشيرته فان كان القاتل من قبيلة أخرى ذهبوا الى تلك القبيلة واخبروا شيوخها بالامر طالباين منهم أن يساعدوهم على « النقا » وهو عندهم الاخذ بالثأر . وعلى الشيوخ أن يقدموا لهم القاتل أو أحد أقربائه فيقتلوه به أمامهم ، ثم يعود الآخذون بالثأر فيدعون اشياخ تلك القبيلة ويقيمون لهم وليمة ، ويرفعون أعلاماً بيضاً خاصة معروفة لديهم ، اشارة الى ان هذه القبيلة بيض الله وجهها قد اعانتهم على الاحتفاظ باحدى الثلاث البيض . ومتى جاء موسم الحج يقف أحدهم في عرفات فيسمي تلك القبيلة باعلى صوته ويحييها على وفائها . وكذلك ان كان القاتل من قبيلة المضيف فله يحدث شيوخ قبيلته بالخبر ، وعلى أهل القاتل ان يحضروه ليقتل أمامهم أو يحضروا احد أقربائه ليقتل بدلا عنه . وكثيراً ما يقتله أهله افتخاراً بانهم يحافظون على عهود الثلاث البيض .

وقد يتبادر الى الذهن أن المتصود بالثلاث البيض هو الخوي أو الضيف أو الجار من ابناء الحضر . وانما هي عامة شاملة لكل محتم أو لاجي من اي قبيل كان ، حضرياً أو بدوياً .

ومن قواعدهم أن الضيف السارح لا تصح عايه هذه التسمية ما لم ينزل ويأكل من طعام المضيف ولو لقيات من الخبز (ويسمونه العيش) اما من جاء فطلب ماء أو لبناً (حليياً) فشرب الماء أو الحليب وسرح فلا يعدونه ضيفاً ولا يعنون بشأنه بعد مفارقه لهم .

ولشعرائهم في الثلاث البيض والفخر بالاحتفاظ بها ، اشعار رقيقة المعاني منها
قول شاعر من قبيلة الثبته (وهي فخذ من عتيبة) :
يا البيض لا لاحد صبحه ماشيتي ولا مشيتي من بلاد اليا بلاد
والبيض قال اللي تقوا ، وانا الثبتي والمردفه ما هي كما وسق الشداد
ومناه :

ايتها النسوة البيض لولا حد هذه الشفرة (وهو يسمى شفرته اوشلفته صبحه)
لم تستطيعي ان تمشي من بلاد الى بلاد ، ولي فال من وصفكن بالبيض . فان البيض تبشر
بانها فال الذين يأخذون بالثار ، وأنا الثبتي الذي تعرفنه . وليس آخر الرجل كمتصفه :
اي ليس كل الرجال سواء ! — والمردفة آخر الرجل الذي يعلوه المردوف ،
ووسق الشداد وسط الرجل —

(١٣)

اليد اليمنى

للعرب عادة هي ان لا يجوز لاحدهم تقديم شئ ، من طعام أو شراب الى
احد بغير اليد اليمنى . واتفق اننا مررنا برجل من كبارهم على مقربة من الطائف
فاتحتني بنا واكرمنا بالقهوة والشاهي فنهض أحدنا ينوب عنه في تقديم الفناجيل
(وهي الفناجين عندنا ويسمون الفنجان الفنجال) فأبى مضيفنا إلا أن يكون هو
الساقى لنا ، فأصررنا على ان يكون أحدنا فامثل . وتقدم رفيقنا فأخذ الابريق
بيمناه والفناجين بيدسراه (كما هي العادة في أكثر البلاد سهولة الصب باليمن) فانكر
عليه صاحب البيت عمله ، وقال : ان العرب لا تسقي باليسار وانما تحمل الابريق
بيسارها وتقدم الفنجان بيمنها .

(١٤)

الاهام

الخرافات والاهام قليلة الشيوع في بادية الحجاز . وهم لا يعرفون ما يقوله عوام
سورية والعراق وغيرها عند خسوف القمر وكسوف الشمس من ابتلاع الحوت !

وقد خسف القمر ليلة ونحن خارج الطائف على مقربة منه ، وقد جاسنا مع احدهم فجري حديث القمر لرى ما رآه فيه ، فلم يكثر ولم يهتم ، بل قال : « اظنه تحول عن مركزه » !

ولم نسمع أثراً للضجة التي تقوم في بلادنا عادة عند وقوع مثل هذا الحادث ، بل خسف القمر خسوفاً أقرب الى الكلي وعاد الى حاله الطبيعية بعد ساعتين ولم يتحدث بشأنه أحد غير من هناك من ابناء العراق وسورية .

(١٥)

شجعانهم

سألت بعض العارفين باخبار القبائل عن اشجع عتيبة وثقيف اليوم ، فقالوا : ضاعت الشجاعة بعد وجود البندق !

قلت : فهلا يمتاز في الحيين أحد عن الآخر باقدامه ؟ قالوا : بلى ، ان كنت تريد ثبات القلب في الوقائع ففي القومين عدد كبير !

وتابعت البحث فعلمت أن اولئك الذين تضرب بهم العرب أمثالها في العصر الحاضر أكثرهم قد ماتوا . منهم فاجر بن شليويح من قبيلة الروقة (من عتيبة) روى لي من سمعه يعد أسماء من يذكروهم من قتلاه فاذا هم اثنان وستون . ومات قتيلاً في إحدى غزواته سنة ١٣٣٥ هـ

ومنهم ناصر بن عقيل من الدعاجين (من عتيبة) قتلته قحطان نحو سنة ١٣٣٠ هـ

(١٦)

ابن حميد المقاطي

من أشهر فرسان العرب ودهاتهم في العصر الاخير محمد بن هندي بن حميد المقاطي (بالكاف المعقودة كسائر القافات) من قبيلة المظنة (وهي قبيلة واسعة الديار تمتد منازلها من شمال تهامة الى قرب نجد) وهو من سكان الغطفان بين نجد والحجاز .

كان فارس عتيبة في تلك الانحاء وكبرها مات سنة ١٣٣٣ هـ ، عوى به بعيره فقتله .
لم ينفرد بالشجاعة بل عرف ايضا باصالة الرأي ورجاحة الحلم وهيبة المنظر .
اخبرني رجل ادركه وعرفه ، قل : زار ابن حميد والذي يوماً فجعلت اطليل
النظر الى جراح رأيتها في عنقه وصدره فاستدناني منه فدنوت فكشف قميصه وقال :
انظر . فنظرت فاذا جراح هائلة عدتها ستة وثلاثين كلها قد اندملت .

وكان مع الشريف (الملك) حسين في رحلته الى نجد على اثر توليه امارة مكة .
فأنعم عليه ببندقيتين خملهما الى بعض أصحابه ينظر اليهما ويعجب منهما ، اذ لم يكن
سلاحه غير السيف والرمح . فأخذ أصحابه يعلمونه كيف يطلق البندق (الرصاص)
وتناولهما بين يديه يطيل التأمل فيهما ساعة ثم القاهما وقال : لا حاجة لي بهذا !

وله في ذم البندقيات ويسمونها « الموارت » و « المواريت » جمع مرتينه :

ضرب الموارت ما بها نوماس حذفة شرود من بعيد
عليّ قضب عنانها والراس والله يدبر ما يريد
عليّ باللي تبعد المرواس والعمر لازم انه يبيد !

— قضب العنان في اغمتهم امساكه جيذا . والمرواس ميدان الخيل وشوط جريها .
يقول : ما في ضرب البندقيات من فخر فانه اطلاق شرود من مكان بعيد ، وإنما
عليّ أن أضبط عنان فرسي ورأسها ويدبر الله ما يريد ، عليّ بالفرس التي توسع
ال ميدان ، وأما العمر فلا بد من ان يبيد . .

(١٧)

من اخباره

اخبار ابن حميد ووقائعه كثيرة تذكركنا بما كانوا يحدثون به عن شجعان
العرب في الجاهلية . وكانت بينه وبين قبائل قحطان في أطراف نجد عداوة
متأصلة حتى أنهم نذروا مئة ناقة لمن يأتيهم به قتيلا او جريحا أو أسيرا
فمن وقائعه معهم انه سرى ليلة في نحو ثلاثين من رجاله في اراضي قحطان
فدهمهم نحو خمسين خيالا قحطانيين فلم يأبه لهم وأشار الى من معه ان يردوهم .

فارتد فرسانه للقتال وظل في سيره لا يبالي بالامر ، راكبا ذلولاً وسلاحه مع عبد له يقود فرسه خلف الذلول . واشتد القتال وثبت القحطانيون فوهن المقاطيون (جماعة ابن حميد) وقتل منهم عدد فلهزموا لا يلوون على شي ، وغم مقاتلوهم كل ما معهم من الابل والحمول وخيل القتلى . والتفت هو فرأى تشتت اصحابه فنادى عبده ، فلم يجده ، وكان قد ركب الفرس وذهب يقاتل ، فحار ابن حميد في امره لا فرس له ولا سلاح في يده ، وأدركته الخيل بوابل رصاصها ، فقتل ذلوله ، فترجل وابتدر مختبئاً اختفى فيه عن العيون ، حتى هدأت نائرة القوم فتغلغل في الجمع وقد تلمس يريد أن يسمع أخبار أصحابه ابن ذهبوا فاعترضه شاب من القحطانيين ودعاه باسمه ، خافت الصوت ، فلم يجبه ابن حميد فكرر النداء ثانية وفي الثالثة قال : يا ابن حميد أنت آمن ! فأقبل عليه حينئذ فعرفه وكانت لابن حميد يد على هذا الشاب منذ سنين . فدلّه القحطاني على الموضع الذي لجأت اليه خيالاته واعطاه ناقته وقال اسلم بروحك . فخرج ابن حميد راكبا فلم يتعد حتى اعترضه رجل من قحطان عرفه فدنا منه راجلاً وصاح مبتهجاً : ابن حميد يا آل قحطان ! وضرب ابن حميد بشافه اصابته يده اليسرى فسلها ابن حميد باليمنى وضرب بها الرجل فقتله وسلبه شافتيه ومشى مساحاً لا يبالي حتى التقى بمن بقي من رجاله ، فركب فرساً واخذ سيفاً وانتقى اثني عشر فارساً ، في خيولهم قوة ، وقسمهم ثلاثة أقسام أربعة منهم معه واربعة يغيرون على القوم من اليمن واربعة يغيرون من اليسار وأمر هؤلاء الثمانية أن يترشوا حتى يسموا صوته في الجمع . وأغار هو ، وعلا في القحطانيين صوت ابن حميد فلم يصبروا غير قليل وتفرقوا ناجين بأرواحهم وقتل طائفة منهم واستعاد أمواله وسلبهم أموالهم وأنجه حذراً حتى بلغ حدود عتيبة فأمن . اهـ

وكان ابن حميد اذا أراد الكلام نطق به متمهلاً لا يفوه بالكلمة قبل التأمل بها . ولا يصنع هذا تسكفاً بل هو طبيعة فيه .

(١٨)

تحيتهم

التحية فيما بينهم تختلف صيغتها ، وأكثر ما يقولونه لا غريب فيه . أما تحيتهم لذوي المسكنة الرفيعة ، فهم إذا أقبل أحدهم على الملك قبل يده وركبته ، وإذا أراد تحية أحد الأمراء قبل يده وربما قبل ركبته . وأما تحيتهم للأشراف فقد رأيت بعضهم حين يرون شريفا يريدون السلام عليه يتقدمون الواحد يتلوه الآخر فيبدأ الرجل منهم يقبل لحية الشريف من الجانبين ، ثم يقبل عقاله فوق جبينه ثم رأسه ، وينحني بعد ذلك على يده فيقبلها ، ويتباعد . ويعقبه الثاني وهلم جرا

ومن قواعدهم أن راكب ما دون الفرس والبغل إذا أراد السلام على راكب الفرس يبتدئه قائلا : كرمت : السلام عليكم . وإن كانوا جماعة قال : كرمتم ، السلام عليكم . وبعضهم يكتفي بلفظ السلام فقط . ويريدون بلفظ كرمت أو كرمتم الاعتذار عن أنه غير مساو لراكب الفرس أو ما يماثلها

وإذا أراد أحدهم النهوض من عند آخر قل الناهض للباقي مودعا : « في أمان الله » فيجيبه الآخر « مرحبا » ولا يختص عرب البادية بهذه بل تجدها في الحجاز كله ، وهي أفضل معنى من قولنا في سوربة « خاطركم » والجواب « مع السلامة » فإن قول المودع « في أمان الله » يريد أن يقول ادعك في أمان الله ، وقول المحيب « مرحبا » يريد : نجد سعة ورحبا حيث أجهت .

(١٩)

القضاء

من تتبع أخبار القضاء في بادية الحجاز وعرف طرائقه وأساليبه أعجب به كل الإعجاب ورأى انتظاماً محكماً وقوانين متوارثة تتفق مع عاداتهم وأخلاقهم وسيرهم في حياتهم الاجتماعية . ومن الخطأ أن يظن ظان أن قبائل العرب في البادية مطلقو السراح ، ملقى حبل كل منهم على غاربه ، بل إن هناك محاكم وقضاة أشبه بمحاكم

الحضر وقضاتهم فترى القاضي الابتدائي والاستثنائي والتمييزي كما نسميه نحن ، وهم لا يعرفون هذه الاسماء ، إنما يعرفون ان هذا القاضي دون فلان مكانة ، وفلاناً دون فلان ، فربما رجعوا الى الاول في القضية فان فصل بينهم بما يرضي الفريقين ويتنعهما اكتفوا به ، وإلا رفعوا القضية الى من هو أرفع منه ، فان لم يرو غليلهم قصدوا القاضي الاعلى (وهو كالتمييز) لا يردون له حكماً ولا يعدلون عما يقضي به أرضاهم أو أغضبهم .

(٢٠)

طريقة المحاكمة

وطريقة المحاكمة في القضاة أن يتقدم المتداعون إلى القاضي فيقدم له كل من الخصمين شيئاً كخنجر (جنبة) أو بندقية أو بندق (رصاص) وقلّ فيهم من يقدم الدراهم لأنهم لا يرونها جديرة بمقام القاضي . وبعد ذلك يدنو أحد الخصمين أو النائب عن أحد الفريقين ، فيرفع قضيته ويدكر ماله من الحق وأدلته عليه ويسمى شهوده . وبعد انتهائه يدنو الثاني فيدافع عن نفسه بما يكون لديه من الحجج والبراهين ويبدأ القاضي بعد أن يسمع أقوالهما ، فيسأل اسئلة تتعلق بموضوع القضية حتى يتبين له الحق فيعتدل ، ويقول : وضح الصواب - أو حصص الحق - وقع مثل قضيتكما هذه في زمن فلان فقضى فلان بكذا ، ووقع مثلها في زمن فلان فقضى فلان بكذا وانا أقضي بينكما بما قضيا به ، ويفوه بحكمه الحاسم للخلاف .

ولا يقبل من القاضي حكمه مالم يذكر للحادثة نظيرين من حوادث العرب ، ويؤيد الحكم بمثلين من الوقائع الماضية . وعندها يأخذ المحكوم له ما قدمه الى القاضي خنجراً أو غيره ، ويأخذ القاضي ما جاء به المحكوم عليه كنفقات محاكمة أو أجرة .

والاجدر بالقاضي عندهم اذا تسكلم ، ان يلتزم السجع في كلامه ، فلا ينحط الى درجة العامة بل يرتفع عنها ، ليكون لقوله التأثير المطلوب في المتداعيين . .

قضاة عتيبة وثقيف

قبائل عتيبة كلها ترجع في قضائها الاخير (التميز) الى آل هليل . وهم قبيلة منهم تتداول القضاء بالارث ، لا يدرس أحدهم الحقوق في الجامعات ولا الكليات بل يتفقه في بدء نشأته بشيء من علوم الدين ، ثم يتلقى أخبار القضاة عن أبيه أو عمه القاضي ، ويصغي الى احاديث القضاء فيحفظ كثيراً من الوقائع والشواهد التاريخية القضائية عندهم ، حتى اذا انتهى اليه الامر كان حلالاً للمشكلات كشافاً للمعضلات . وقضاة عتيبة الأعلى في بادية الحجاز منحصر اليوم بالشيخ تركي بن هليل ، وقوله القطع . وفي قبائلها عدة قضاة يختلف درجتهم ولا يرجع الى أحدهم بعد ابن هليل ، وقد يماثله في درجته ابن دخين وهو من قبيلة الثبته احدى بطون عتيبة . ولكن بني هليل أوسع شهرة وأكثر قصداً :

وأما ثقيف فقد أصاب رابطتها شيء من الوهن على أثر شحناء قامت بين بعض فروعها فهي تسكاد كل قبيلة منها ترجع الى شيخها وربما بلغ عدد شيوخ القضاء فيها الآن خمسة عشر شيخاً .

الشعر في المحامكة

كثيراً ما يتكلم المترافعان بالسجع أو بالشعر ، فلما النثر فامثله غير قليلة ، وأما الشعر فاليك نبذة منه :

اختصم ثلاثة رجال من ثقيف أحدهم يدعى حمدان القمش والثاني ديبان واثالث نافع ، في قضية ، ثم انحاز نافع الى رأي ديبان فذهب حمدان وديبان الى الشريف فواز بن ناصر وهو في الطائف يرفعان اليه أمرهما ، فلما سألها عن الشأن تقدم ديبان فقال مرتجلاً :

باسيدي أنا جيتك أشكي واهمّ في محضارك أبكي !
منقوص ، والمنقوص منكى إليا قرع من غير صايب

فاجاب حمدان :

ياسيدي ديبان عليكي !
 يبغى العرب يغدون هلكي
 من دون حوض الحق مركي
 وميراد له شبا وشايب !
 فقال ديبان :

ولد القمش بالزور يحكي
 وبوه وهابي وشركي
 يبغى الرضى يمشي بسمكي !
 وفي الحق اخدنا بالنهايب . . !
 فقال حمدان :

نافع رضى واعطيت ملكي
 واصبحت ويا القوم شبكي
بالملح والمصبوب سبكي
 وعاننا الله في الغلايب !
 قال راوي الحديث : فأمرهما الشريف ان يجلسا فجلسا وقد سر منها . ثم أصاح
 بينهما واجازهما بجائزة حسنة .

تفسير الغامض في قوليها :

(المنقوص) من سلب حقه . (واليا) اي واذا . (وقرع) اي أنذر . (وغير
 صائب) اي بغير حق .

(عليكي) . تعلى منحرف عن الحق . (مركي) متكي : يريد ان خصمه معتمد
 على غير حوض الحق . (ميراد له الخ) أي مع ان ذلك الحوض - حوض الحق -
 هو مورد الشيب والشبان . (والميراد) المورد .

(السمكي) نوع من النمود الجاوية . (في الحق) اي وفي الحقيقة . (اخدنا
 بالنهايب) أي انه قد أخذنا نهيباً .

(الملح) البارود في عرفهم . و (المصبوب) الرصاص . و (السبك) نوع
 من الرصاص عندهم .

(٢٣)

القسم في المحاكمة

تختلف نصوص الاقسام واشكالها عند عرب البادية في محاکماتهم . فمن أشكالها أن يتحاكم المترافعان فمن انكر كانت اليمين عليه طبقا لما في الشريعة السمحاء ، ومنها ان تكون القضية تتعلق بأشخاص متعددين ، كقبيلة او فرع من قبيلة ، فيقف خمسة وعشرون رجلا منها ، على شكل هلال يبتعد بهم قليلا كبيرهم فيقسم أولهم قائلا « والله العظيم » ويعيدها الثاني « والله العظيم » فالثالث والرابع الى أن ينتهوا كلهم ولا يبقى غير ذلك المتقدم ، فاذا وصل اليه المحلف زاد على قولهم (والله العظيم) قائلا : ان القضية كيت وكيت .

هذا ان كانوا متفقين على شهادة او فكرة واحدة ، واما ان كانوا مختلفين فينقسمون ويحلف كل منهم على ما رأى او ما علم .

واما نصوص الاقسام عندهم فأكثرها مسجع فصيح ، فقد يقول احدهم نافيا ما أسند اليه : « والله الواحد القهار ، ما أنا لهذه الدعوى بخبار » وقد يقول في براءة نفسه : « بحق باري البرية ، قاطع المأل والذرية ، ان ذمتي من هذا برية » أي براءة ، وان كان يتكلم عن جماعة قال : « ان ذمتنا من هذا برية »

(٢٤)

الامارة في شمر

من غريب ما سمعته عن عشيرة شمر وهي أكبر عشيرة في نجد كالرولة في بادية الشام ، ان اميرها اذا قتل او مات أسرع الناس الى صعود منبر منصوب في احدى بقاع نجد يسمونه « المثبر » فأول من يصل اليه ويتمكن من صعوده ينادي بأعلى صوته : ياناس ! يابني شمر ! مات الامير ! الحكم لي ! - فيولونه امارتهم ولو كان من أضعف بطونهم ، ومن عصاه يقتل بلادية ولا قود . ولم أثبت من صحة هذا النبأ ، لما بيني وبين نجد من البعد .

(٢٥)

بجاربون عراة .

رأيت البدو يببالغون في العري أحياناً فظننت ذلك بادي، الامر اشدّ الحرّ في البادية ثم علمت من خبرهم عجباً !

يعتقد ابن البادية ان الرصاص لا يقتله اذا دخل جسمه لان اطباءهم يخرجون الرمية من الاضلاع بمهارة اعتادوها تتمحليها أجسامهم ، وبرى ان الرصاصة اذا أصابته وكان عليه ثوب ادخلت معها قطعة من ثوبه في جسده ، فاذا اخرجت البندقة بقيت القطعة الملتصبة من الثوب فتتمفن وتمرضه ثم تقتله ، فلهذا يفضلون العري اذا رحلوا محتاطين لقتال ينشب بينهم وبين أحد في سبيلهم . اما اذا ارادوا اقتحام المعركة فانهم يتجردون من التميميص ويستترا كثراً بقطعة ضيقة من التماس يربط بها وسطه ويضع فيها مقداراً يسيراً من الارز حتى اذا طال أمد القتال واشتد جوعه أخرج شيئاً منه وهو وراء مترسه فيأكله نيئاً ويطحنه بأضراسه .

(٢٦)

الحمى

قرأت في « اتخاف فضلاء الزمن » نبذة هذا مجملها :

.. وفي ١١ شوال سنة ١٣٣٩ هـ حدث أن فخذاً من عتيبة يقال لهم اثبتة منازلهم قرب الطائف نزلوا بالحوبة وهي حمى لآل طويرق من ثقيف ، فشكا الطويرقيون أمرهم الى الحاكم فركب ومعه خيال من الترك وعبد ، فلما وصل اليهم سألهم عن نزولهم في حمى طويرق فاعتذروا بنهم لم يعلموه حمى ولو عوزوا لتجنبوه . فقبل عندهم وحل عندهم ضيفاً وشرب قهوتهم على أمل ان يحل القضية صلحاً . واتفق أن عبده اعتدى على بدوي منهم ، فقتل البدوي ، فنهض اخ له فقتل العبد واتسع الخرق حتى اضطر امير مكة يومئذ الامير عبدالله أن يحضر الى الطائف فجاء واصلح ذات البين . قال صاحب الأنحاف : والحمى في عرفهم أن اتقبيلة من العرب تأتي الى إحدى الجهات وتبذر فيها الحنطة او الشعير فتكون تلك الارض حمى لها لا يمسها احد غيرهما ما دامت زروعها مقبلة فاذا ادبرت المزارع ابيحت الارض ويسمونها بعضهم « الركة »

(٢٧)

حقاة

البدوي لا يلبس الخداء ولا يستطيع ويحق له ذلك لكثرة جبال هذه البلاد ومنحدراتها وارتفاعها ، فهو حاف أبداً ومثله المرأة البدوية . وقد كانوا يعجبون منا جد العجب اذا رأونا نصعد جبلا او نهبط من مرتفع وفي أرجلنا أحذية الخضر « السكندر أو البوطات » فيطيلون التأمل فيما تحمل أقدامنا ! واعترضني أحدهم في انحدارنا من جبل كرا فقال : كيف تمشون بهذا ؟ قلت : تعودنا . قال : وتركضون ؟ قلت : وكيف لا ؟ قال : تسابق ؟ . . وشمر عن ساقيه فقلت : أما هذا فلا !

(٢٨)

الوان ابلهم

البا و هنا لا يلفظون همزة الابل ، يقولون « البل » . وابلهم منها ذات اللون المعروف الضارب الى الحمرة ويسمونها « الحمرا » ومنها نوع يضرب الى البياض ويسمونها « المغاير » ومنها ما يضرب الى السواد أو هو اسود حالك كالغراب ويسمونها « الدهاميم » وهي قليلة في بادية الحجاز لم ارها . ولا يكون البعير الواحد ذا لونين بل هو ذو لون واحد . وقد شوهد جنس من الابل غريب جنيء به الى الملك بعد النهضة ، مرقش ، يشبه في لونه بقر الوحش ، او النمر ، غير أن بقعه كبيرة وايس في الحجاز شيء منه ، وقد شغلتهم الحرب عن توليده في باديتهم .

(٢٦)

انواعها

والابل هنا نوعان : جبلية وسهلية . والاولى أشد وأصبر على الجوع والظما وهي دون الثانية جسوما وضخامة ، ولكنها أصلب وأحمل . واكثر الابل في بادية

مكة من النوع الاول القوي . ومن أمثالهم « القوة في القلوب لا في الجنوب »
يزيدون ان القوة ليست في ضخامة الجسم وعرض الجوانب .

(٣٠)

الآركيات

في بادية مكة نوع غريب من الابل يسمونه « الآركيات » أكثر ما تقتات به الاراك وهو عيدان السواك ، ويسمونه الاراك (بسكون الراء) ومنه اخراج كبيرة في ظاهر مكة شديدة الاخضرار حتى أيام انقطاع المطر . ويقولون ان الابل الآركيات اذا منع عنها الاراك اربعا وعشرين ساعة هلكت . ويؤيد هذا أن أكثرها يتخذ للنمل بين مكة وجدة (مسيرة يومين للجمال) وقد رأيت رعاتها يجعلون في أحماها شيئاً من الراك فاذا أطعموها جعلوا قليلاً منه في طعامها . وقد يطعم احدهم راحلته « الآركية » سواكه ، إذا لم يجد غيره من الراك (الراك) فتأكله وإن كان يابساً .

(٣١)

الهيام

من الامراض المشهورة عندهم في الابل « الهيام » وهو أن يشرب البعير أو الناقة من الماء الزاكد الفاسد فينتفخ طحاله فلا يلبث أشبراً حتى يموت فجأة . وهذا المرض مخوف على ابلهم جداً لقلّة الماء في الحجاز وهو سريع العدوى بالاختلاط أو بشم الصحيح بول المصاب ويسمونه « المهيوم » . واذا تدورك المصاب بعد المرض بايام معدودات أمكن شفائه وذلك بأن يطعموه الحمض (وهو نوع من النبات يكثر عندهم في أيام المطر والخصب) فإن أطعموه منه بعد ستة أيام شفى . وهناك نبات آخر يعرفونه يشفى المصاب من الابل بأكله قبل مرور تسعة أيام . ونبات آخر يشفى به قبل انقضاء اثني عشر يوماً . وان زادت مدة المرض على هذه الايام

يئسوا من شفاء المصاب . وحكومة مكة تعاقب بشدة من تجد عنده مصاباً بهذا الداء ، وتكافي ، من يخبرها به بخمسة مجيدات (نحو ٤٠ قرشاً مصرياً) تؤخذ ممن يوجد عنده . وهي تذهب حالاً كل ما تجد من هذا النوع الا ما يؤمل شفاؤه فتعزله منفرداً وتأمر بمداواته .

(٣٢)

بيطرة الهيام

وفي بادية الحجاز وتهامة رجال معروفون بالعالم في هذا المرض ومداواته و تازون بمعرفة المصاب عند رؤيته أو شم رائحته كما انهم يعلمون مدة مرضه ، فحين ينظرون اليه بامعان يذكرون منذ كم أصيب . والحكومة تستخدم بعض هؤلاء ، « البيطرة » في عداد أطباء الحيوانات وتجري لهم المرتبات كسائر موظفيها اذ هم يعينونها على حل كثير من المشكلات التي تنشأ بين أبناء البادية القريبة من العاصمة . وهؤلاء - بيطرة الابل - لا يتلقون علمهم بالدرس بل بالنظر الطويل والممارسة يتوارثونه سلفاً عن خلف . ومن استخدمه الحكومة منهم تجرّبه قبل استخدامه حتى تتأكد من براعته ثم تحلفه الايمان بالمحافظة على أن يصدق ولا يتسرع ولا يمالئ ولا يحابي في جميع ما يحكم به . وهم يعرفون مدة مرض المصاب من الابل عقب ذبحه الى اربع ساعات اما بعدها فتعذر عليهم معرفة المدة . والى هؤلاء البيطرة ترجع الحكومة في حل قضايا الابل المهيومة مثلاً : ادعى فلان أمام الحكومة انه اشترى ناقة من فلان منذ شهرين واتضح له أخيراً أنها مصابة بالهيام منذ ثلاثة أشهر فذبحها وهو يطالب بائعها له بقيمتها فترسل الحكومة احد بيطرة الهيام (بفتح اوله) أو اثنين منهم فان صح ما يقوله حكمت على البائع بالتعويض وإن كان مرض الناقة بعد شرائها فلا يؤاخذ البائع . وقد حدث شيء من هذا وأنا في مكة .

(٣٣)

الخيل تحمى الابل

وعندهم أن صاحب الابل لا بد له من الخيل خصوصاً إن كان من سكان السهل لان الابل لا تحمي نفسها من الغارات وإنما يحميها فرسانها . ومن أقوالهم في الخيل « بطونها نار وظهورها عار » أي ان بطونها كالنار تلتهم كل ما يدخلها أو كأنها تحرق الطعام احراقاً ، كناية عما يحتاج اليه صاحبها من وفير النفقات . وأما ظهورها فيرون ان على الفارس حماية فرسه من أن يلحق بها العار اذا فر أو سقط عنها في الخواف . وقد يفسرون كلمة العار في هذا المثل بمعنى الحريم والعرض فيكون المعنى : وظهر الفرس عرض الفارس لان العار في اهماله .

(٣٤)

الجرة

الجرة - بفتح الجيم - من أشهر العابهم في الطراد والرمي . وهي ان يضعوا جرة مملوءة ماء في مكان وتمر الفرسان في طرادها راكضة خيولها حتى يحاذي الجرة من اليمين أو اليسار على بعد مئة متر تقريباً فتلوي نحوها رؤوس الخيل العادية كالبرق الخاطف وتطلق رصاص البندقيات بأشد ما يكون من السرعة والخيل تضطرب من كبح جماحها ، فيصيبون الجرة من ذلك البعد . وإنما اختاروا جرة الماء لان شهود الرمي البعيدين يرون اندلاع الماء من الجرار ويسمعون دوى صوتها حين تصاب فيبتفون للرماة . وبذلك سميت هذه اللعبة من الرمي باسم « الجرة » وأكثر لاعبيها يجيدونها فيندر فيهم من يخطي الهدف .

(٣٥)

من أمثالهم

من أمثال البادية « لا تحاذف راعي معز ولا تصارع راعي بقر ولا تسابق راعي ابل » لان الاول يضطر دائماً الى رمي ماعزه بالخصى وغيره ليجمعها فيقوى

ساعده ، والثاني يكثّر من تحويل البقر وسوقها فتقسو عضلاته ، والثالث يتبع إبله ويرد ما يشرد منها فيشتد على الجري .

ومن أمثالهم « اللي يبغي الشر يصلح شوره » أي : من أراد الخصام فليصلح رأيه .

(٣٦)

الجهات الاربع

يختلف أهل بادية الحجاز عن غيرهم في تسمية جهتين من الجهات الاربع ، هما الشمال والجنوب ، فيسمون الشمال « شاما » والجنوب « يمنّا » لوقوع بلاد الشام في شمال الحجاز ، وبلاد اليمن في جنوبه ولا يختص البدو في هذا الاصطلاح بل يشاركون فيه أهل الحواضر وفيهم العلماء والادباء . وقد اتفق لي بعد الاوبة من الطائف ان تذكرت أمراً فاتني البحث فيه هنا لك وهو ما تعدّه حكومة ذلك البلد اليوم حدوداً صحيحة (رسمية) له ، فسكتبت الى قاضيه الشيخ عبد الله كمال أسأله بيان ذلك فأجابني بكتاب يقول فيه : « باغت سلاكم حضرة أمير الطائف وأطلعته على محرركم ، وهو يبلغكم السلام ، وتذاكرت معه في الكلام على حدود الطائف حسب مرغوبكم فما رأينا أحسن من حدوده المعلومة المذكورة في التواريخ وهي أن يحده شرقاً وادي لية ، وغرباً وادي قرن ، وشاماً اقيم ويمنّا الوهط . . الخ » فاذا هو يسمي الشمال شاماً والجنوب يمنّا كما يسميهما البداءة . وفي أهل الحجاز أيضاً من يسمي المشرق « المبدأ » والمغرب « المغيب » فتكون عندهم الجهات الاربع : المبدأ والمغيب والشام واليمن . يعنون : الشرق والغرب والشمال والجنوب .

(٣٧)

الجيش

يفهم ابن بادية الحجاز من كلمة الجيش غير ما نفهمه نحن . فهو يسمي ركبنا الابل الجيش ، وقد يقول : جاء الجيش . قتلتفت فترى قطاراً من الجمال . وأما القوة العسكرية التي نسميها نحن بالجيش فاسمها في البادية « اقوم » .

(٣٨)

سلمت

كان قدماء العرب يقولون للعائر : أها ! وأهل مصر اليوم يقولون : ياساتر !
وأهل الشام يقولون : الله ! وأما في الحجاز فقد أعجبني قولهم للعائر : سلمت !

(٣٩)

فصول السنة

فصول السنة في بادية الحجاز خمسة ، يزيدون على الاربعة المعروفة فصلا خامساً
هو « القيظ » ويلفظونها بالاضاد (القيض) فيكون العام في عرفهم : الربيع اربعة
أشهر ، والصيف شهران ، والقيظ شهران ، والخريف شهران ، والشتاء شهران .

(٤٠)

المدعى عليه

قرأت للسيد محب الدين الخطيب فصلا في جريدة القبلية بعث به من الطائف
قال فيه :

« ومن أعجب ما علمته أن المدعى عليه قد يكون في أقصى البادية ، على مسيرة
أيام من الطائف ، فاذا طلب المدعي استدعاء خصمه أخذ الامير ^(١) عصا ووسمها
بشارة وأرسلها مع المدعي الى المدعى عليه ، فاذا عرضها الخصم على خصمه لم يستطع
ذاك أن يتأخر عن حضور مجلس الحكم ساعة واحدة .. »

(١) يريد امير الطائف وكان يومئذ الشريف حمود بن زيد

ادب البداة

قضت الامة السائدة في بادية الحجاز على ركن عظيم من اركان الأدب هو الانشاء ، وناب عن الخطابة في سكتها ما رزقته ألسنتهم من حسن البيان ، وأصبح الشعر وحده هو المظهر البارز من مظاهر الادب ، فاذا بحثنا في آدابهم فلما نريد الشعر المألوف نظمهم عندهم اليوم وما يتعلق به من معرفة أوزانه وتفسير كلماته وطرق روايته وأخبار قائله ، ولكل من هذه الابحاث شواهد تأتي عليها في مواضعها ان شاء الله

الماضي والحاضر

ما كانت تتمتع المقابلة بين أدبي العرب في ماضيهم وحاضرهم ، لولا وجوه شبه لا تزال مرتبطة بها حقايق السلسلة بين الاسلاف والاخلاف ، على ما بينهما من شاسع البون وواضح الفرق .

وليس من الخطأ في شيء أن يقول قائل إن عرب الجاهلية وصدر الاسلام وما بعد هذين العصرين اللذين أينعت فيهما ثمار الادب والشعر ، وأنت قرائح أبنائهما بالمعجب والمطرب ، لم يرحوا ابراهم من يرى عرب هذا الجيل ، في الكثير من عاداتهم وطباعهم وأخلاقهم وآدابهم الا ما فقدوه وهو الخسارة الكبرى أعني الاعراب في لغتهم والاحتفاظ بفصيح البيان في منظومهم ومنثورهم ، فهذا ما لا مجال للمقابلة فيه بين العهدين .

أما الشعر من حيث هو شعور في النفس يترجم عنه اللسان ، فانه لم يزل مما تحافظ عليه البادية وتنفرد بالابداع فيه عن الحواضر ، دع ما بين سكان المدن وسكان الخيام ، من الفرق في قدرة الاول على الاختراع ، وقوة الثاني في الرصف والصنعة .

يقف الشاعر البدوي اليوم ، فيسامر الآثار ، ويصف السحاب ، وينعت الجبل ، أو يحن الى حبيب ، أو يبكي لفراق ، أو يرثي كريماً ، أو يمدح عظيماً ، فترى فيه روح ذلك الشاعر البدوي الذي كان يقصد عكاظاً قبل أربعة عشر قرناً ، حاملاً في صدره ما قال من وصف أو حنين أو رثاء أو مديح .

وبالجملة فإن الشاعرية الفطرية ما انفكت تصحب الكثيرين من البداة حتى اليوم ، ولا أرى ما قد يراه سواي من انتقاص هؤلاء ، أو يحسهم أدبهم لشيوخ العامة فيهم أو لاعتمادهم عليها في شعرهم ، فما كان الشاعر الجاهلي لينطق بغير اللغة الشائعة المتداولة في أيامه وما كان - ولن يكون - من الانصاف أن نطالب ابن هذه الصحراء التاحلة بالتعبير عما يجيش في صدره ، بلغة غير لغته التي تلقاها عن أمه وأبيه وعشيرته وأهليه . فالبدوي الجاهلي قبل الاسلام ، والبدوي المعاصر من أبناء هذا العهد ، سواء من حيث الافصح والابانة عن كوامن النفس بلغته المعروفة المألوفة . فما كان ذلك بالمتكاف إعراباً غير إعرابه ، فتكاف هذا ، وما كان ذلك بمتلق عروض الخليل أو نحو سيديويه فنعيب على هذا اجتماعها .

على أن من يكثر من سماع شعر البادية في عصرنا الحاضر ، وينعم النظر فيه . لا يعدم العبور على كثير من مبتكر المعاني والتشابه مما لو أعرب ونسج على منوال ما ألفناه من الاوزان لرأينا فيه حسنات غير يسيرة .

ولئن عد من أعظم خصائص الشعر في الجاهلية تأثيره في النفوس ولعبه بالعقول وتخليده الوقائع ، جرى شعر البادية في عصرنا مع شعر الجاهليين في ميدان واحد ، وصحت المقابلة بينهما من هذه الوجهة لا غير .

ذلك لأن شعر البدوي اليوم يؤثر في عقول البداة كما كان يؤثر شعر الجاهلي في الجاهليين ، وقد يخلد الحوادث العظيمة فيهم كما كان يخلدها شعر ابن تلك العصور الخالية ، ولو أقبل أهل الحواضر من المعاصرين والمتقدمين قليلاً ، على تدوين شعر البداة ، لحفظ لهم تاريخ هؤلاء ، كما حفظ تاريخ أولئك ، ولما ذهب ضياعاً ما لجاورينا في صحرائهم من خبر أو أثر أو معنى مبتكر .

بل لو ولع العربي في هذا الزمن باخبار. بداء العرب في الازمنة المتأخرة بعض ما كان له من الولوع باخبارهم قبيل العصر الاسلامي وبعده بقليل ، لا يضطر الى رواية شعر هؤلاء ، كما يروي شعر أولئك ، ولا يضيف الى الادب العربي أسلوب جديد اختارته هذه البداوة كما اختارت ذلك تلك ، ومعاذ الله أن أقول باحلال هذا منزلة ذاك أو بالرضى عن قبول هذا الادب المشوه بالعجمة واللحن ، يتغافل بين حنايا الادب الصحيح ، أدب العرب الخالد ، فان في ذلك لجناية على لغة القرآن وسهما في كبكد البيان .

وإن المختلط بالبداة اليوم ليعجب مما لبضاعة شعرهم فيهم من الرواج ، وإبراهم في تعلقهم بها واقبالهم عليها يفوقون الحضر في عنايتهم بشعرهم الصحيح وأدبهم القويم .

ينظم الشاعر المبدع من أهل مصر أو سورية أو العراق القصيدة ، وينشرها في إحدى الصحف ، مشكولة كلماتها ، مفسرة ألفاظها ، موضحة معانيها ، ثم ينظر اليها عن بعد يترب ما يكون لها من الاثر في نفوس القوم ، فاذا قارنوها ثلاثون في المئة من قراء الصحيفة ، وفاهموها عشرة في المئة منهم ، ولا يحفظها واحد في الالف .

ويرتجل الشاعر البدوي القصيدة ارتجالا لا يتعمل فيها ولا يتكاف - ولا يرجع الى قاموس - فيتناقلها الحفاظ من بعيد القبائل وقريبيها ، يتناشدونها ويتغنون بها . ولا اغالي اذا قلت انها تعيش في أدمغة هؤلاء قبل أن تكتب ، أكثر مما تعيش تلك في أدمغة أولئك وقد نشرت وكتبت .

وكأنني أرى في ما يسمونه « الادب العصري » اليوم مظهراً من مظاهر الاسفاف الى العامية ، يحدو بأنصاره اليه زهد العامة في أكثر ما تقوله الخاصة ، وايثارها ما تفهم بالبداة على ما يعوزها في تفهمه الرجوع الى المعاجم . ولا لوم على هذه الطبقة من الناس في عملها هذا ولا تثريب ، وانما الامر معضلة يخشى استمرارها من يحرص على بقية الادب النقي ويحاذر أن تهمل بعد حين ، وباهمالها ما لا مناص منه آنئذ من فوضى الاقلام وانقسام هذه اللغة الواحدة الى لغات متعددة ولهجات مختلفة وأقسام ، آية الهرم وبلوغ العتي من الكبر !

شعر البداءة

وبعض أنواعه

لا يختص سكان الخيام في بادية الحجاز بنظم الشعر، بل هناك كثيرون من أبناء الحواضر يقولونه كما يقوله أبناء البوادي، ولهم عناية كبيرة به، وفيهم المبرزون بنظمه، المشار إليهم بالاجادة فيه، ولكن الفرق المعروف عندهم بين البدوي والحضري أن الأول أقوى على الارتجال بل أكثر شعره ينشده غير متكلف فيه ولا متصنع، خلافاً للحضري فإنه يصنعه صنعاً فينمق ألفاظه ويهذب أبياته ولا يقوى على ارتجاله في الغالب.

وقلّ في شعراء البادية من يتفق له أن يتلقى في صغره شيئاً من مبادي علوم العربية. أما من تهيأ له ذلك فيستعين بسليقته الشعرية على نظم شيء من الشعر الصحيح، قد تكون فيه معان جديدة توحى بها إليه بدائوته وصفاء قريحته.

وهم يقسمون الشعر إلى نوعين: الأول الصحيح الأوزان واللغة، ويسمونه «القرىض». والثاني الشعر البدوي المختلف في لغته وأوزانه عن الشعر الصحيح أو القرىض كما سترى، ويسمونه «الحيني» ولم اعلم اشتقاق هذه اللفظة ولا أصلها. ويسمون المساجلة بين الشعراء منهم «قصيدة» كما يسمون القصيدة الطويلة أو القصيرة «نشيداً» ويسمون القصائد على الإطلاق «مجالسات» ويعرف عندهم الغز باسم «الغبوة»

وكما يقول العرب الأقدمون للشاعر المجيد: «لافض فوك» يقول البداءة اليوم لشاعرهم إذا أحسن: «صح لسانك»!

..

فاما «القرىض» عندهم فمن أمثله قول الوقداني من قصيدة رثى بها أمير مكة الشريف عبد الله بن محمد بن عون:

الملاك لله والدنيا مداولة وما لحى على الأيام تخليد
والناس زرع الفنا والموت حاصده وكل زرع اذا ما تم محصود

وما يدوم سرور لا ولا كدر وهكذا الدهر تصدير وتوربد
والناس : ذا فاقد يبكي أحبه وذاك يبكي عليه وهو مفقود
وذاك أبدت له الايام زينتها وذاك أياها هم وتنكيد
للدهر وجه عبوس في قلبه وللمنايا سهام صيدها الصيد
ما يمنع الموت أبراج مشيدة ولا دروع ولا بيض ولا خود
لو يدفع الموت سلطان بقرته لكان حياً ساجان وداود !
وهذه القصيدة طويلة جيدة ، رأيتها مكتوبة بخط واضح جميل ، مماثلة على
أحد الجدران في قبة الخبر ابن عباس بالطائف . وستأتي كلمة عن ناظمها الوجداني .

..

وأما الحميني فكثير جداً ، أو هو اسم عام لكل ما ينظمه ابتداءً نظماً مرسلًا
لا إعراب فيه ولا صناعة .
وأما « القصيد » أو ما نسميه المساجلة ، فقد تقدم نموذج منه في كلمة « الشعر
في المحاكمة » (١)

..

ومن « النشيد الحميني » أو « المجاسيات » قول متيبل الوديود يصف وقعة :
يا الله يا الله تصلح شأننا يا مصلح الشأن وتردنا سالمين وتموت الامر الصهيب
كل معيد وأنا فيهم ، عيدي بم عسفان (٢) وأقول يا الله نجيب القوم نصالح من قريب
عيوا بجونا وجيناهم على صاعق وبيشان (٣) ثم التقينا على فيده بنيران الحريب (٤)

(١) صفحة ١٥٢ من هذا الكتاب

(٢) يقول : كل انسان في عيد ، وأما أنا فقي هم ، لأن عيدي في جهة
عسفان ! وعسفان واد على طريق المدينة بعد وادي فاطمة بمرحلتين
(٣) عيوا : امتنعوا . وصاعق : صائح . وبيشان : هتاف . يقول : امتنعوا
ان يهبطونا فجنناهم صائحين هاتفين .
(٤) فيده : بر في جهة المدينة . وقعت بين الشاعر وخصومه وقعة بقرها .

والمثلح مثل الرعد ، وامست طريح بغير دفان
 ستين منا ومنهم ، ذبحوا غير الصويب ^(١)
 يا ذيب فيده تعشى من بعدما كنت طيان ^(٢)
 وأعوي ونادي الذياب اللي تعاوى في الشعب
 نعمين يا بشر ومعبد ، هموا مدعوج الاعيان !
 عيوا على العار ، والميلان ما راحت كسيب ^(٣)
 . . .

ومن الاحاجي او المعميات والالغاز ، وهم يسمونها « الغبوات » الواحدة
 « غبوة » ما لهم فيه براعة وصنعة . أنشدني أحدهم « الغبوة » الآتية :
 انشدك غبوه ، عن غرسة بالعد مسقيه متنكس راسها والعرق فوقاني
 إن جيت في ظلها في داجي الفيّسه وإن رحت في سدها ما أنت بيردان
 ونثر البيتين : أسألك ماغزاً عن غرسة تسقى بالعدد ، رأسها منكس ، وأصاها
 مرتفع . إن تفيأت بها أظلاك سترها ، وإن ذهبت متابلا لها لم تخش اذى البرد .
 واليك حل هذا اللغز : الماغز به هو اللحية . يقول الشاعر : أنها غرسة تنمو
 بالسقاية من عدد السنين ، وفروع هذه الغرسة مخالفة لفروع الاشجار لان أصلها
 مرتفع وفروعها منخفضة ! فان لجأت الى ظاها فانت في حماها ، وان ذهبت في
 حمايتها لم تخف برداً ولا أذى . .

(١) المثلح : البارود . والصويب : المصاب . يقول : البارود يقصف قصف
 الرعد ، وأمسى ستون منا ومنهم مذبحون طريحين ليس لهم من يدفنهم ، عدا
 الجرحى والمصابين .

(٢) طيان : طاو . يقول : تعشى يا ذيب فيده بعد جوعك .
 (٣) بشر ومعبد : من رفاقه . يقول : انعم بكما يا بشر ويا معبد . ثم يلتفت
 فيشكلم عن أصحابه قائلاً : انهم همراؤات الاعين الدعج ، وامتنعوا على
 العاران يلحق بهم . ولم تذهب الاموال (الميلان) كسبا للعدو .

..

وأنشدني آخر « غبوة » ثانية ، هي :

أنشدك عن غمر ، شبابه سبوعين ومن بعد سبوعين يصبح الغمر شايب
كل فرح به ، غير قضاية الدين ومدورين الفيد فوق النجايب
- الغمر في اللغة الشاب الذي لم يجرب الامور . والفيد في عرفهم الكسب .
ونثر البيتين : أسألك عن فتى لا تتجاوز مدة شبابه الاسبوعين ثم يشيب ، فرح به
كل انسان ما عدا « قضاية الدين » أي الواجب أن يقضوا ديننا عليهم ، وما عدا
الباحثين عن كسب .

يربد بالغمر الهلال ، لان مدة شبابه أسبوعان ثم يكتهل . ولا يخفى ان من
عليه ديناً يحزنه قرب انتهاء الشهر ، ومن أراد الكسب في ظلمات الليل فوق النجائب
يفضحه نور الهلال .

..

وقال شاعر منهم لا آخر :

أنشدك عن بحر طويل ما ينشرع فيه صعب على ذهين الرجال ويشرعه خيل الرجال
فأجابه :
هداك الكذب لا عود الله طاريه راعيه دائماً يمشي على الجرف الهيال
- ذهين الرجال : ذو الذهن والعقل . وهداك : ذاك . وطاريه : خبره .
وراعيه : صاحبه

..

وأنشدني أحدهم « الغبوة » الآتية ، في « يونس بن متى » :

أنشدك عن مخلوق في قبره مسيد في القبر حي ويطلب الغفران
والقبر يمشي حيّ سرع وبالرويد يأكل ويشرب صنعة الرحمن
- يشير الى قصة يونس بن متى عليه السلام ، وابتلاع الحوت له حياً . وقوله
« مسيد » أي ملقى . و« سرع وبالرويد » أي اسراعاً ورويداً .

الرواية

وطرائق النقل

قلّ ان يجد الباحث عن شعر البادية ما ينقله عن كتاب او مجموعة أو أوراق ، ولكنه متى عرف الطريق اهتدى للكثير الغزير من « مجالسياتهم » و « قصداً لهم » و « غبواتهم » وغيرها من انواع الشعر عندهم .

ينتشر شعر البادية اليوم بالواسطة التي كان يذيع بها قبل ظهور الاسلام ، وهي الرواية والحفظ في الصدور لا في السطور .

ورواة الشعر من البدو كثيرون ، ترى في كل قبيلة نفرأ منها ، يسمعون فيحفظون ويستنشدون فيروون .

ولا يختص هؤلاء الحفظة ، وان شئت فسمهم الرواة ، بحفظ أحد نوعي الشعر — التمرّض والحمينى — بل حيث رأيت كثير الحفظ روى لك من كليهما ما يعلم .

سمعت أدباء الطائف يلهجون بيتين ، يكثران من تشطيرهما ، لا اذكر اسم ناظمها ، وهما :

أحمامة الوادي بشرقيّ الغضى إن كنت مسعفة الكئيب فرجعي
إنا تقاسمنا الغضى ففصونه في راحتك وجره في أضلعي

واتفق ان خرجت صبيحة يوم الى المشاة يرافقتي أحد فضلاء الطائفين ، فررنا برجل من أهل الطائف أهرمته السنون ، ما إخاله يقل عن الخامسة والثمانين أو التسعين ، وقد حمل طبقاً صغيراً على رأسه وفي يده عكاز يتوكأ عليه . فسلم عليه رفيقي واستوقفه ، فأجاب ووقف ، فكلّمه فاذا هو تمام عقل الكبر لسانه ، وسأله هل يروي البيتين (أحمامة الوادي) فقال : نعم . وانشدنا تشطيراً لها قل هو اللوقداني ، ثم أسمعنا تذيلاً عليهما اللوقداني ايضاً في قصيدة طويلة لم نستطع فهمها من لسانه فكتبها وبعث بها اليّنا .

وسألت هذا الشيخ الهرم عن بعض شعراء البادية فحدثني بما يعلم عنهم فقيدته قبل مفارقتها وسألت رفيقي عن اسم الشيخ فقال : عبد الله ابو دايع

..

ومن أعانني على بعض ما رويت وما نقلت ، من شعر البادية ، مدير شرطة الطائف الشيخ درويش بن محمد بن عبد الواحد الحدائي من قبيلة قحطان. والحدائي نسبة للحداد وهو مكان في اليمن شرق صنعاء . وقد حرفت نسبته فيقال الحدايدي . وهو من حفاظ شعر البادية للكثيرين ، وله منه بضع «مجالسيات» اليك نموذجاً منها : خرجت رصاصة من بندقية أحد الاشراف قضاء ، فأصابته عنق الشيخ درويش ، فاهتم به من حوله من ذوي ناصر ، فعولج حتى شفي ، فقال من قصيدة طويلة :

ما سجع قمري على غصن البشام أو نرّم طابراً فوق الغصون
أو ترزّم صوت رعد في الغمام ثم أسبل من سنى برقه مزون
عد هذا مني أقريكم سلام يا ذوي ناصر مجودة الطعون
اليا ^(١) ركبتوا الخيل ايام الزحام كم عدو يشتكي منكم غبون
انتم أهل الفعل في شبك العسام ^(٢) يشهد الله والخلائق يشهدون
ومنها :

ان بدعت القاف ^(٣) اوقلت الكلام ما استعترته من رجال يدعون

..

ومن المعروفين بروايته رجل يدعى عيضة الذويبي وهو من قبيلة الذويبات ، من بني سعد ، توفي مؤخراً . كان واسع الرواية يحفظ كثيراً من شعر الشريف زيد بن فواز ، وقد مات ما يحفظه بموته الا ما نقل عنه والمشهورون بالرواية والحفظ كثيرون في مكة والطائف اما القبائل فالرواة فيها لا يحصون كثرة ، ولا فائدة من تتبع اسمائهم .

(١) اليا : اذا (٢) العسام : الغبار ودخان البارود (٣) القاف : القافية

الحميني

لغته وامثلة منها

من القواعد المعروفة في أدب كل أمة ينطق شعراؤها بلسان خاصتها وعامتها ، كما كانت حال الأدب في صدر الاسلام وقبلة ، ان لغة الشعر فيها تمتاز قليلاً أو كثيراً عن اللغة الشائعة ، بحيث يحد القاري ، والسامع الفاظاً مصقولة وتراكيب مقبولة واستعارات وكنيات وتشابيه وإماتات لا يعثر عليها في غير لغة الادب والشعر . ولما كان قائلو الحميني من أولئك الشعراء الذين يخاطبون اقوامهم بلغاتهم لم يكن من الغريب أن يدخل شعرهم دخيل جديد أو استعمال لم يسبقهم اليه غيرهم من أبناء باديتهم .

فهم اذا حملة مقاليد اللغة فيهم ، يتصرفون في أساليبها وجوعها ومحدثها وموضوعها كما تشاء لهم قرائحهم وكما تدعو اليه أوزانهم الشعرية .

ترى أحدهم يريد أن يقول « اذا » فيقول « لا » أو « اليا » ومثالها « لا جاك فلان » أي اذا جاءك فلان . « واليا نصيت الربع » أي اذا قصدت الربع و«نصاه» عندهم بمعنى قصده ويشتهقون من هذه اللفظة فعلاً مضارعاً « نصى » ويقولون « منصاك دار فلان » أي قصدك ووجهتك . ويقولون « يافعت كذا » أي اذا فعات كذا . ويكسرون ياء المضارعة في كل مضارع . ويقولون « اللي » بمعنى الذي و« برضه » بمعنى أيضاً أخذوها من عامة مصر . ويكثرون من وصل همزات القطع في الافعال وغيرها . والسكون في أواخر الكلمات يكاد يكون عاماً . ويسمون الجواب « رداداً » . وفي لغتهم كثير مما لا تنطق به العامة في مصر والشام وغيرها شأن كل لغة عامية في أقطار العرب خاصة . وهم يجمعون « مارتينه » - البندقية - على موارث وموارث . والموزر على ميازر الى غير ذلك مما يحتاج الى معجم كبير !

اوزان الحميني

قد يسبق الى ذهن من يسمع القليل من الحميني أن شعراء البادية لا أوزان للشعر عندهم ، وهو ليس بصواب . فهناك بحور (لا تقاعيل) ومقاطع (لا أسباب وأوتاد) غير أنهم أشبه بشعراء اجاهلية قبل أن يعرف البسيط والطويل والوافر ، والمتصور والمجزوء ، والمنشطور !

وكما كان الشاعر الجاهلي يقول الشطر الاول أو البيت الاول من القصيدة وهو لم يسمع بتفاعيل الخليل فيجري الى آخر القصيدة على نظام واحد ونسق واحد ، كذلك تجمد الشاعر البدوي ببتدي ، بلالانه (أي يقول قبل الشروع بالقصيدة : يالا لا لا لا لا الى ، لي لا لا لا لا لا - أو ما يوافق النغم الذي يريد أن ينظم القصيدة فيه) ثم يرتجل القصيدة لا يختلف البيت عن الآخر وزناً وقافية وانما دليله النغم والمالات لا غير .

وقد يقول أحدهم الشعر (الحميني) دون أن يبدأ بالمالات أو يضع نغماً ، متكللاً على سليفته الشعرية فيأتي بالموزون الذي لا عيب فيه عندهم .

وشعراء البادية أقرب الى الطريقة الافرنجية في أوزان شعرهم فانهم يعتمدون على المقاطع وهي كالأسباب في عروض العرب ، يدل على هذا أنهم لا تتكاد تمر بهم كلمة ذات ثلاثة متحركات الا سكنوا أحدها فليس في شعرهم (متفاعلين) ولا (مفاعلين) وهذه الطريقة - اي طريقة المقاطع - هي العامة في شعراً أكثر اللغات بل جميع لغات اوروبا كالانكليزية والفرنسوية والالمانية وغيرها . ولقد حاول منذ سنين أحد متأدي العرب ان يعتمد في تقنين علم العروض على المقاطع فيهمل التفاعيل فلم ينجح لما في الشعر العربي من الكلمات الكثيرة المحركات ولان المد في غير موضعه خطأ معيب في اللغة العربية

وخلاصة القول في أوزان الحميني ان قائله يشبهون شعراء العرب قبل وضع العروض باخراج القصيدة متساوية مع المطلع . وإن وزنوا الشعر فبوزانهم المقاطع (لا لا لا) وتسكين المتحرك ومد أحد المتحركين كثير في شعرهم .

وقد يسمون بعض انواع الشعر باسماء اصطلاحوا عليها كنسبيتهم (المرور)
لما يلزم فيه ناظمه التسميط - وقد تقدم من نوعه بيتان من الحيني في الكلام على
جبلي شقوق وعكابه -

وأوزانهم كأوزان شعر العامة في مصر والشام اي كالزجل والمعنى والقرديات
فكلاهما معتمد على المقاطع

الحض والبدو

والتمييز بين شعريهما

معما حاول الحضري المجاور للبادية ان ينسج على منوال البدوي في شعره
« الحيني » لم يستطع ان يخفي ما هناك من الفرق الذي يدركه منهم النظر في نظميهما
فان في حيني الحضري صنعة ظاهرة لا تبدو في حيني البدوي ، كما ان الشاعر
البدوي أجراً على اتصرف بلغته من الشاعر الحضري الذي يتكلفها تكلفاً ، ويقلدها
أهلها تقليداً ، وان اختلط بهم كثيراً وعاشهم طويلاً .

وقد استطاع التمييز بين النظمين بملاحظة يسيرة ، هي أن شعر ابن الحواضر
يبدو قريباً من لغة الحواضر ، فلا يعسر على الاديب المجازي مثلاً أن يفهم جل
ما يقوله الشاعر المجازي من النوع الحيني ، أما شعر ابن البوادي ففيه وعورة على
الحضري لا يكاد يفهمه الا بعد السؤال وإطالة الامعان .

وقد يكون مما يتعمده الاول ترقيق ما ينظمه ، فيجبي ، حاهلاً برهانه على انه
من غير النفس البدوي ، لان ما يتناوله هذا من الالفاظ المولدة في البادية وبين
الشعاب وعلى ضفاف العيون والآبار ، لا يطوله ذلك البعيد عن الغلاة المستعيض عن
الخيال بالقصور وعن الاحتفاف والتلاع بالشوارع والاسواق . وهذا النوع من الشعر
لا توصف فيه على الاكثر حداثق المدن وجنائها ولا آثانها ورياشها ، وانما تذكر في
أبياته المضارب والمفاوز والنجود والايفاع والتهاثم والبطاح .

وبما تسمع الحداة يتغنون بوصف الناقة ورحلها والفرس وسبقها ، اذا بك
تسمعونهم يتغنون بذكر حبال اللؤلؤ وعقود الماس ، فتدرك لاول وهلة ان الاول

لشاعر بدوي قح ، والثاني لشاعر حضري مقلد ، وتمر بك قصة ابن الرومي الشاعر المشهور وقد قيل له : ما لك لا تجيد اجادة ابن المعتز في وصف القصور وزينتها ؟ فقال : ذلك يرى منزله فيحسن وصفه !

خذ مثلاً قول زيد بن هوشل من « نشيد » له :

الظفر لا بدّ من صغره يبين ^(١)	ظفر ، ويكرم سبال الغنائين
كل قالات الرجال الها فطين ^(٢)	قبل يبلغ بالعدد عشرين عام
يا عرب فكرت في خبث وطيب	واشهد ان الفقر للظفران ذيب ^(٣)
قد عرفت الخطيه واللي تصيب	يا عرب من لا مني جعله يلام
الفقر مثل القوي من السهوم ^(٤)	كلما راعيه ناض ازرى يقوم ^(٥)
والغناوى صنعة الحمرا العزوم	ما يريها رسنها واللاجام ^(٦)
ذا ، وياراكب على ناب المتون	منوة اللي دائماً يقضي الدينون ^(٧)
طول صيفه مكتلي نبت الفنون	ما يعيشي غير في روس العدام ^(٨)
أشقر زايد على جمع الحرار	لو تشوفه ما على وصفه خيار ^(٩)
ينلقى وسمه على الخلد اليسار	مثل رسم النيل في راعي الذمام ^(١٠)
والرقبيه مثل منحوف الجريد	ما تقول الا ضياحي فريد ^(١١)
والعظام مرا كبات من حديد	كن مبروم الحديد اله عظام ^(١٢)

(١) الظفر بفتح فكسر - الشاب . (٢) قالات : أقوال . (٣) الظفران :

الشبان . (٤) السهوم : السهام . (٥) راعيه : صاحبه . ناض : نهض . ازرى :

عجز . (٦) الغناوى : جمع للغنى عندهم . صنعة : مثل وشبه . العزوم : القوية .

يريعها : يردها . يعني : ان الغنى كالفرس الحمراء القوية لا يردها رسنها ولا لجامها .

(٧) المنوة : الامنية - واحدة الاماني . (٨) المكتلي : آكل الكلاً ، ويريد

هنا السمين . ما يعيشي الخ : اى لا يتعشى في غير التلال الرملية المنبثة . (٩) اشقر

الخ : يصف جملاً أصيلاً . (١٠) النيل : النيلة . راعي الذمام : يريد ربة الخدر

الموشومة . (١١) الرقبة : تصغير الرقبة . الضياحي : الغزال . (١٢) اى كأن

مبروم الحديد عظام له

والبطين ضومير كمنه هلال وسعدانته الذي مثل الريال (١)
والخفاف صغيره فيها احتمال وارد السنسون. ركوز السنام (٢)
وخذ قول الشريف عبد الله بن محمد بن هزاع من « نشيد » أيضا .
آه من قلب تعنى وانقسم أتعب الاعيان وأغداني سقيم (٣)
في هوى من فاق حسنه واستتم فاق جمع الخود لم جاله حقيم (٤)
إن عفا وأصلح وفي عبده رحم هو هوى زوحي وبلا غيره نديم
وإن حصل لي قتل من بعد الالم هو غريمي ليس لي غيره غريم
فاذا قابلت بين القوانين اتضح لك جليا أن الاول شعر بدوى والثاني شعر
حضري .

..

ومن أمثلة البدوي قول الشريف حامد بن عبد الله من « نشيد » طويل
يوصي به أبنا له اسمه « سعد » :

يقول حامد يوم هجرس بالغنا حديث أحلى من حايب القود (٥)
تهيضت وأبدع من خيار المثايل اغني بها يوم العباد رقود (٦)
عسى الله يحلي لي «سعد» يحتضي بي لا استوي في قبري الملهود (٧)
أنا أوصيك مني يا سعد واستمع لي افطن ولا تنسى وصاة العود
أوصيك في اسناع الشكالة تفيدها ترى الشكالة جملها ممدود (٨)
وأوصيك في ضيفك اليا جاك حشمة نجمل ورحب به على الماجود (٩)
تراك اذا رحبت به ما يذمك واليا قفيمته ياحقك منقود (١٠)

- (١) سعدانة البعر : ما دون صدره ، يرتكز عليها عند القعود . (٢) انوار : الطويل . والسنسون : الظهر . يريد : طويل الظهر مستقيم السنام
(٣) الاعيان العيون . (٤) لم جاله : لم يحبي له . حقيم : شبيه ونظير
(٥) هجرس بالغنا : رفع صوته بالغناء . «٦» تهيضت : تفكرت . المثايل :
كانها جمع امثلة . «٧» يحتضي : يحظى . لا استوي : الى أن استوي «٨» الشكالة
الشجاعة . «٩» اليا : اذا . الماجود : الموجود . «١٠» قفيمته : اعرضت عنه .

وصيك جارك ورّه القدر والعلی	ترى الجار لا بدك عنه منشود ^(١)
خنيك لطيف له وزد في وجوبه	يشهد لك الله والعباد شهود ^(٢)
واحذر علي جارتك من همزة الردي	ترى الردي ما فيد منه رشود ^(٣)
أوصيك في عز الرفاقه وحبهم	ارفق لهم واحذر تبجي حسود
ترى الرفاقه درع جنبك وسيفك	وهم حشمتك لاجاعليك صهود ^(٤)
هم ضلعك اللي لا زبنته يزينك	وان جا العدو يرق معاه سنود ^(٥)
خليك لربك سهل واسهل من العسل	تراهم عضودك يوم ماش عضود ^(٦)
ووصيك حط الصمت والصدق شرعتك	وادرن ترى الثنتين منها القود ^(٧)
ووصيك في عانيك لا ترتخي له	خليك كما حد الشبا المحدود
واليا تبين لك خصيم فاخصمه	اكسر مقامه مثل كسر العود
لا تنكر الصايب ولا تقبل الخطا	وتصير حيد اليانصاك حيود ^(٨)
واترك مولفة الهروج الضايعة	لو كان زالوا في نظرك صهود ^(٩)
ضراية المجلس كثير هدرهم	ما ينعرف لعلوهم ردود
وابعد عن اهل الشذب واهل النمة	تراها تورّد لاهب الوقود ^(١٠)
واحذر عدوك لو تشوفه ضحكك لك	لا تاتاه منه لو عاهدك بعهود
ولا تستمع في شار من لا يعزك	خليك وثيق السد فرد فرود ^(١١)

- «١» وره : اره . لا بدك الخ : لا بد لك من ان تكون مسؤولا عنه .
«٢» الوجوب : جمع واجب . «٣» قاد : كسب . رشود : جمع رشد . «٤» لاجا :
اذا جاء . صهود : اضطهادات . «٥» زبنته : صنته . سنود : جمع سنب . «٦» عضود
جمع عنيد . يوم ماش عضود : يوم لا يوجد من يعضدك . «٧» وارن : واذا بك . القود
الفائضة . «٨» الحيد : الجمل . «٩» الهروج : الاقوال ، يقولون : فلان يهرج اى
يتكلم . زالوا : ظهوروا . صهود : كبار عظام . يعني : واترك من يالفون سدى
القول ولو ظهروا امامك كباراً . «١٠» الشذب : الكذب . النمة : النميمه .
«١١» شار : مشورة

أدرنت توأصيف الرجال عديمه واهل الشكالة علمهم ماكود^(١)
 فيهم صبي^(٢) يحرز العلم كله كما حد سيف باتع قصود^(٣)
 فقال نقاض العلوم المسيره طهطام لطام العدى صندوق^(٤)
 وفيهم غني مايشح بماله يكرم ولو كان الزمان طرود
 وفيهم غني^(٥) مايضيف ضيفه ها ذاك يا كل رأسه العبرود^(٦)
 وفيهم صبي^(٧) لا لفوه ضيوفه يفرح وينشط مايبيه الكود^(٨)
 الى ان يقول :

درت الفكايير في توأصيف النساء الياهن بالخلايا والطبوع جنود^(٩)
 فيهن من تسوى من الخيل أصيله وفيهن من لا تسوى مقصى جلود!
 وهذه القصيدة نحو مئة بيت أملاها علي^(١٠) ناظمها .

..

ومن أمثلة الحضري قول الشريف زيد بن فواز بن ناصر، وكان حاكم الطائف، من قصيدة يرثي بها اخاه الشريف راجحاً :

ثارت احزاني بعد كل رقد واشتمل في داخل الجوف اتهاب
 وانسكب دمي على خدي جدد انسكاب الوبل من غراسحاب^(١١)
 آه واوجدي ومن مثلي وجد بعد ماواريت راجح في التراب
 جل^(١٢) مفقودي ومن مثلي فقد يا ابن ابوي امسيت بعدك في عذاب
 يامتين الدين ياناقي الجسد ياخي يا عبد هيشال الركاب^(١٣)
 ياعزيز الجار وان قلّ الجهد يا صدوق اللفظ يا حلو الخطاب

(١) أدرنت : إدراأت . الشكالة : الشجاعه . ماكود : مؤكد (٢) صبي : يريد

فتى . (٣) صندوق : صندوق . (٤) العرود من اسماء البندقية عند بعضهم (٥) لافقوة : اذا دخلوا عليه . الكود : الكسل . (٦) الياهن : فاذا هن . الطبوع : الطباع .

يقول : اجلت الفكر في اوصاف النساء فاذا هن في صفاتهن وطباعهن انواع وجنود مجندة (٧) جدد : متتابع . (٨) الناقى : النقي . هيشال الركاب : تابع

الضيوف من الركبان يريد : يا عيد الضيوف .

ياشتيقي بعد حليت اللحد إختفى زولك وطاوات المآب^(١)
حالفاً مانسالك لو طال الابد لوتغيب الشمس ويشيب الغراب
والأمثلة على النوعين ، من شعر البداة وأهل الحواضر ، كثيرة تضيق عن
استيعابها المجلدات .

الردح

الردح — وتسميه هذيل الرجز — وكلاهما بفتح أوله وثانية ، — هو في
عرفهم : أن يسير جمع من الناس ، اويصطفوا وقوفاً يتوسطهم شاعرهم ، فيبدأ
باللالات (السابق ذكرها في بحث الاوزان) ثم يرتجل البيت من الحميني ،
فيعيدونه جميعهم هازجين ، ويستمر يرتجل مايجود به قريحته حتى ينتهي من
نشيده (قصيدته) فان شاء ابتداء نشيداً ثانياً فافتتح باللالات الموافقة لوزنة المنوي
وإلا تقدم شاعر آخر ، وهلم جرأ . وقبل ان يبدأ الشاعر « ييشنون » كلهم والبيشنة
في لغتهم الهتاف ، وهي مثل « الشوباش » في لغة عوام الشام ، يرفعون بها
اصواتهم وسلاحهم ترحيباً بالشاعر بعد أن يرفع يده مشيراً الى انه سيبدأ .
وقد شهدنا كثيراً من هذه المشاهد في الحجاز ، غير أن بطء فهمنا عن
ادراك معنى مايقوله الشعراء كان كثيراً ما يمنعنا عن كتابة الفاظ الشاعر وهو يرتجل
على أن « الردح » لا يشترط فيه الارتجال على الشاعر عندهم ، بل يباح له أن يتلو
ماحفظه من نظمه أو نظم غيره اذا كان يتفق مع الموضوع الذي دعاهم للانشاد
بخلاف « القصيد » في عرفهم وهو المساجلة كما قدّمنا فان الشعارين يضطران
فيه الى الارتجال .

اختلاف الاساليب

لكل بادية من بوادي الحجاز واليمن والعراق والشام اسلوب خاص في
شعرها ، وقد يبين هذا الفرق في اوزانها او في لغتها او في بيانها .
فاما الارزان فتابعة للانعام أو الموسيقى الطبيعية ، ولكل من بوادي هذه

الاقطار ألحان خاصة وهوى في الانشاد لا يتفق مع هوى غيره ، فنشأ عن ذلك اختلاف الاوزان في أشعارهم .

واما اللغة فالبادية لا تقتصر على اختلاف كل قطر عن الآخر في لغته ولهجته بل كثيراً ما نجد في بادية القطر الواحد فروقا واضحة بين القبيلتين المتجاورتين سكناً او المختلطتين لبناً . ولا يكون اختلاف ابناء البادية الواحدة في أكثر من كلمات يسيرة ، ويتسع الاختلاف باتساع مسافة البعد بين الاقطار . فكلما كانوا متقاربين ازدادوا تساهلاً في اللهجتين فتناسى كل اناس كلمات او نبرات لا تحي في كلام غيرهم . ولا ينفرد سكان البوادي في اختلاف لهجات بعضهم عن بعض بل ذلك شأن كل لغة لازوابط لها ولا قواعد ، من لغات العامة في كل أمة وكل مكان ، خذ مثلاً لهجة عامة الحضر ففي كلام المصري العامي مالا يفهمه الشامي وفي كلام الشامي العامي مالا يفهمه المصري وكذا يصح القول عن العراقي والحجازي واليماني وغيرهم من عوام الحواضر العربية .

واما البيان فبني المعاني وصور التعبير ، حيث ترى التباين لائحاً وان لم يختلف هيئة البوادي بعضها عن بعض . ويكون ذلك على الغالب في خصائص غني بها بدوي قطر وأهلها بدوي قطر آخر ، فجرت في سلبقتهم الشعرية ممان يتعاورون بها ويتوارثونها خلفاً عن سلف .

مثال هذا التباين ان بداء اليمن اعتادوا أن يعتنوا بتجانس الالفاظ ، فكثير الجناس البديعي في اشعارهم ، فاختلفت صورة التعبير فيهم عن صورته في غيرهم . وعني بداء الحجاز في معانيهم فجنحوا الى الاكثار من الكنايات وعابوا الشاعر منهم اذا هجا فصرح ، حتى ان احدهم اذا اراد التشويق الى نشوب الحرب ربما قال : « متى تنزل يا مطر ؟ » وفي الكناية بالمعاني والتورية بالالفاظ دقة تدل على صفاء الفهم ونقاوة الالفاظ . وهذا النوع كثير في شعر بادية الحجاز قد لا ينسب اليه غير احدهم او من الف حل معمياتهم من المختلطين بهم .

تداول الحميني

في كثير من سكان البادية تهيو طبيعي لحفظ ما يستحسنون مما يسمعون ، وهو شأن الامية في كل امة . وخامل القلم قل ان يجاري الامي في حفظه لما يسمع ، وسبب ذلك اعتماد الاول على مايكتب واعتماد الثاني على مايحي فضعفت ذاكرة الأول وقويت ذاكرة الثاني .

اما الشعر فهم مضطرون الى حفظه على الخصوص ، لامور : منها أن فيه ما يذكروهم بوقائعهم . وانه موضوع سمرهم في كثير من مجالسهم وأوقات فراغهم . وانه غناؤهم الذي به يترنمون ، وحدائهم الذي نحن اليه ابلهم وتشدد في جريها . وأنه لا ينشر في كتاب او صحيفة . فان لم يقيد في ادمغتهم ضاع ونسي ولم يعمر طويلا ومن اعظم الاسباب الداعية الى تداول البداة اشعارهم ، وحفظهم لها ، ان جل امراء القبائل وشيوخها يحفظون الشعر البدوي ويروونه ، وكثيراً منهم يقولونه ويحيدونه .

وكثيراً ما رأينا احد الامراء أو الاشراف أو الكبراء تنشد بين يديه القطعة من الحميني او تجول في خاطره فلا يذكر بقيتها ، فيقول : هذا النشيد يحفظه فلان او فلان ، فيستدعيها اليه او يكتبها باحدهما فيستنشده ، ولا يخفى ما يكون لهذه العناية من التأثير في نفوس القوم اذ يعلمون ان ما يحفظونه قد يدعو الى ارسال الأمير أو الكبير رسالاً اليهم يدعونهم الى حضرة من لا يروقهم شيء ، كالتقرب منه والتعجب اليه .

والغناء أيضاً سبب عظيم من اسباب انتشار الشعر وتداوله . فلقد أثر في الشعر الصحيح وأضعف العناية به في الخواضر ، عدول المنشدين والمغنين عن رقيقه ونقيه الى ما يلقونه من هراء العامة ومستنكر عجمتها ، وأما البادية فهي على أميتها وعاميتها محافظة ابدأ على التغني والحداء بما تسميه شعراً ، بل بما هو الشعر في عرفها واتفاقها .

شعراء البادية

في فلولات الحجاز الآن وحواضرها عدد كبير من قائلتي شعر البادية ، ليس من شأني ، في هذا البحث ، احصاؤه واستيعابه . وانما اذكر جماعة ممن علت شهرتهم وعرفت شيئاً من آثارهم أو قليلاً من أخبارهم ، أو اجتمع بهم . وبمجال الاستقصاء ، رحب امام من يتصدى له أو يرى وضع كتاب منفرد لهذا الموضوع يعرضه بضاعة جديدة في سوق الادب أو فكاهة مستطرفة للادباء والمتأدين .

من أشهر قائلتي الحميني الآن في بادية الحجاز « جمهور العدواني » وهو في سن تناهز الحسين ، من قبيلة عدوان في شرقي الطائف ، منازلها في العقرب والفريدة - — وهما قريتان تبعدان عن الطائف مسيرة ست ساعات — وجمهور هذا هو الشاعر من سكان الفريدة .

(٢) ومن مشاهيرهم الشريف حامد بن عبد الله بن راجح العبدلي من أمراء تربه (١) وهو بدوي قح في لغته ونشأته وله حميني كثير . وقد كف بصر هذا الشاعر منذ اثني عشر عاماً وهو الآن في نحو الخامسة والحسين من عمره

اجتمع به واستندته فأنشدني كثيراً من شعره وشعر غيره ، ولا سيما نمر بن عدوان ، وما كنت استطيع فهم كلامه لما فيه من غريب كالم البداءة لولا أن أسعفني أحد أشرف مكة بأن كان يترجم لكل منا ما يقوله الآخر !

ولهذا الشاعر قوة عجيبة على الارتجال ، يقول المثة من الايات وقد يزيد عليها ، ولا يتلأ ولا يتعالم ، وانما يستعين بفاصلة صغيرة بين البيتين . وقد سبق

(١) بثلاث فتحات متوالية كما هو الشائع اليوم وهي قرية كبيرة تبعد عن الطائف الى شرقه مسيرة ثلاثة ايام وفيها نخيل وآبار كثيرة وواد متسع . وفي معجم البلدان أنها بضم ففتحتين ، قال : وبها ولد ملاعب الاسنة .

لي ايراد شي، من شعره . وله من قصيدة تناهز ١٢٠ بيتاً أنشدها بين يدي الملك حسين على أثر النهضة :

ابو علي الى كال كيله بالوفا واهل الخيانة ناقص مكيالها
إليانوى يعطي العطايا الوافيه يعطي الفلوس جنيها وريالها
بحراً عميقاً يوم يصفق موجه يعبي نخاتينخ السهل واجزالها^(١)

..

ومن المشاهير ايضا الشريف هزاع بن عبد الله من ذوي حسين. مكث من قول الحميني ، يسكن وادي فاطمة بجوار مكة .

..

ومنهم مقبيل الوديود الحمدي^(٢) الثقفي . كان فتيرا معدماً واتى الطائف فتم لمبادي، القراءة والكتابة . واقام فيه يقرى الاطفال (ويسمونهم البذور والورعان) ويكتب الرسائل للبدو بالاجرة . مات حوالي سنة ١٣٢٥ هـ . وقد تقدم شيء من نظمه .

..

ومنهم الشريف زيد بن فواز . قال أحد عارفه : كان بارعاً في القصيد (المساجلة) لا يقف أحد أمامه . وعرف بعده ابتداء الشريفان حمود وشاكر ابنا زيد بن فواز بنظم الحميني . وقد اجتمعت بشاكر ثاني يوم وصولي الى مكة قبل سفره مع الامير عبد الله الى الديار الشامية .

وكان الشريف زيد بن فواز، حاكم الطائف، وأشهر شعره الحميني، مراثيه في أخيه الشريف راجح وقد سبق لنا ذكر أبيات منها . ومن أقواله في رثائه :

ياقبر سيدي سقاك الغيث من عز الفؤاد

خليقتي في غنا والقلب في نار شبيهه

(١) التخاتينخ والاجزال: يريد الاخاديد والهضاب

(٢) نسبة الى قبيلة الحمدة من بقايا ثقيف في مدينة الطائف

لاني بسمع نداك، ولا يجيبك لو تنادي^(١)

بيني وبينك هيال القوز وصغار صليبه^(٢)

واتصل هذا البيتان بالوديود الشاعر فقال يجيبه بلسان المرثي :

أنا نزيل فسوح الى رؤوف بالعباد

في جنة الخلد والفردوس وثماراً عجيبه

كتب لي الله في دار البقا شرباً وزادي

عند النعيم المقيم ، وكل مسلم له نصيبه

إن غاب شخصي فان النصر مثل الشمس بادي

والعز ماجود فايق للعرب مسكه وطيبه^(٣)

عندك رجال ، لهم طول البقا، شجع الايادي

وأنت كما الحيت مالك عن ظلالهم مغيبه^(٤)

يازيد خليك صبور ، وكلّ زرع للحصاد

واليا وفي العمر سهم الموت ما يخطي الضريبه^(٥)

انا اعرف انك محب وسال دمعك في ودادي

والعمر محتوم وأمر الله ماضي في الغصبيه

ولا تجزع هداك الله ربي خير هادي

يبشر الصابرين بصبرهم عند المصيبه

..

ومن أكثر شعرائهم أخباراً ، وأوفرهم أشعاراً ، ناظم الفنين القريض والحميز
المجيد فيهما معاً ، الشيخ بديوي الوقداني ، من قبيلة وقدان . كان في بدء أمر
مشهوراً بنظم الحيني ثم قصد مكة فقرأ قليلاً من النحو والادب وعاد الى بادية الطائف
فنظم القريض وفاق فيه أقرانه وتوفي سنة ١٢٩٦ هـ

(١) لاني : لست (٢) الهيال التراب المهيل على القبر . والقوز : المقبرة .

والصغار . صخور (٣) ماجود : موجود

(٤) الحيت : ضلع الجبل ، يقول له . وانت كضلع الجبل لا تعيب عن إظلالهم .

(٥) واليا . واذا

وقد سبق ذكره في الكلام على القريض . وأما الحميني فمن قوله فيه يشكو
الحباس الغيث :

ضاق بنا الارض واشتبت شبائبا والغيث محبوبس يامعبود ياوالي !
يا الله من مزنة هبت هبايبها رعادها بات له في البحرزلزال^(١)
ريج العوالي من المنشا نجاذبا جذب الدلي من جيامطوية الجال^(٢)
تسقي دياراً شديد الوقت حارها ما عاد فيها لبعض الناس منزل
ديمومة سبلت وارخت ذوايبها وانهل منها غزير الوبل همال
المال يحبي رجالا لا حياة بها والوبل يحبي مكان المنبت البالي !
وله من قصيدة

دنياك هذي كلها هز قاووق ما تعرف الصاحب من اللي معاديك
واكثر كلام الناس بالمكروالبوق^(٣) بهرج معك واليا تقفيت برميك^(٤)
والمال دايماً صاحبه مرتفع فوق ! والقل خايب لو ترفعت برخيك^(٥)
وهو القائل :

انفكت السبحة وضاع الخرز ضاع بغيت ألمه ياسليمان وزريت
صار الذهب قصدير والورد نعان أنكرت ربحه مختلف يوم شميت
الباب طايح والمسامير خالاع والحب فيه السوس والغار في البيت
أمسيت أكيل الراي بالمد والصاع قست الامور وعفتها لما اتوريت
لا فاقد الحيلة ولا قاصر الباع ويا الله يا مولاي فيك استعزيت
الذيب رزقه في مبادية الارواء وانا برزقي في زماني تعنيت
وأنا مربى من زماني ومطواع ربطني الايام حتى تربيت !

..

(١) يا الله من مزنة : هل من مزنة ؟ . رعادها : رعدها

(٢) ريج العوالي : التي تهب من اعالي الاماكن . المنشا : يريد السحاب
الناشي . من جهة البحر . الدلي : الدلاء . الجبا : قم البئر . جال البئر : بطنها

(٣) البوق : الخيانة . (٤) بهرج : يتكلم . اليا : اذا (٥) القل : الفقر

ومن شعرائهم زيد بن هوشل العصمي . من قبيلة العصمة . مات سنة ١٣٢٠هـ شاباً لم يتجاوز الخامسة والعشرين . وهو غير ذى شهرة في شعراء البادية . ولكن فيهم من يراه على ابواب النبوغ . وقد تقدم شيء من شعره .
ومن عرف بنظم الحميني في أيام جباه الشريف عبدالله بن محمد بن هزاع ، احد اعضاء مجلس الشيوخ بمكة اليوم . وقد سبق ايراد شيء من نظمه .

..

ومنهم عابد بن فهيد الزيايدي من قبيلة ناصرة . وعيضة بن مستور الزيدي من ناصرة ايضاً . وبنية المولد من موالي بني سعد . وعطيه وجاد الله من بني سعد . وعبد الله بن سفرة الطويرقي .

ومن المشهورين فيهم « العبد » واسمه سليم ، راعي الافلاج ، وهي علي مقربة من الحساء ، كان يلبيها وكالة الزكاة للحكومة . ويكثر ابناء تهامة والحجاز من حفظ مجالسيات « الهزاني » وهو شاعر مشهور من قبيلة هزان في اطراف نجد .

..

شعر الملك

ويحسن لي أن اختتم هذا البحث ، بأشبات قصيدتين من الحميني ، لجلالة الملك حسين . احدهما قالها لما اوعزت اليه حكومة الاستانة بمغادرة مكة سنة ١٣٠٩هـ وهي :

يامن لقلب به هو اجيس وافكار	وامسى يكايلها بصاع ومد ^(١)
عذر ولا عذر ولا جاتها ازار	مثل الغريق اللي بجبله نجدا ^(٢)
نجلي ولا نرضى الهوينا ولا العار	ونجوز عن ماها ولو كان شهدا ^(٣)
وعلى نوال العز نسعى بالعمار	وفيماننا المصقول لطام لعدا ^(٤)
ما عزلونا منه بمجار ومجار	معزوزة محداً عليها تعدى ^(٥)

(١) عذر : الاولى بمعنى ترك ، والثانية بمعنى انه لم يترك مجالاً للمعذرة . جاتها : جاءتها . ازار : اخبار . نجدا : تعلق . (٢) الهوينا الهوان . ماها : ماؤها (٣) بالعمار : بالاعمار . وفيماننا : وفي أيماننا . لعدا : الاعداء (٤) عزلونا : اخرجونا : بمجار : الاولى من الجور والظلم ، والثانية من الاجارة والحماية . محداً : لأحد .
« ٢٤ — مارأيت وما سمعت »

يوم انو بعض الناس قد عزل مرار وامسى يعانى كل ممّ ووجدا^(١)
والثانية قوله قبيل رحلته الى اليمن :
كيف البصر بالالحسن والبركات نزالة المشرق ومن في تهامة^(٢)
نسمع طواريكم تسوون خيرات ومن لامشى تغشاه منا ملامه^(٣)
وان جا من المقدوركم جاوكم فات والعمر له في اللوح خط وعلامه
ننصي اعادينا على كيف ماجات الموت دون العز ما به ندامه^(٤)

من مكنة

الى هليوبوليس

يوم الاربعاء ١٠ جمادى الاولى سنة ١٣٣٩ — ١٩ كان الثانى سنة ١٩٢١
كنت ويوسف ياسين على اهبة السفر ، فدخلنا على جلالة الملك فودعناه ، وافضى
الينا ببعض ماتحدثه به نفسه ، ثم ختم كلامه ببيت القائل :
وقد يجمع الله الشيتين بعدما يظنان كل الظن أن لا تلاقيا !

فقبلنا يده ، وانصرفنا من حضرته داعيين له بطول البقاء . وبرحنا مكة عصر
النهار يصحبنا « بواردى » وهو عبد راكب يحمل بندقية ، ورأيت رجلا من
البدو حاملا بندقيته على عاتقه ، وشيئا ملفوفاً بمنديل على رأسه أظنه طعاماً ، يعدو
أمامنا مستمراً ، فسألت رفيقنا « البواردي » عن شأنه فقال : هو دركي من عسكر
سيدنا . ولم ألبث ان رأيته بعد ساعة من مسيره قد وقف بعيداً ، وصاح صيحتين
عاليتين قائلاً : عن أمر سيدنا ، بالنهار واحد ، واليا هو د الليل ، يأخذون ثلثه ..
وغاب عنا فلم نغض خطوات حتى طلع آخر . ومررنا بموضع يسمونه « المرقد »
تبتدىء فيه تلال رملية يرقشها الهواء وتنقل مع الرياح ، رافقتنا الى أن بلغنا

(١) انو : انه . عزل : بضم اوله : اثنى مكرهاً (٢) البصر : بضم اوله وثانيه :
الرأى . (٣) طواريكم : اخباركم . خيرات : بكسر أوله : استخبارات (٤) ننصي :
نقصد . ماجات : ماجات . ويلفظون « به » في شعرهم بضم الباء وسكون الهاء
وكذلك « له »

« الشميسة » وقد اقبل الليل ، فزلنا بها . وهي تنزه حسن في تلك الصحراء فصاينا المغرب بعد أن كنا صلينا العصر في قهوة قبلها يسمنها « قهوة سالم »

وبعد ساعتين ونصف من مغادرتنا الشميسة بلغنا « بحرة » وهي مقاه (قهاوي) متصلة وفيها بضعة بيوت . وقد رافقنا اليها فتى عتي من الدرك العربي لا يزيد عمره عن خمس عشرة سنة فاراد العبد فوزان (رفيقنا) أن يعث به فناداه : يا ورع ! (اي يا غلام) وأنت ماتصنع في هذا البر ؟ فقال : — وهو يعدو أمامنا — أنا الورع والله باثنين من حرب !

وحرب قبيلة كبيرة منازلها بين الحرمين ، ومنها كثيرون في درك مكة ، رافقنا بعضهم ايضاً .

وسألت الفتى : تجري يا عتيبي ؟ (واكثر من في بادية الحجاز يقولون جرى ولم اسمع منهم ركض) فقال العتي : إي بالله إعدي ! — فعرفت أن عتيبة أو بعض بطونها يقولون : عدا —

وفي عتيبة ذكاء مفروط وشجاعة خارقة . وفيها من يقلب انقاف جيا فيقولون « الصدج » بدلا من الصدق .

وبتنا في « بحرة » على كرسي مستطيل تظللنا السماء والاحاف ، وقد وضعت خرجي وأمتعتي قريبة مني ، وقيدتها من أسفلها بخيط نخين عقدت طرفه على مرفقي وسترته بالاحاف حتى اذا طرقتنا سارق وأراد استلابنا شيئاً شعرت به ، وكنت كثيراً ما أصنع هذا في القفر .

ونهبنا قبيل طلوع الشمس ، فصاينا الصبح وسرنا ، فبلغنا مكاناً (وهم يقولون وصلة) يدعى « حصاة أم البومة » رأينا منه البحر ، بعد مسيرة ساعتين ونصف من « بحرة » ثم انتهينا الى قهوة « الرغامة » فمكثنا بها قليلا واتجهنا نحو « جدة » وقد لاحت لنا منازلها والشمس تلزع رؤوسنا ، فبلغنا قبيل الظهر نركب نارة ونمشي حيناً ، وللتعب وحر الشمس في أجسامنا أوفى نصيب .

بتنا هذه الليلة في جدة ، ونهضنا في الصباح فذهبنا الى موظف الجوازات (الباسبورتات) ومعنا أمر مطاع من صاحب الجلالة يوجب اعطاءنا جوازين هاشميين حجازيين ، فلبى الموظف الامر، ونادى كاتباً عنده أملى عليه صفائنا (لان الصور غير إجبارية هناك) وانتهى الى الخيبي، فقال للمستملي: اكتب: حليق فتردد الكاتب .. وقال: بلحية ياسيدي . فأدار الموظف وجهه وقال متأففا: يحلقها في الباخرة يا ابني ! .. فضحكنا ، وتناولنا جوازينا فبعثنا بهما الى المعتمد البريطاني ايمضيهما ، وهناك العقدة ..

اضطرب الهاتف (التافون) في دائرة مذير الرسومات ونحن عنده، وقد أرسلنا الجوازين مع أحد رجاله ، فأخذ السماعه وهو يقول: خير! - بدلا من كلمة «آلو» التي لم أسمعها في الحجاز قط — فاذا ترجمان المعتمد يسأله غني: أليس الذي جاء من مصر بغير جواز؟ فسئلت ، فقلت بلى! فقال: لينتظر الباخرة الثانية! .. - ومن أصعب الامور على المتهيب، للسفر أن يقال له رويديك! -

فأعاد عليه مدير الرسومات السؤال عن السبب، فأجاب بأن المعتمد يريد أن يستأذن حكومة مصر ..

وهنا لم يسعني الا أن طابت مركز (سنترال) مكة وخاطبت الامير زيد بالامر ، وكان في مخلون صاحب الجلالة ، فتناول جلالته الهاتف وطلب المعتمد الانجليزي بجدة ، فأجابه ، وتداولوا حديثاً عرفت بعد ذلك ان جلالته أخبره فيه بأبني موظف في الديوان الهاشمي واتني مرسل في امر رسمي وان عليه تبعه تأخير ..

وبعد أخذ ورد وارخاء وشد! ، أفنى المعتمد بجواز الجواز ، وأصبحني بكتاب الى موظف الجوازات في السويس يزعم انه يوصيه بي خيراً . ولكنني طويت الكتاب ولم أدر ما فيه لجهلي بالانكليزية ، ولم أر في الباخرة من آمنه على قراءته فحفت أن يكون صحيفة الملمس ، فأخفيت في حقيبي ...

ركب الباخرة « دقهلية » صباح السبت ٢٢ يناير (كانون الثاني) ١٩٢١ -
١٣ جادى الاولى ١٣٣٩ وكانت ليلة الاحد شديدة الرياح ابتدأت العواصف عند
منتصفها . وبلغنا « ينبع البحر » ضحى الاحد، فكشنا خمس ساعات نزلنا في خلالها
الى هذه البلدة بل القرية، واخترقنا سوقها الضيقة المستطيلة ، وراعنا مافيها من تكاثف
الذباب كالضباب ! .

وجرت بنا « الدقهلية » عصر النهار ، والرياح تميل بها بمنة ويسرة ، وهناك
شعرنا بالبرد الذي فارقناه منذ رافقتنا الاحية ، ورافقناه حين فارقناها !
ولم نهدأ العواصف قبل طلوع صباح الثلاثاء ، وقد أرسى بنا السفينة في ميناء
الطور ، التي أبحرنا منها بعد وقوف ساعة ونصف ، واليم هادي . وأصبحنا يوم
الاربعاء ٢٦ يناير، والخدام ينادوننا : السويس ، السويس . فنهضنا الى ملابسنا
ونحن نقول معهم : السويس . السويس !

ونزلنا بعد هنيئة ، فشرح موظف الجوازات على جوازينا ، وأردنا الانصراف
فاذا بانسان يقودنا أو يرافقتنا ، رابنا أمره ، فسألته عن شأنه فأجاب - والتبجح مله
شديقه - مأمور بابصالكما الى القطار . . فازدنا ريبة، وبلغنا المحطة وقد بقى لموعد
السفر نحو ساعة ، فوقفنا وصاحبنا ملازم لنا لا يفارقنا ، فأعدنا عليه السؤال قائلين:
ها قد قد قت بما أنت مأمور به ! فهل من حاجة لك ؟ قال: نعم ! الامر يقضي بأن
لا أدعكما حتى تركبا القطار وتسافرا أماى . . فلم يداخلنا شك فى انه « بوايس
سري » ولسكننا أردنا أن نتثبت ، فسألناه عن أوحى اليه . . فقال : لا يعنيكما !
قلنا : أنت موظف في الحكومة ؟ فقال : نعم ! وها هي شارتي . . وأرانا جانباً
من قطعة بيضاء مكتوبة قد أخفاها في باطن معطفه ولم يسمح لنا بقراءة مافيها . .
صبرنا على حكم القضاء . . وقد أردنا أن نبرح المحطة قليلا لشراء حاجات
لنحاول ان يمنعنا ، بل منعنا بكل عنف ، فخفضنا لارادته ، ثم دخلنا احدى عربات
القطار الواقف وانسلنا من جانبها الآخر، وكم كان سروورنا عظيماً حين شعرنا
بلذة الانفلات والانطلاق والحرية . . فتجولنا قليلا وعدنا فركبنا وصاحبنا يبحث
عنا ، فرآنا والقطار على أهبة السير فقفز نحونا متعلقاً بالقطار، وهو يقول : أين

كننما ؟ لقد اتعبنا . . قلنا : هانحن مسافران فأعلم من ارسلك . . فقال :
واجرتى ؟ قلنا : على اي شيء ؟ . قال : على مرافقتي لكما ساعتين ! . . وهنا غلب
علينا الضحك . فدعونا شرطياً قريباً منا — كننا نخشى ان نكلمه قبل ذلك —
فحدثناه بملخصة الواقعة فقبض عايله . ومشى القطار بغتة فلم تعلم ماذا حدث .
وبعد خمس ساعات وعشرين دقيقة كننا فى القاهرة . فركبنا سيارة حملتنا
الى مصر الجديدة « هليوبوليس » حيث كان بعض اصحابنا . وأقبل علينا من نعرف
يهنئوننا بالسلامة !

هبة الدين الزركلى

جاء في فائمة الكتاب « وتقمحوا » والصواب « وتقمحوا »
وفي الصفحة ٤٨ « هو ما يسمونه الآن بالسور » والصواب « كالذي يسمونه الخ

